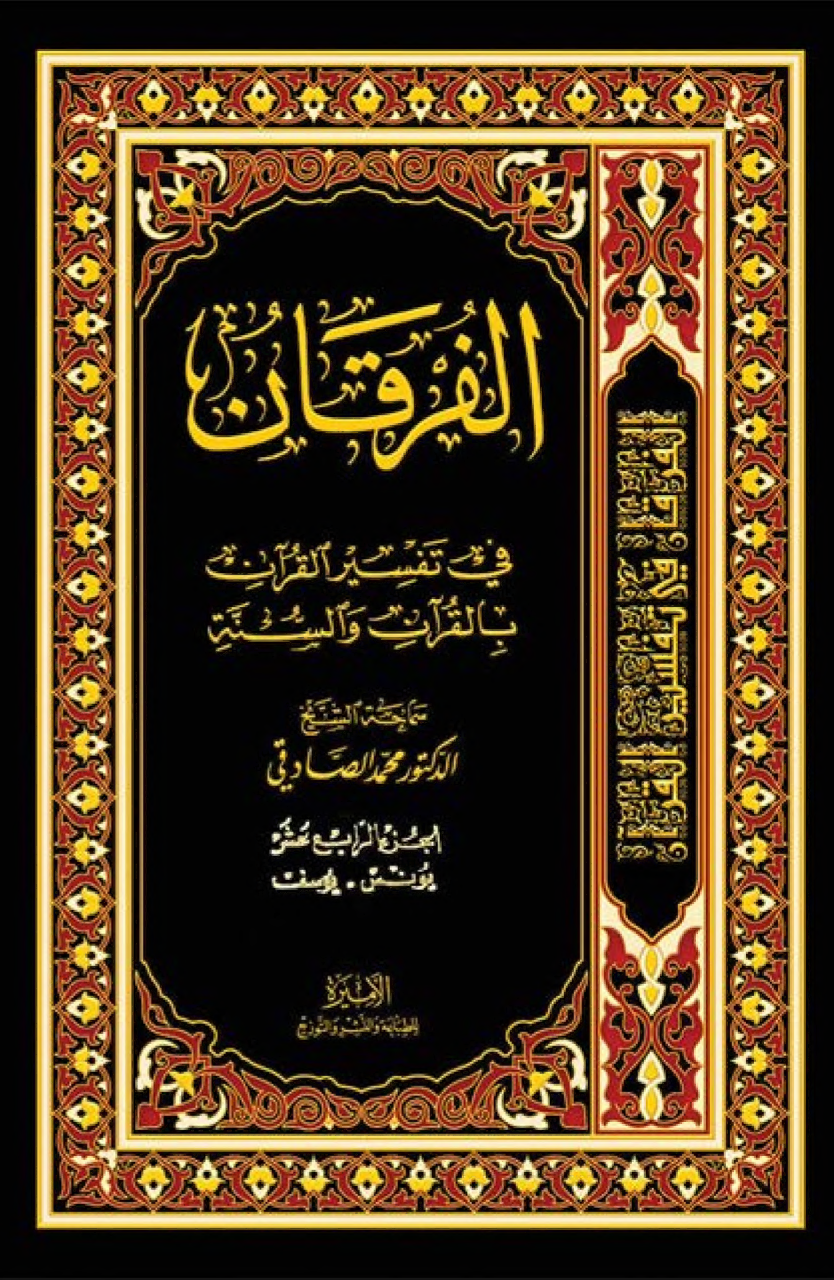

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الرابع عشر
يونس - يوسف
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

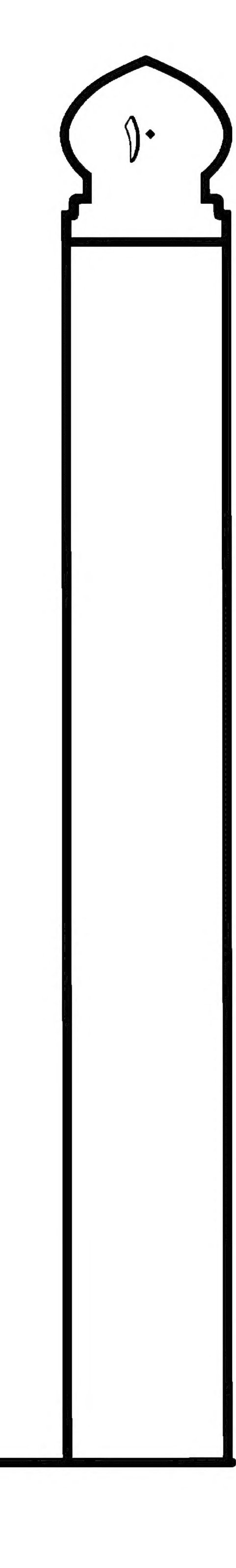
الجزء الرابع عشر

تتمة سورة يونس - سورة هود - سورة يوسف

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





تتمة

سورة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

أترى رسول الله ﷺ كان أو أمكن أن يكون في شك مما أنزل إليه؟ حتى يخاطَب هكذا أمام العالمين، ومنهم المرتابون في أمره، المكذبون إياه؟ أم هل يرتاب، وكيف يجوز عليه الشك والامتراء وقد باشر فؤاده برد اليقين، تلقياً عن الله بما أنزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين؟! والشاك في وحي القرآن ليس مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً هو إمام كافة النبيين؟!.

فهل المخاطب هنا هو النبي ﷺ؟ فليس في شك فيما أنزل الله عزّ وجلّ إليه! وإن كان المخاطب به غيره؟ فإلى غيره إذاً أنزل الكتاب! فقد يكون الشك في أصل نزول الوحي إليه لأنه بشر يأكل ويمشي في الأسواق، أمام المجاهيل الذين يتساءلون كيف ينزل الوحي على بشر[1].

ثم ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ لا تختص بمنزل الوحي الرسولي، فقد يعني منزله الرسالي من المرسل إليهم وكما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ

(١) وهذه من شطحات الحداد البيروتي في ١: ١٧٩ - القرآن والكتاب حيث يقول: إذا شك محمد فليسأل علماء الكتاب، أليس هذا دليلاً على أنهم أساتذته، أجل فإحالة محمد نفسه على أهل الكتاب ليزيل شكوكه عندهم دليل قاطع لا مرد له أنهم أساتذته ومدرسوه.

إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(١) فكما ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾(٢) كذلك ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٣) مهما اختلف إلى عن إلى: فـ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٤) حيث يجمع بين الإنزالين «إلى» مهما يفرد إلى المرسل إليهم أحياناً كما مضى وفي ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾(٥) و﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾(٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾(٧) وما أشبه من عشرات، وأخرى يفرد «إلى» لمنازل الوحي الرسولية.

فقد يعني من «كنت» كل من هو في شك أو كاد فعليه أن يسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله، ليتأكد أن القرآن هو آكد الوحي الصادق الأمين حين يقاس إلى سائر الوحي، إضافة إلى شهادة سائر الوحي على صدق القرآن ونبيه.

ولئن كان المخاطب هو الرسول ﷺ أم هو معني مع سائر المكلفين فقد يعني قاطع البرهان المثبت لوحي القرآن لكل شاك فيه، فهو معني من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، وكما في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(٨) حيث وحَّد ثم جمع ليُعلم أن الخطاب للأمة وليس الرسول إلا حاملاً له كسائر رسالاته الربانية.

وكيف يشك وهو يوحى إليه بمثل هذه الآية، فإن واقع الوحي هو واقع البرهان على صدقه!.

ثم وفيم يشك محمد ﷺ ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾؟ أشكاً في أصل إنزاله؟ فقد ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾! ولا يزيل شكه لو كان في شكٍ منه مثل هذه الآية التي هي

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٥٩.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٨) سورة الطلاق، الآية: ١.

أيضاً ﴿مِمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾! إلّا أن يزيل شكٌ شكاً مثله، بل والمزيل أضعف حيث يسند إلى الذين يقرؤون الكتاب، أم شكاً في أنه نسخة عربية من الكتاب الإمام وأن علماء الكتاب هم أساتذته «فيما أنزلنا إليك» من هذه الترجمة؟[١] ولا يشك أي عاقل بسيط ولا سفيه في «من علّمه»! فضلاً عن أعقل العقلاء على مدار التاريخ كما يصدقه عقلاء التاريخ!.

ذلك، وهنا عشرات من الآيات تقرر موقف القرآن أنه الكتاب الأخير النازل من عند الله إلى محمد مهيمناً على ما بين يديه من كتاب، وناسخاً بعض أحكامها ومكملاً أخرى، وناقداً ثالثة، المحرَّفة عن جهات أشراعها!.

أم شكاً في معانيه ومغازيه؟ وهو أفضل الراسخين في العلم! وهو ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[٢]! ومهما يكن من شك في القرآن فهو لغير المؤمنين به المخاطَبين بمثل ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

فتراه داخلاً في هذا الخطاب وهو ﴿عَبْدِنَا﴾ المنزل عليه القرآن، ولو كان شاكاً بين الشاكين فآية التحدي هذه أيضاً هي من المشكوك فيه فكيف يتحدى بها؟!، وكيف يشك هو المنزل إليه ولا يشك الذين يقرؤون الكتاب ولم ينزل إليهم حتى يستعلمهم فيه، ولماذا - إذاً - لا يستعلم ربه المنزِّل إليه ويسأل هؤلاء الذين أكثرهم له منكرون، فليكونوا هم الداعون بالقرآن دونه لأنهم يزيلون شكه!.

(١) نور الثقلين ٢: ٣١٩ في العلل بإسناده إلى إبراهيم بن عمير رفعه إلى أحدهما عليهما السلام في الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا أشك لا أشك.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

لذلك يقول الرسول ﷺ هنا «لا أشك لا أشك»[١] ولم يسأل أحداً بل وسئل عنه وأجاب بما يزيح كل شك وريبة وكما قال ﷺ: «لا أشك ولا أسأل»[٢].

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٣١٧ عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣١٧ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أن يونس... وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر فمر به رجل فقال ما فعل قوم يونس فحدثه بما صنعوا فقال لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم وانطلق مغاضباً يعني مراغماً» أقول: في هذا الذيل تنظُّر، وهنا حديث آخر في نور الثقلين ٢: ٣٢١ عن تفسير العياشي عن أبي عبيدَة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام كتب أمير المؤمنين عليه السلام قال: حدثني رسول الله ﷺ أن جبرئيل حدثه أن يونس بن متى بعثه الله إلى قومه...» ولكنا تركنا نقله على طوله لأن فيه ما لا يصدق على ساحة العصمة الرسولية، ك: «كان رجلاً تعتريه الحدة وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم عاجزاً عما حمل من ثقل أوقار النبوة وأعلامها وأنه تفسخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله»! - وما أشبه من فرية على ساحة الرسالة، مما يؤكد أن هذا الحديث من المختلفات الإسرائيلية!.

وفيه في العلل عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لأي علة صرف الله عز وجل العذاب عن قوم يونس وقد أظلهم ولم يفعل ذلك بغيرهم من الأمم؟ فقال: لأنه كان في علم الله أنه سيصرفه عنهم لتوبتهم وإنما ترك إخبار يونس بذلك لأنه عز وجل أراد أن يفرغه لعبادته في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه وكرامته.

وفيه عن تفسير القمي عن علي عليه السلام في حديث طويل يقول في آخره: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهي الدبا فأظلته من الشمس فسكن ثم أمر الشجرة فتنحت عنه ووقع الشمس عليه فجزع فأوحى الله إليه يا يونس لِمَ لم ترحم مائة ألف أو يزيدون وأنت تجزع ساعة؟ فقال: يا رب عفوك عفوك، فرد الله بدنه ورجع إلى قومه وآمنوا به وهو قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ...﴾ [يونس: ٩٨].

وفيه عن روضة الكافي عن معروف بن خربوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن لله عز وجل رياح رحمة ورياح عذاب فإن شاء أن يجعل الرياح من العذاب رحمة فعل، قال: ولن يجعل الرحمة من الريح عذاباً، قال: وذلك أنه لم يرحم قوماً قط أطاعوه فكانت طاعتهم إياه وبالاً عليهم إلّا من بعد تحولهم عن طاعته، قال: وكذلك فعل بقوم يونس لما آمنوا رحمهم الله بعدما قد كان قدر عليهم العذاب وقضاه ثم تداركهم برحمته فجعل العذاب المقدر عليهم رحمة فصرفه عنهم وغشيهم وذلك لما آمنوا به وتضرعوا إليه.

وفيه عمن لا يحضره الفقيه وفي العلل التي ذكرها الفضل بن شاذان رحمه الله عن الرضا عليه السلام قال: إنما جعل للكسوف صلاة لأنه من آيات الله عز وجل لا يدري الرحمة ظهرت أم لعذاب =

وقد يعني الشك في أنه مذكور عندهم في التوراة والإنجيل، فكذلك لا أشك ولا أسأل.

فترى أن الآية بين هذه المحتملات المتحَّملات والمحمَّلات تعني فقط ما يعنيه الناكرون لهذه الرسالة السامية من شك في كون القرآن وحياً يستقل عن سائر الوحي، مهيمناً على ما بين يديه من كتاب، حيث يقول قائلهم إن القرآن نسخة عربية من الكتاب الإمام: التوراة، فإن كنت في شك منه فأسأل علماء الكتاب الذين علَّموك إياه!.

فقد تعني كلّ شاك في وحيه، أم في البشارات الكتابية به، أم في استقلاله عن سائر الوحي، فليقسه إلى سائر الوحي ليتبين له أنه فائق عليه.

أم تعني الرسول ﷺ مجاراةً مع الشاكين في أيّ من هذه، مدلاً إلى ما يـزيـح أي شـك فـيـه، وأخـيـراً ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ فهل هو بعدُ يستعلم أهل الكتاب عن أنه نسخة عربية عن الكتاب الإمام؟ فليكن النص إذاً: لقد جاءَك الحق من الذين أوتوا الكتاب من قبلك، دون «ربك»!.

وكيف يشك؟ وقد ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾![1] أم كيف يثبت بهذه الشرطية شك للرسول ﷺ أياً كان، والشرطية لا تحتّم مدخولها كما ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] فهل هو أشرك، فإنما تأتي الشرطية لتحلّق على أي شاك ولو كان هو الرسول ﷺ ولن، ولكي يعلن أن القرآن بنفسه وبشهادة الذين يقرأون الكتاب، أنه وحي صارم لا ريب فيه ولا شبهة تعتريه.

= فأحب النبي ﷺ أن تفزع أمته إلى خالقها وراحمها عند ذلك ليصرف عنهم شرها ويقيهم مكروهها كما صرف عن قوم يونس حين تضرعوا إلى الله عزّ وجلّ .

(١) سورة ، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

وهنا ﴿مِمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ و﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وما أشبهه، دليل قاطع لا مرد له على أنه ليس نسخة عن أي كتاب، بل هو وحي فذٌّ لا ريب فيه من رب العالمين.

وقد تعني «إن» نفي الشك لكونها نافية «فسأل». . . حيث هم يعترفون لك بنفي الشك.

إذاً فآية الشك هذه هي من عساكر البراهين التي تزيل أي شك حول وحي القرآن، الفذ، ثم «وإن كنت في شك» بين محتملاتها، لو عنت أسوأها وهو شرطية شكه، فلم تكن لتعني واقع شكه، بل هو مجاراة تعني استئصال أي شكٍ وريبة حول القرآن.

فـــ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[1] ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2] ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[3].

أفبعد هذه التصاريح وعشرات أمثالها يُقحم هذا الرسول في كتابه ما يهدم عليه صرح دعوته ودعواه، ولا يعمله أي بسيط سفيه، فضلاً عن أعقل عقلاء التاريخ؟!.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة هود، الآية: ١٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

ذلك، ولو كان محمد ﷺ شاكاً فيما أنزل إليه من ربه لكان غيره من المؤمنين به أولى بالشك فيه، وكيف يزول ذلك الشك بما يخبره به أهل الكتاب الناكرون رسالته.

إذاً فلا شك أن آية الشك لا تعني أنه ﷺ في الحق شك فيما أنزل إليه، وإنما هو مجاراة مع الشاكين ليزيل شكهم عن بكرته، فحتى لو كان المنزل إليه في شك مما أنزل إليه لكان الكتاب وقارئوه شاهدين على بتّه بحقه، ولا تعني الشرطية بيان أنها وقعت أم لم تقع، وإنما تتكفل بيان واقع الملازمة، إن كان كذا كان كذا، ولكنه ﷺ لم يشك ولم يسأل، فعلى من يشك أن يسأل، تدليلاً على أنه لو سقط إيمان الرسول بوحي القرآن ولن، فلن يسقط وحي القرآن عن واقعه لمكان برهانه القاطع الذي لا مردّ له حتى من الذين يقرؤون الكتاب وهم له ناكرون.

ذلك، وأخيراً قد تعني «إن» النافية لمدخولها: فما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ليشهدوا لك أنك ما كنت في شك كما هم ليسوا في شك، لمكان البشارات المحمدية في كتبهم، وأن طبيعة وحي الكتاب تدل على أن القرآن أحرى أن يكون وحياً.

وهذا التوجيه في «إن» النافية يشي بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزُّمه في مكة بعد هامة الإسراء، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه وبعد موت خديجة وأبي طالب واشتداد الأذى على رسول الله ﷺ والذين معه، وبعد تجمُّد الدعوة في فترة مكية بموقف قريش العنيد العتيد، وكل هذه الملابسات تُلقي ظلالها على قلب الرسول ﷺ فيسري عنه بذلك التوكيد بعد ذلك القصص الموحى، تعريضاً بالشاكين الممترين المكذبين:

وفي رجعة أخرى إلى الآية نقول: إنها تحمل شرطية تنبه أن قراءة الكتاب مما يحمل قارئه على تصديق وحي القرآن بأحرى من كل كتابات الوحي وكما

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١] اجتثاثاً لكل شكٍ وريبةٍ عن ساحة الوحي القرآني بتلك المقالة مهما كانت بسيطة عابرة، فضلاً عن المقايسة الدقيقة بعد التدبر في آية الكريمة حيث تزداد يقيناً مزدوجاً بأنه الوحي القمة الذي يحتل الموقع الأعلى من عامة الوحي على عامة رسل الله.

وهنا ﴿الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ ليس يعني فقط علماء أهل الكتاب، بل هم عامة القارئين له علماء وسواهم، ويقابلهم «أميون لا يقرؤون الكتاب إلا أماني» فللشاك أن يسمع إلى قراءة أي وحي ثم يقايسه إلى من يقرأ القرآن أم هو يقرؤه، ثم يفكر أيهما أحرى بالتصديق وحياً؟ وطبعاً هو القرآن الذي يفوق سائر الوحي في كافة الحقول البيانية لفظيةً ومعنويةً.

ذلك، ولئن كان الرسول ﷺ في شكٍ مما أنزل إليه لكان يؤنَّب أشد مما يؤنّب الشاكون سواه، وكما يندد بهم: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[٢] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٣] ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٤] ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[٥].

وعلى أية حال فالشك بين كفر، ومتطرق إلى إيمان، وأما المؤمن بالفعل فضلاً عن رسول الإيمان فلا شك له بل هو على ذروة من اليقين، وإلا فكيف يصطفيه الله ويجتبيه بين عباده الصالحين وهو نفسه بشكه من الكالحين الطالحين؟!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٨.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٠.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٤.
(٥) سورة الدخان، الآية: ٩.

إذاً ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ في وجه خطاب الرسول ﷺ ليست لتقول إنه في الحق شاك مما أنزل الله إليه، إذ لو كان في شك منه كان كافراً أم ضالاً لم يؤمن بعد فضلاً عن الرسالة القمة، ثم ماذا تفيده أمثال هذه الآية التي تعني علاج شكه إذ هو شاك فيها كما هو شاك في سواها.

وقد تعني ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ خصوص المذكورات قبلها من ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ - إلى - ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ عناية إلى تثبيتها وهم به مقرون.

ثم الشاك في القرآن هو بأحرى شاك فيما سواه من وحي هو دونه في ظهوره وبهوره، فضلاً عما يقرؤه له أهل الكتاب، ثم ماذا يفيده بعدُ ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وهو شاك فيما أنزل إليه، إذ لا فارق بين ما أنزل إليه أكان هو سائر القرآن أم أمثال هذه الآيات التي تعني علاج شكه.

إنما ذلك من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة، أن الشاك في القرآن له طريق بسيط لإزالة شكه هو قراءة سائر الوحي وقياسه إلى وحي القرآن، ثم طريق أعلى هو التدبر في القرآن نفسه، وأما الرسول ﷺ فهو موقن في وحي القرآن بنفسه منذ نزوله، دون حاجة إلى وسائل أخرى داخلية أم خارجية توصله إلى الإيقان بوحي القرآن.

ذلك، فبين محتملات عدة في المعني من الآية كيف يتمسك بأردئها المناحر لنفس الآية وأضرابها من عدة جهات، فرضاً له ورفضاً لما سواه من محتملات صالحة إلى ذلك الطالح الكالح؟!.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٥)﴾:

وموقف ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ هو الموقف لـ «وإن كنت في شك» على سواء، فالنقد والجواب كما النقد والجواب على سواء، وهذه الآية تتطلب الإيقان

من أي مخاطب بها بآيات الله فهو من الرابحين، كما والشك فيها يجر إلى تكذيب فخسران مبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾:

﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ألا يؤمنوا فيعذَّبوا لأنهم يعاندون الحق وهم يعلمون، فهم - إذاً - ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ حتى ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ إذ تصلبت قلوبهم وصلبت حيث ختم الله عليها بما كانوا يكفرون، فهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ.. حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ فيؤمنوا ولات حين مناص وقد فات يوم خلاص:

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨﴾:

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ إثقال في التأنيب والتعييب على القرى الكافرة التي لم تؤمن عند رؤية العذاب، أم آمنت فلم ينفعها إيمانها إذ كان مخافة البأس دون مخافة الله، اللّهم ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ فنفعهم إيمانهم إذ آمنوا حقه بالله مهما كان بملابسة العذاب، فليس الإيمان عند رؤية البأس غير نافع إلّا لكونه منبعثاً عن البأس: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾[1].

فـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ و﴿لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ و﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تصريحات ثلاثة بأنهم لم يؤمنوا، وهنا ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ دليل أنهم آمنوا، فعدم الإيمان الصادق هو طبيعة الحال لمن عاشوا كافرين حتى جاء بأس الله، فليس

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، اللّهم إلّا شذرٌ نزرٌ كقوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوٓاْ﴾ نفعهم إيمانهم لصدقهم فـ ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أن يرجعوا كفاراً فنعذبهم، أم حين موتهم حيث ينقطع متاعهم الدنيا إلى متاعهم في الأخرى.

ذلك، وفيما يروى عن النبي ﷺ: «أن يونس دعا قومه فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب فقال إنه يأتيكم يوم كذا وكذا ثم خرج عنهم، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها وبين السخلة وأولادها وخرجوا يعجون إلى الله علم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب[١].

أجل وإنه «لا ينجي حذر من قدر وإن الدعاء يدفع من البلاء»[٢] حين يكون حقاً صادقاً.

ذلك، وليس هذا الاستثناء إلا عن واقع مستمر، فلا يخص قوم يونس إلّا كواقع مضى، فإن استقبل مثل ما عملوا فعل الله بهم كما فعل بهؤلاء من كشف العذاب، ولأنه يندِّد بسائر القرى التي لا تؤمن عند رؤية البأس، أم تؤمن إيماناً لا ينفع وهو المنبعث عن رؤية البأس.

فلا بد لدفع العذاب من إيمان سابق عليه أم لاحق به يكسب فيه خيرٌ كقوم يونس، فـ . . . ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ . . .﴾[٣].

ذلك و﴿فَلَوۡلَا﴾ إهابة بالمكذبين المتعلقين بخيوط النجاة الأخيرة علهم

---

(١) المصدر أخرج ابن النجار عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: . . . وقد قال الله في كتابه: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوٓاْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: ٩٨].

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

ناجون، أن السنة جارية بدائب استمرارية التكذيب كما كان مهما تعلقوا عند رؤية البأس بلفظة الإيمان، وهكذا كل عاص مؤجِّل للتوبة، حيث يغتنم الفرصة ما دامت الحياة قائلاً: سوف أتوب، ولكن أين الأمل من العمل، ومن ذا يضمن توفيق التوبة وتوفر أسبابها بعد استمرارية العصيان: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

«لو» هنا تحيل تلك المشيئة المخالفة للحكمة الربانية من الخلق فإنها الاختيار الاختبار ﴿أَفَأَنتَ﴾ الرسول - ولن يشأ الله - ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[2] مما يشي أنه ﷺ كان مصراً على إيمانهم لشوقه الفائق للإيمان[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) نور الثقلين ٢: ٣٣١ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من أخبار التوحيد بسند سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ...﴾ [الأنعام: ١١٢] فقال عليه السلام: حدثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: إن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام ليكثر عددنا وقوتنا على عدونا؟ فقال رسول الله ﷺ: ما كنت لألقى الله تعالى ببدعة لم يحدث إلي فيها شيئاً وما أنا من المتكلفين فأنزل الله تبارك وتعالى عليه يا محمد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: ٩٩] على سبيل الإلجاء والإضطرار في الدنيا كما يؤمن عند المعاينة ورؤية البأس وفي الآخرة ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقوا مني ثواباً ولا مدحاً ولكني أريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطرين ليستحقوا مني الزلفى والكرامة ودوام الخلود في جنة الخلد ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] فليس ذلك على سبيل =

ثم الإيمان كما الكفر ليس إلَّا بإذن الله بعد اختيار الكفر أو الإيمان من المكلفين دون فوضى جزاف، فالإذن التكويني الرباني لاحقٌ كل ما يحصل من كفر وإيمان، ولكنه ليس مسيِّراً لكفر أو إيمان، فإنما هو بعدما يختاره المختار من كفر أو إيمان، فإذنه للكفر - إذاً - تركه تأييده في سبيل الإيمان، أم وحمله أيضاً على كفر أكثر جزاءً وفاقاً على كفره المختار ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1]، كما إذنه للإيمان - إذاً - تأييده في سبيل الإيمان فازدياداً له: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ الكفر ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ جزاءً على رجسهم المعمد إذ لم يستعملوا عقولهم.

ذلك، فكما أن عدم إذنه تعالى أن تؤمن النفوس المتخلفة عن علم وعمد عن شرعة الله، لا يعني إلا عدم توفيقه لهم في ذلك، كذلك ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ يعني رجس العذاب قضية رجس الكفر، ومن رجس العذاب الختم على قلوبهم، وإرسال الشياطين إليهم وتقييضهم عليهم.

وأما الإذن التشريعي فهو يعم كافة المكلفين، كما التكويني المسيِّر لإيمان أم كفر، لا دور له على أية حال، وإنما هو التوفيق وعدمه للإيمان وعدمه بعدما اختاروا إيماناً أو كفراً.

= تحريم الإيمان عليها ولكن على معنى أنها ما كانت لتؤمن إلَّا بإذن الله وإذنه أمره لها بالإيمان ما كانت مكلفة متعبدة وإلجاءها إياه إلى الإيمان عند زوال التكليف والتعبد عنها، فقال المأمون: فرجت عني فرج الله عنك.

وفيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: اجعلوا أمركم لله ولا تجعلوه للناس فإنه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد إلى الله، لا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب إن الله عز وجل قال لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾ [القَصَص: ٥٦] وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: ٩٩] ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإني سمعت أبي يقول: إن الله عز وجل إذا كتب على عبد أن يدخل في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره.

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

فإذنه تعالى لمريد الإيمان تيسير له دون تسيير، كما إذنه لمريد الكفر تيسير له بترك توفيقه دون تسيير، اللّهم إلا بما يختم الله على قلوبهم، تسييراً إلى كفر اختاروا جزاءً وفاقاً ولا يظلمون فتيلاً.

فلا حاجة إذاً إلى تأويل عليل غليل أن الإذن هنا يعني العلم، أو الإعلام وما أشبه من غير إذن.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾:

هنا ﴿ٱنظُرُواْ﴾ تعم إلى نظر البصر نظَر البصيرة، و﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ تعني في نظر البصر إلى النظر من بعيد - وهو بعيد عن السماء الأولى بأعماقها فضلاً عن الستة الأخرى - تعني النظر من قريب على ضوء السفر بالصواريخ وأشباهها إلى السماوات ما استطعنا إليه سبيلاً.

فقد نظرت الآية في ذلك النظر إلى مستقبل النظر بصرياً مهما شمل كل نظر منذ نزولها إلى يوم الدين، وذلك أمر يحلِّق على أهل كل زمان أن يوسِّعوا نطاقات محاولاتهم للرحلة الفضائية قدر المقدور، وكما لمحت لذلك المستقبل الزاهر آية يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[(١)] فهنا ﴿عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وفي آيتنا ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ هما تعريضتان اثنتان بهؤلاء الذين غزوا الفضاء حتى الآن فقال قائلهم من السوگيت الملحد: ما رأينا الله على سطح القمر! وكما قال زميلهم فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا...﴾[(٢)] ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ...﴾[(٣)] ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾[(٤)].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٦.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣٧.

وواجب النظر هنا موجَّه إلى المؤمنين بهذا القرآن كمحَاور أولى لتحقيقه، ثم كل من يسمع إلى هذه الإذاعة القرآنية.

فغزو الفضاء بمختلف الوسائل المستطاعة لبني الإنسان هو من الأمور الدينية التي توسع نطاق الآيات المستعرضة للناظرين، توسيعاً للآيات الآفاقية بمعرض الأنظار على مدار الزمن، توكيداً وتوطيداً لتوحيد الله، سبحانه وتعالى عما يشركون، مهما ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ - وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

فكما الاستعراضات الرسولية والرسالية تهدف ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[1] كذلك استعراض سائر الآيات تهدف ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ لتكون كلمة الله وحجته هي البالغة في الخلق أجمعين.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ هؤلاء المكذبون أن يأتيهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من المكذبين؟ ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ مثل أيامهم لكم، وهنا ﴿مَعَكُم﴾ تلمح إلى معية ذلك الانتظار دون أن يكون له ﷺ من الأمر شيءٌ.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

وهل إن بعد محمد ﷺ رسلٌ حتى ﴿نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾؟ وقد ختمت به الرسالة والنبوة! كلّا، حيث لا تعني «ثم» هنا ما يُنتَظر من مستقبل العذاب، بل القصد مجموعة أيام العذاب لمن يستقبل إلى من مضى، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى﴾ في حقول العذاب ﴿رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ معهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ على مدار الزمن الرسالي ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ في الطاعة والعبادة، أهما لله لا شريك له، أم لمن دون الله، أم جمعاً بين الأمرين، «فـ» ها أنا أعلن في هذه الإذاعة القرآنية أنني لا ﴿أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأي وجه وعلى أية حال ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أحياءً وأمواتاً ويوم إليه تحشرون، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وحده لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ بكل الوجوه ظاهرة وباطنة دون إبقاء لأي وجه على أي وجه ﴿لِلدِّينِ﴾ الحق ﴿حَنِيفًا﴾ معرضاً عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أبداً ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بأية دركة من دركات الإشراك بالله، فكن - إذاً - في أخلص درجات التوحيد.

ذلك، وذلك الإيجاب والسلب: ﴿أَقِمْ . . .وَلَا تَكُونَنَّ﴾ وهما يعنيان كلة الإخلاص: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تراهما كيف يوجهان إلى أوّل المسلمين وأخلص المخلصين وهو عائش هذه الكلمة بكل كيانه طول حياته رسالياً وما قبله؟.

ذلك له تأكيد وطيد، ولمن يسمعه استئصال لآمال مائلة عن التوحيد أن يشاركهم مصلحياً إلى الإشراك بالله، ثم ولآخرين عظة ونبهة أن الإشراك محظور محظور من أيّ كان، فليس الرسول ﷺ لأنه رسول حراً فيما يعتقد أو يفعل أو يقول، بل هو كسائر المكلفين مسؤول مسؤول.

ذلك، وباحتمال آخر تحتمله الآية وأضرابها، الخطاب عام يشمل كافة المكلفين على الأبدال.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾:

فالذي ينفع بحق أو يضر بحق، استقلالاً دونما استغلال، هو الله الذي لا إله إلّا هو، ولا تعني العبادة كأصل في العابدين من دون الله إلّا جلب نفع أو دفع ضر، فلا معبود إذاً إلّا الله، فعبادة من دون الله ظلم بالنفس وظلم بالحق وظلم على كافة المقاييس.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾:

إنه لا يدفع ضُرّاً لله أيُّ دافع، ولا خيره أيُّ مانع ف «اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوه أن يستر عوراتكم ويؤمن من روعاتكم»[1].

ذلك، فالموحد الصالح ليس يخشى أحداً إلّا الله، فإن أزمة الأمور طراً بيده، والكل مستمدة من مدده.

فحين يقوم طاقاته المستطاعة في سبيل الله، حصولاً على مرضاة الله، فلا عليه أن يخاف أية عراقيل في هذه السبيل، وهو يعلم بيقين ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

فالمشيئة الطليقة الربانية هي التي تدبر أمورنا كما يصلح حين نَصلح له ونُصلح، حيث ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾: بضرّ أو بخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولكنه ليس فوضى جزاف، وإنما حسب المساعي والفاعليات والقابليات وما يراه الله - مع كل ذلك - صالحاً شخصياً أم جماعياً لعباده ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣١٨ - أخرج أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: . .

فليس ليصيب عباداً له بضرّ، إلّا فيما يستحقونه ولا حِوَل عنه في قسطاس العدل والحكمة الربانية، إذ سبقت رحمتُه غضبه، فما دام للرحمة مجالة فلا مجال لغضبه، اللّهم إلّا إذا استأصلت مجالات رحمته فغضبٌ على سبيل الحكمة الحكيمة، والعدالة الرحيمة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ الحقيق مجيئه من ربكم، وهو الحق كله رسولاً وقرآناً وسنة ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فما أبقى ربكم حقاً يحق أن يقوله لكم إلى يوم الدين إلّا وهو قائله في هذا الكتاب المبين، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بذلك الحق ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ حيث لا ينفع اهتداءه لا الحق ولا صاحب الحق مرسلاً ورسولاً فضلاً عن الله، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ إذ لا يضر بضلاله الحق وصاحبه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ في هداكم وضلالكم على أية حال، إنما أنا رسول تُقرِّر موقفي:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾:

فلا اتباع لك رسولاً إلّا ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك، دون سائر الوحي من عقلك أم عقول الآخرين ﴿وَاصْبِرْ﴾ في بلاغ رسالتك دونما انقطاع ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بما يحكم هنا وفي الأخرى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

ولقد صبر صاحب الرسالة العظمى على أعبائها حتى عجز الصبر من صبره، وحقاً يقال في حقه:

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري وأصبر حتى يحكم الله في أمري

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيءٍ أمرَّ من الصبر

وهكذا نجد كيان هذه الرسالة السامية المنقطعة النظير بين كل بشير

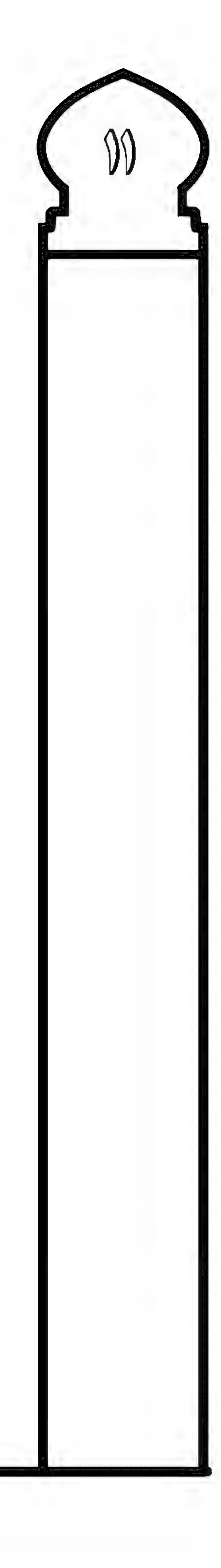
ونظير، قد بلغت القمة في التربوية والتربية الربانية، غير متأثرة من خماسية العوامل التربوية البشرية المحمّلة مصلحياً على الإنسان أياً كان وإيان، فحقل التربية الأبوية والأمية، والمدرسية، والمحيط الذي يعيشه، والتراث الذي يصنعه، هذه العوامل لها تأثيرات هامة في بناية الشخصية الإنسانية خيِّرة أو شريرة.

ذلك ولا بد للرسالة الربانية أن يحملها صنيع الرب، ولكي يحلق على كافة الشكليات التربوية الناقصة البائسة غياراً لها، وكذلك الشكليات الكاملة شيئاً مّا ليرتقي بها إلى مراقي الكلمات المعنية من الإنسان ربانياً.

فالرسول ﷺ لا يتبع إلّا وحي ربه منذ ولاده حتى ارتحاله، مهما كانت درجات الوحي متفاضلة، فهو صنيع الله قبل ولاده في أصلاب آبائه وأرحام أمهاته، ثم وهو صنيعه حين ولاده إلى شبابه وإلى كهولته لحد الأربعين، ومن هنا بزوغ القمة الرسالية المعنية بالوحي الأخير ليصبح رسولاً إلى الناس أجمعين، دون تأثير من المحيطات التربوية البشرية التي هي بين خاطئة وناقصة.

وإذا كان موسى «ولتنصع على عيني» وهو يحمل الرسالة العالمية الثالثة المحددة بزمنها الخاص، فبأحرى هذه الرسالة الأخيرة، لا بد وأن يخطو أرقى الخطوات ويحظو أرفع الحظوات في «ولتنصع على عيني» «وأصطنعك لنفسي» وما أشبه من الاصطناعات الربانية.





سُورَةُ هُودٍ



سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

إنها سورة «هود» المذكور هو فيها خمس مرات، وفي سائر القرآن مرتين: (١٢٦: ١٢٤ و٧: ٦٥) تذكر قصته هنا مع قومه في الآيات (٥٠ - ٦٠) وفي الشعراء (١٢٣ - ١٤٠) وفي الأعراف (٦٥ - ٧٢) فثماني عشرة آية في الشعراء وثماني في الأعراف تذكر أن دعوته، وهنا إحدى عشر آية

تتكفل ذكراه، فلماذا تسمى هذه السورة باسمه وعديد آيها بقصته أقل مما في الشعراء؟!.

أتراه لأن قصته هنا أطول من سائر القصص المسرودة فيها من المرسلين؟ ونوح يقص فيها من (٢٥ - ٤٩) وهي (٣٥) آية أكثر مما ذكر في سورته الخاصة به! وشعيب يقص فيها من (٨٤ - ٩٥) وهي (١٢) آية، كما ويذكر معهما صالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام وكأنها سورة قصصية تذكر فيها هؤلاء النبيون السبعة وفيهم نوح وإبراهيم وموسى من أولي العزم من الرسل عليهم السلام.

أم لأن قصته هنا أهم مواضيعَ من قصته في الشعراء؟ ولا نجد اللّهم إلّا عكساً أم على سواء!.

«الشعراء» الحاوية لفصل أكثر هي الشعراء لهامة القضاء على الشعراء، ثم وعديد الجمل بينهما على سواء رغم زيادة عديد آيها في الشعراء.

ونوح عليه السلام تخص به سورته فكيف تتكرر سورة أخرى باسمه! وهكذا إبراهيم عليه السلام، وموسى هو أكثر ذكراً بعديد اسمه وقصته من كافة المرسلين إلّا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمكان قصته، فلا حاجة إلى تسمية سورة خاصة به وهو عشر عشرات من السور بقصصه! ثم شعيب وصالح ولوط ليسوا مثل هود في قصته مع عاد الأولى وهم شر الأقوام الرسالية على الإطلاق، مما يفضل تسمية هذه السورة باسم قهرمان الدعوة في ذلك الوسط الغدار الجبار!.

ذلك، و«هود» من السور التي شيبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [1] لمكان

(١) الدر المنثور ٣: ٣١٩ عن أبي بكر قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت، وبنقل آخر قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عجل إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود وأخواتها والواقعة والحاقة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية، وفي ثالث إضافة القارعة وسأل سائل، والنقل=

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[١] ولكن الآية مذكورة مرة أخرى في الشورى ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ . . .﴾[٢] فما هي - إذاً - ميِّزة هود على الشورى؟ أتراها لما تحوي من قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ وهي منبثة في القرآن كله وقد سئل رسول الله ﷺ: أنك قلت شيبتني هود؟ قال: نعم، قيل: فما الذي شيبك منه، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال ﷺ: لا ولكن قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[٣].

علّ «أخواتها» تعني فيما عنت «الشورى» أم ولما تشمل هود وأخواتها سائر القول الثقيل كالغاشية والقارعة وسأل سائل والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت، فقد ذكرت هذه من أخواتها ولا تحوي آية الاستقامة إلّا الشورى وهي غير مذكورة فيها، وهود في ذلك الميدان تحويها وأهوال القيامة وقصصاً قاسية راسية من المرسلين مع أقوامهم كنوح وإبراهيم وموسى وصالح ولوط!.

ذلك وقد تمتاز هود في ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ حيث انضم إليه ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فعليه أن يجعلهم مستقيمين كما هو وذلك أثقل من استقامته ﷺ بشخصه، وقد يأتي نبأها الفصل عند آيتها.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾:

هنا ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ﴾ علّه من نفس ﴿الٓر﴾ حيث أحكمت آياته في مثل

= المتظافر يحوي هود والواقعة، فهما - إذاً - قهرمانتان في ذلك الميدان، بفضل هود على الواقعة لمكان هود وأخواتها في أحاديث عدة.

(١) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٣) المصدر أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي علي السري قال رأيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ﷺ روي عنك أنك قلت: شيبتني هود. . .

هذه الحروف الرمزية، ثم فصِّلت في مفصلات الآيات للناس، وفصلت بوحي خاص لرسول الناس.

كما وأنه كل القرآن حيث أحكمت آياته ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١] ثم فصلت ليلة القدر للرسول ﷺ ومن ثم فصلت في القرآن المفصل كله، وكل ذلك ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ إحكاماً وتفصيلاً، دون تدخُّل حتى للرسول ﷺ في أي إحكام أو تفصيل، كما وأحكمت في متشابهات ثم فصلت بمحكمات، فقد أحكمت آياته في نبرات، ثم فصلت بآيات أخرى، وأحكمت معرفياً ثم فصلت علمياً وعقلياً على مر الزمن، فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن، إذاً فلا إحكام في القرآن إلا وهو مفصل من قبل الرحيم الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢].

ولقد فصلنا القول حول مرحلتي إحكام القرآن وتفصيله في سور القدر والدخان والقيامة (١٦) وطه (١١٤) وسواها فلا نعيد هنا إلّا ما فصلت في ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

«ثم» هنا تُراخي تفصيل الكتاب عن إحكامه فتراخٍ أول هو منذ الأزل حتى ليلة القدر، وتراخ ثان هو طيلة رسالة الوحي منذ ليلة القدر وهي ثلاث وعشرون سنة، ثم هناك تفصيل آخر على مدار الزمن وتقدُّمه حيث تتجدد معارف من الذكر الحكيم لم تكن تعرف من محكم الكتاب على تفصيله، ومن ثم تفصيل آي بآي أخرى حيث القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض، ثم تفصيل القرآن بالسنة لمكان ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾[٣].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

فلا تفصيل حقيقياً للقرآن إلّا ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ مما يحصر تفسير القرآن بنفسه، ومنه تفسيره بالسنة حيث أمرنا باتباعها ولكنها لا تُعرف إلَّا بموافقة القرآن، دون أية حاجة إلى تفسير وتفصيل من عند غير الله، فكما أن أصل كتاب القانون الرباني منه، كذلك التبصرات له فصلاً، فقد يفسر الوحي نفسه كتاباً وسنة.

فكما أن الحكيم الخبير يفصِّل محكم القرآن تدوينياً، وحياً وما أشبه، كذلك يفصله تكوينياً على مدار تقدم الكشوفات والاختراعات، وتقدم العقليات التي توضِّح ما أحكم من الذكر الحكيم.

فحركات الأرض ودورانها، وانعكاسات الأعمال بأصواتها وصورها، والجاذبية العامة بملابساتها، وتقدم هذه الكرة الأرضية على سائر الكرات بسماواتها، ووجود دواب في السماوات كما في الأرض وما أشبهها من عشرات ومئات، هي من التفصيلات التكوينية لما أُحكم في الذكر الحكيم.

ذلك، ومن أحكم الإحكام في القرآن الذي يليه التفصيل هو التوحيد الذي يحلق على كافة موضوعاته ومواضعه، فإنه الموضوع الوحيد الذي يحول حوله كل تفصيل، بارزاً في أصوله وفروعه، عقيدية وأحكامية وقصصية وسواها من تفاصيل الكتاب.

فقد ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في حكيم التوحيد الحق وحق التوحيد، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ في تفصيله مهما اختلفت المظاهر التوحيدية فيها، فكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ المحكمة الحكيمة هي مفصَّلة في كافة محتوياته دون إبقاء، مما يربط بينها برباط حكيم عميم، دون انفلات عنها وإن بآية من آية.

فـ ﴿ثُمَّ﴾ إذاً لا تعني التراخي في ذلك التفصيل، مهما عنته فيما سبق من تفصيل، فهي تعنيهما كما يعني الإحكام والتفصيل كل هذه الإحكامات والتفاصيل.

أجل، فلقد ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بكل معاني الإحكام الحكيمة المناسبة للتفصيل الفضيل، فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، ظاهرة المدلول، كل كلمة فيها، وكل إعرابة ونقطة، وكل ترتيبة وتركيبة، هي فيها مقصودة، وكل إيماءة وإشارة لمّاعة ذات هدف، متناسقة منسّقة بإحكام التوحيد الذي يربط بين تفاصيلها، والتفصيل الوحيد الذي لا يمكن إلّا ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وذلك الإحكام بذلك التفصيل يعنيان: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ...﴾.

ذلك، وإذا عني من ﴿كِتَٰبٌ﴾ هنا كتاب التوحيد - بوجهه الخاص أم والعام المحلّق على القرآن كله - فقد أحكمت آياته في أم الكتاب قبل كل كتاب، ثم في الفِطَر والعقول، ثم في كتابات الوحي وسائر الآيات الآفاقية، وكل مرحلة تالية تفصيلة لما قبلها، وكلٌّ هذه التفاصيل والإحكامات هي ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فبحكمته وخبرته كتب كتاب التوحيد بيده القدرة والرحمة الشاملة في الفِطَر وفي العقول، وفي سائر الآفاق سواء أكانت كتابات الوحي أم سواها، والأول والأخير كتابان معصومان، وعلى العقول التي هي وسيطة بين كتاب الفطرة والشرعة وسائر الكتب الآفاقية، أن تتدبر وتجيد النظر لتأخذه من الكتابين المعصومين خير أخذة.

هذا، وخالص التوحيد ينعكس على كافة العقائد والأعمال دون إبقاء، فإن صالح الإنسان في كل أقواله وأحواله وأعماله، يتوحد في التوحيد الحق المطلق، دون انزواء في زاوية العقيدة، ثم لا خبر عنه في سائر الحالات والمجالات والجلوات.

إذاً فكتابات الوحي، ولا سيما القرآن العظيم، هي بصورة محكمة حكيمة ليست إلّا كتابات التوحيد، المتجلي في كافة الخلوات والجلوات، بحيث تصنع من تاليها حقاً كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

ذلك، ومن حصائل التوحيد الحق حق العقيدة لليوم الآخر كما

تتكفلها: «إليه مرجعكم جميعاً وهو على كل شيءٍ قدير» وكذلك الأمر بين المبدإ والمعاد لقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بأصل الرسالة وهي ثالثة الأصول الدينية، وكذلك الفروع الدينية لمكان ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ حيث الاستغفار وهو طلب الغفر ينحو منحى معرفة شرعة الله وتطبيقها، فإنها غافرة ساترة للأخطار دفعاً ورفعاً، دفعاً لما تهجم من أخطار، ورفعاً لما حصلت من ذي قبل، فإن صالح العقيدة وصالح العمل هما مكفران لما يحصل من لمم وفوقه حسب الشروط المسرودة في القرآن.

فقد شمل «كتاب» هنا كلتي مرحلتي الإحكام والتفصيل لأصول الدين وفروعه، منذ ﴿أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] حتى التفصيل الأخير للكتاب وبهامشه السنة، سواء أكان كتاب التكوين الأم بالنسبة لما كتبه الله في الفطر، وكتاب التشريع الأم بالنسبة لما كتبه في ليلة القدر على قلب الرسول ﷺ.

ولأن القرآن مقصود في هيكل التفصيل التأليف، كما هو مقصود في التفصيل التنزيل، لذلك لا يصح غيار في تفصيله التأليفي، فإنه مقصود في هذه الدعوة الأخيرة العالمية.

إذاً فتأليفه حسب ترتيب التنزيل، أم موضوعياً، أما أشبه من غيار عن الهيكل الموجود، إنه معارضة لما أراده الله في كتابه من ترتيب رتيب.

وهكذا تفسيره خلاف التسلسل الموجود، اللّهم إلّا خاصة المواضيع المقصودة بخاصة الدعوة القرآنية لخاصة الظروف والمتطلّبات قضية مؤاتية البيئات.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)﴾:

فلقد توارد كلا الإحكام والتفصيل في ذلك الكتاب على توحيد العبودية

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.

الذي يتلو توحيد المعرفة، وبينهما كل توحيد يحق في ساحة الدعوة الرسالية القرآنية، ومنها:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾:

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ طلباً لغفره عما حصل رفعاً وعما يريد ليحصل دفعاً ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ توبة صالحة نصوحاً تؤهلكم للغفرين رفعاً ودفعاً ولكي ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محتوماً أو معلقاً، والمتاع الحسن ما يمتع الإنسان في الحياة الدنيا كما يناسب الحياة الأخرى وكما يطلبه أهل الله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1] ثم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ بمتاعه[2] الحسن، والرعاية الحسنة ﴿فَضْلَهُ﴾ حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة بفضل أعماله وفضل الله بأعماله ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن الاستغفار والتوبة ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو القيامة الكبرى، وقبلها البرزخ وعذاب يوم الدنيا.

وهنا التوبة بعد الاستغفار قد تعني أنها سبب لقبول الاستغفار، فمن يستغفر بلسانه أم وبجنانه ولكنه لا يرجع إلى ربه بما يزيل درن العصيان فلا يُقبل منه الاستغفار.

فالاستغفار حالة للتوبة كما التوبة هالة للاستغفار: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] فقد تعني الواو هنا الحال، يتوبون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٢) ملحقات إحقاق الحق ٣: ٣٧١ - ٣٧٢ عن ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة أن المراد من ﴿ذِي فَضْلٍ﴾ [هُود: ٣] علي عليه السلام.
وفيه ١٤ : ٣٢٥ ومنهم الأمر تسري في أرجح المطالب (٨٦) والحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٢٧١).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٤.

حال أنهم يستغفرونه، أم والعطف حيث تعني «ولا يستغفرونه» دون عناية للترتيب.

فلأن الاستغفار يتقدم على أن يتوب الله، وليست هي إلا بعد توبة العبد إلى الله، فهي إذاً متوسطة بين استغفارك وتوبة الله عليك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1].

ف ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[2] ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ﴾[3].

وقد يعني تأخر التوبة عن الاستغفار بما عنى، الاستغفارَ من سالف الذنوب، والتوبة نصوحاً عما يستقبل، والاستغفار من الشرك، والتوبة من سائر المعاصي، والاستغفار طلبٌ من الله لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة محاولة الإنسان نفسُه لإزالة ما لا ينبغي.

ولأن متاع الحياة الدنيا هو ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[4] بما يغركم به الغَرور، ف ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ هو البعيد عن غُرور الغَرور، فضلاً عن كل غُرور، فيكون متاعاً تشتري به الحياة الآخرة، فحين يشري بالحياة الآخرة يصبح متاع الغُرور، وإذا يشري به الحياة الآخرة فهو المتاع الحسن، وكما يصف الإمام علي عليه السلام الدنيا التي طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها بقوله: «من أبصر بها بصَّرته ومن أبصر إليها أعمته».

ثم ﴿فَضْلَهُۥ﴾ في ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ تعني فضل الله إلى فضل ذي الفضل، حيث يجازيهم فضلهم بزيادة من فضله، مهما كان كلٌّ من فضله ورحمته.

---

(١) سورة النصر، الآية: ٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

ذلك و﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ ليس يختص بالمتعة الفردية بل والجماعية التي تمتع المجموعة المستغفرة التائبة، فتصبح الحياة الدنيا نموذجة من الحياة العليا، وكما سوف نجدها زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فالمتمتع حسناً بمتاع الحياة الدنيا له الحسنى في الحياتين مهما أساء إليه الآخرون، إذ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ وبالنتيجة يؤت كل ذي رذل رذله، مهما كانت الآخرة هي المجالة الحقة الحقيقية لذلك الإيتاء الفاضل، ولكن للدنيا أيضاً نصيب كما يناسبها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

فالمتاع الحسن لا يعني - فقط - ما يحسن الحياة الأخرى، بل والأولى هي الركيزة الأولى لحسنه مهما قل وعلّ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

وأما أن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» و«خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» ثم ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ فهذه حقائق صادقة لا تنكر، ولا يعني ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ عدم البلية في هذه الدنيَّة، وإنما يعني ما يناسب الحياة الأخرى حيث يحقق مرضاة الله، ومعيشة المؤمن على أية حال هي الحسنة المريحة الفاسحة مهما مرض وظُلم وافتقر حيث يرتكن على الله بذكره وهداه ورضاه، وهي الحسنى في الحياة الإيمانية خلاف سائر الحياة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٤.

فالمشتغل بطاعة الله وعبادته منشغل عما سوى الله، مبتهج بالله، فالحياة الدنيا له جنة في باطنها حاضراً ومستقبلاً، مهما كانت له سجناً حيث يسجن فيها عن لقاء الله الحاصل له يوم الأخرى، وهي جنة للكافر على ضنكها إذ لا يحسب لنفسه حياة إلّا إياها، أترى المعيشة الضنك هي في الحق جنة، والمعيشة الواسعة برضوان من الله هي في الحق سجن؟.

فلننظر ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ بعمق البصيرة دون ظاهر البصر، فحين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[1] لا يعني إلّا نصرة في حمل الرسالة والإيمان وتطبيق الواجب فيهما، دون زهرة الحياة الدنيا مهما حصلت أحياناً مّا، كما و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[2] و«ألا إن حزب الله هم الغالبون» يعنيان تلك الغلبة الصالحة الفالحة بميزان الله لأهل الله.

فطمأنينة القلب إلى العاقبة الحسنى، والاتصال بالله والرجاء في نصره وإحسانه وفضله كما يشاء ويرضى، كلُّ ذلك عوض عن كل متعة في الحياة الدنيا، للإنسان المرتفع عن الحس المادي الغليظ الحضيض البغيض.

ومهما كان المؤمنون القلة مظلومين في مجتمع يسود فيه الظلم، فلا تخلو حياتهم عن متاع حسن إذ لا يبتلون هم أنفسهم بالظلم، ولا ينظلمون عيشة تحت نير الذل والظلم.

ثم المجتمع الذي يسود فيه الإيمان بالله، تطبيقاً لشرعة الله، نجده لا يقاس في متاعه الحسن بالمجتمعات الرذيلة البعيدة عن الفضيلة، حيث الضنك في العيشة تشملها كلها، ولكن المؤمنين فيها، المظلومين غير الظالمين، هم مطمئنو القلوب بذكر الله ورضاه.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

ومما يرتاح إليه المؤمنون المطمئنون بالله ووعوده، العائشون مرضاة الله، أنه:

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾:

﴿قَدِيرٌ﴾ على إرجاعكم كما هو قدير على خلقكم في الأولى، ﴿قَدِيرٌ﴾ على إيتاء كل ذي فضل فضله، وإيتاء كل ذي رذل رذله، قدير على كل ما وعده الصالحين والطالحين، وهذا من المتاع الحسن.

وترى ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ﴾ تعني - فقط - رجوعنا بالموت إلى عالم الجزاء؟ كما يختصه القشريون به! أم رجوعنا بكامل التكامل إلى عالم الربوبية، كأمواج البحر التي هي راجعة إلى البحر نفسه كما يتقوله القائلون بالفناء في الله؟ وهو رجوع فيه وهنا رجوع إليه!.

إنه رجوع دائب إلى الله معرفياً وعبودياً، كما ابتدأنا وأبدع فينا فطرة التوحيد والعبودية، وكما تعنيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[(١)].

والرجوع إلى الله اثنان ثانيهما رجوع إليه باختيار، محاولة بكافة المساعي الميسَّرة للوصول إلى جناب مرضاته، وليس إلى ذاته أو صفاته، وأولهما كوننا في قبضته رغم اختيارنا، ثم في قبضة الموت.

وهنا ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ﴾ تعني الرجوعين، إخباراً عما ليس فيه اختيار، وإنشاءً لما فيه اختيار، فليكن الإنسان دائب السلوك إلى ربه دونما غفوة ولا فترة، مهاجراً إلى الله على أية حال، في كل حِلّ وترحال.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾:

نص جليٌّ عليٌّ يستعرض صورة عن حالة واقعة من الكافرين بهذه

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

الرسالة السامية القرآنية، ورسول الله ﷺ يُسمعهم كلام الله، فيَثنون هم صدورهم، عطفاً لها وطيّاً وردّاً لبعضها على بعض، عناية لغلق أبواب النور إلى الصدور، التي هي بطبيعة الحال الفطرية منفتحة إلى النور، ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ طلباً لخفائهم عن جلية الآيات البينات، ولكي لا يسمعوها حتى لا يعوها ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ على رؤوسهم وآذانهم. ألا حين يستغشون ثيابهم ويثنون صدورهم، ليستخفوا منه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ بثني صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ باستغشاء ثيابهم و﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا تخفى عليه خافية ولا تعزب عنه عازبة.

ذلك، وقد يعني ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ استخفاء صدورهم من الله[١] الذي فطرهم على معرفته، فاستخفاءً عن نبي الله الذي دعاهم إلى طاعته[٢] وبالنتيجة استخفاءً عن كتاب الله[٣] فهم ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ هادفين ثالوث الاستخفاء، ولكنه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من ذلك الثالوث السالوس المنحوس ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهما له واحد في علمه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عليم أنه فطرها على معرفته بتوحيده، عليم بثْنيهم صدورهم استخفاءً عما فطرهم عليه، وعما دعاهم إليه من رسوله وكتابه، ويا لها من رهبة غامرة وروعة باهرة حين يتصور الإنسان حضور ربه بكل محاضره، وهم أولاء الأنكاد البعاد «يثنون صدورهم ويستغشون ثيابهم» استخفاءً من الله ومن رسول الله ومن كتاب الله كيلا تفجؤهم ذكراه.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٢٠ عن مجاهد في الآية قال: تضيق شكاً وافتراءً في الحق ليستخفوا منه قال: من الله إن استطاعوا.

(٢) المصدر عن عبدالله بن شداد بن الهاد في الآية قال: كان المنافقون إذ أمر أحدهم بالنبي ﷺ ثنى صدره وتغشى ثوبة لكيلا يراه فنزلت، وفي روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام أن المشركين كانوا إذا مروا برسول الله ﷺ حول البيت طأطأ أحدهم ظهره ورأسه هكذا وغطى بثوبه حتى لا يراه رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

(٣) المصدر عن قتادة في الآية: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله.

ذلك ومن ثني صدور المنافقين أنهم كانوا إذا اجتمعوا مع بعضهم البعض تخافتوا بينهم في الكلام، وحنوا ظهورهم تطامناً عند الحوار، خوفاً من رمق العيون ومراجم الظنون، لوقوع ما يتفاوضونه في أسماع المسلمين، فإذا انحنت ظهورهم انثنت صدورهم، فأعلمنا الله أنهم وإن أغلقوا أبوابهم وأسدلوا أستارهم واستغشوا ثيابهم مشتملين عليها، مدخلين رؤوسهم فيها، فإنه تعالى يعلم غيب صدورهم ودخائل قلوبهم ومرامز أعينهم ومحاذق ألسنتهم.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تحمل رزقها أو لا تحملها ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وسواها ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

إذاً فـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قد تعني الحاضر في المسرح حيث المخاطبون هم في الأصل أهل هذه الأرض، أم تعني كل أرض فيها دابة فتشمل - إذاً - كل دابة في كلِّ أرض، كما وآية العنكبوت أطلقت الدابة، ثم آية أخرى من هود تعممها إلى كل دابة: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فتشمل إلى دواب الأرض دواب السماء: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[3].

وهنا ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تعني أنه هو الذي يرزقها بأمره دون وسيط أم بوسيط ملائكي أم بشري أم عملي، من محاولات الدواب التي تحمل رزقها أم لا تحملها.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦
(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

فعلينا أن نسعى لأرزاقنا متوكلين على الله لا سواه، وكما أمرنا الله في شرعته، دون تذلل أمام فلان وفلان، فإن الله تكفَّل أرزاقنا من الإنس والجان ومن أشبهنا بما نسعى حسب المستطاع والإمكان، أم دون سعي لمن لا يحمل رزقه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[١].

أجل فقد «قسم أرزاقهم وأحصى آثارهم وأعمالهم وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير ومستقرهم ومستودعهم من الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات»[٢].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣٣٥ في تفسير العياشي عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل من أهل البادية فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لي بنين وبنات وإخوة وأخوات وبني بنين وبني بنات وبني إخوة وبني أخوات والمعيشة علينا ضيقة (خفيفة) فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا؟ قال: وبكى فرقَّ له المسلمون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «من كفل بهذه الأفواه المضمونة على الله رزقها صب الله عليه الرزق صباً كالماء المنهمر إن قليل فقليلاً وإن كثير فكثيراً، قال: ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمَّن له المسلمون، قال قال أبو جعفر عليه السلام: فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر فسأله عن حاله فقال: من أحسن من حوله حالاً وأكثرهم مالاً.

وفي الدر المنثور ٣: ٣٢١ - أخرج الحكيم الترمذي عن زيد بن أسلم أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم لما هاجروا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أرسلوا من الزاد فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأله فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمعه يقرأ هذه الآية ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ [هُود: ٦] فقال الرجل: ما الأشعريون بأهون الدواب على الله، فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغوث، ولا يظنون إلا أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوعده فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزاً ولحماً فأكلوا منها ما شاؤوا ثم قال بعضهم لبعض: لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقضي به حاجته، فقالا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنا قد قضينا حاجتنا، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به، قال: ما أرسلت إليكم طعاماً، فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ما صنع وما قال لهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: شيء رزقكموه الله تعالى.

(٢) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

فبين مستقرات الأرحام والظهور ومستودعاتها إلى أن تتناهى بهم الغايات، كلها معلومة لربنا سبحانه وتعالى، حيث ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ من علمه المكنون دون أن يعزب عنه شيءٌ.

فـ ﴿مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ تعم كافة حالات الدواب طول حياتها، حيث يعنيان جنسهما دون شخص خاص أم لأشخاص خصوص: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾[(١)] وقد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[(٢)] مما يؤكد أن رزق كل دابة على أية حال، وفي كل حلّ وترحال، مضمون عند الله لا يتخطاه.

فقد تقول دودة في قلب الصخرات: «سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ولا ينساني»[(٣)] وترى ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تعطيل لأسباب الرزق المقررة المدبرة لمن يحمل رزقه بسعيه؟ ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[(٤)] قد تُخصص «على» في فرضها بمن لا تحمل رزقها، ثم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ تحمل فيمن تحمل رزقها على ما قرره الله لها من سعي ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(٥)]!.

فليس المقصود أن هناك رزقاً مقدراً يأتي دون سعي لمن بإمكانه السعي

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٣) وفي تفسير الفخر الرازي ١٧ : ١٨٦ روي أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت فخرجت وخرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ثم ضربها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فمها شيءٌ يجري مجرى الغذاء لها ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول: . . .

وفي الدر المنثور ٣: ٣٢١ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض فتقول الأرض يوم القيامة هذا ما استودعتني.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٠.

(٥) سورة النجم، الآية: ٣٩.

كما يعتقده بعض المجاهيل البطالين من الناس، وإلا فأين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها وجعلها من نواميسه في رزقه؟ وأين حكمة الله في إعطاء مخلوقات قُدُرات وطاقات وقد خلقنا واستعمرنا في الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[١] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٢].

ذلك، ومن ذا الذي يرزقنا بما نسعى قدر ما تقتضيه حكمته العليا: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٣] لكلٍّ من مريد العاجلة والآجلة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[٤].

وترى ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تعم الرزق الحرام إلى الرزق الحلال؟ طبعاً لا! إلّا أن الله يحرم طالب الحرام عما قدر له بسعيه من الحلال، والمتخلفون عن شرعة الله في طلب رزق الله، هم منهيون منثيون عن حرامه شرعياً وإن كانوا يُرزقونه تكوينياً قضية الحكمة في دار الاختيار الاختبار.

«ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوا بشيء من معصية الله فإن الله قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حله ومن هتك حجاب ستر الله عزوجل وأخذه من غير حله قص به من رزقه الحلال وحوسب عليه» رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) سورة هود، الآية: ٦١.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٤) سورة الإسراء، الآيات: ١٨-٢٠.

و«اعلموا علماً يقيناً أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يجعل للعبد وإن اشتد جهده وعظمت حيلته وكثرت مكائده أن يسبق ما سمي له في الذكر الحكيم، أيها الناس إنه لن يزداد امرؤٌ نقيراً بحذقه، ولن ينقص امرؤٌ نقيراً لحمقه، فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعته، والعالم بهذا التارك له أعظم الناس شغلاً في مضرته، ورب منعم عليه مستدرَج بالإحسان إليه، ورب مغرور في الناس مصنوع له، فاتق الله أيها الساعي عن سعيك، وقصر من عجلتك، وانتبه من سِنَة غفلتك، وتفكر فيما جاء عن الله عَزَّوَجَلَّ على لسان نبيه»(١).

إذاً فـ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ كما تعم الرزق بسعي لأهله، إلى الرزق بغير سعي لمن لا يحمل رزقه، كذلك تعم تكوينه المخالف لتشريعه، إلى الموافق لتشريعه، وهذه هي من قضايا توحيد الربوبية(٢).

ذلك، و«أما بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر

---

(١) في الكافي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيراً ما يقول: . .

(٢) في الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبد الله بن الحجاج عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: إن محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أظن أن علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يدع خلفاً أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ فقال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني أبو جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة في طلب الدنيا أما أني لأعظنَّه، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي بنهر وهو ينصاب عرقاً فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا؟ أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال؟! فقال: لو جاء في الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس وإنما كنت أخاف إن جاءني وأنا على معصية من معاصي الله، فقلت: صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني.

وفيه بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر فقلت: جعلت فداك حالك عند الله عَزَّوَجَلَّ وقرابتك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأنت تجهد في مثل هذا اليوم؟
فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني به عن مثلك.

إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان، فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة»[١] فإن «عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم وقدر أقواتهم» (٨٩) فقد «قدر الأرزاق فكثرها وقللها وقسمها على الضيق والسعة. . .»(٨٩).

وترى الأرزاق مضمونة بلا عمل؟ كلّا ف «قد تكفل لكم بالرزق وأمرتم بالعمل، فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله. . حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم وكأن الذي قد فرض عليكم قد وضع عنكم» (١١٢).

هذا، وليس معنى ازدواجية الطلب والتقدير أن القدر هو بمقدار الطلب، إذاً «فخفِّض في الطلب وأجمل في المكتسب، فإنه رب طلب قد جرّ إلى حَرَب: - سلب - فليس كل طالب بمرزوق ولا كل مجمل بمحروم، وإن استطعت ألَّا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، فإنك مدركٌ قَسمك وآخذ سهمك، وإن اليسير من الله سبحانه أكرم وأعظم من الكثير من خلقه وإن كان كلٌّ منه» (٢٧٠).

و«اعلموا علماً يقيناً أن الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سمي له في الذكر الحكيم، ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سمي له في الذكر الحكيم، والعارف بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعة، والتارك له الشاك فيه أعظم الناس شغلاً في مضرة، ورب منعَم عليه مستدرج بالنُّعمى، ورب مبتلى مصنوع له بالبلوى، فزد أيها المستمع في شكرك، وقصر من عجلتك وقف عند منتهى رزقك»[٢].

(١) (الخطبة ٢٣).
(٢) (الحكمة ٢٧٣).

ذلك، والضابطة العامة ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١] ولكنه في رزقه قدر ما قُدِّر بما سعى دون قَدرِ ما سعى، ثم «لو سُدَّ على رجل باب بيته وترك فيه من أين كان يأتيه رزقه»؟ إنه يأتيه رزقه «من حيث يأتيه أجله» (٣٥٦ ح)

«. . . ولن يسبقك إلى رزقك طالب ولن يغلبك عليه غالب ولن يبطئ عنك ما قدر لك» (٣٧٩ ح).

ولأن المعيشة تختلف حسب اختلاف الطلب حلاً وحرمة وراحة وتعباً فعلينا أن ندعو ربنا في طلبها وكما يروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللَّهم إني أسألك خير معيشة أتقوى بها على جميع حوائجي، وأتوصل بها في الحياة إلى آخرتي من غير أن تُترفني فيها فأطغى، أو تقصِّر بها علي فأشقى، وأوسع عليَّ من حلال رزقك، وأفِض عليَّ من سَيب فضلك، نِعمةً منك سابغة، وعطاءً غير ممنون، ثم لا تُشغلني عن شكر نعمتك بالإكثار مما تلهيني بهجتُه، وتفتنني زَهَرات زَهوية، ولا بإقلال منها يقصُرُ بعملي كدُّه، ويملأ صدري همه، أعطني من ذلك يا إلهي غنًى عن شرار خلقك، وبلاغاً أرجو به رضوانك»[٢].

ذلك وإجابة عن سؤال: إذا كان ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تحلّق على كل دابة، فما بال بعض الناس يموتون جوعاً، أو من تضيُّق الرزق أكلاً أو صحياً؟ نقول: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تعني كلا التكوين والتشريع شرطَ المساعي المقررة في شرعة الله، فلكلٍّ حسب سعيه وقدر ما قدره الله، ولا تعني ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ إلّا واقع التقدير لولا الموانع من قبل المقدَّر لهم تبطُّلاً، أو من قبل الظالمين حقوقهم، دون إيصال المقدر لهم دون سعي، أم إزالة للموانع فإنها تنافي دار التكليف ودور الامتحان.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) الصحيفة الثانية السجادية.

فحين قدِّر لك قَدَر بما تسعى وبما لا يمنع ظالم أو يدفع مَن عليه حقُّك حقَّك، فلا ضمان لوصول المقدر إليك حين تترك السعي اللّائق، أو لا تأخذ حقك من الظالم، أو لا تقدر على استجلاب حقك قضيةَ قوة الظالم وضعفك.

فقد قدر الله لكل دابة رزقها حسب الحكمة العالية والمساعي الصالحة، لولا الموانع لوصوله إليك، وإن كان الله قد يزيل الموانع، ولكنها ليست ضابطة في دار الاختيار الاختبار.

ثم ولا تعني ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ واسعة، وإنما هو القوت بُقية على حياتها، وذلك موسع على كافة الفقراء، ولا أقل من حشاش الأرض التي فيها بُقية الحياة مهما كانت صعبة ملتوية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

آية وحيدة منقطعة النظير في صيغة التعبير عن مرحلتي الخلق الأوليين، حيث الثانية تتبنى الأولى كما تتبناها الثالثة وعلى طول الخط.

هذه الآية قد تتحدث عن المادة الفردة الأولى، أو الخلق الأول: ﴿ٱلْمَآءِ﴾ حيث ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ في ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، حين تعني ﴿عَرْشُهُۥ﴾ بناءَه تعالى في خلقهما، وقد يعني معه كانت سلطته التدبيرية ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

لقد تحدثنا في قول فصل عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام على ضوء آياتها، ففصلناه في «فصلت» والبقرة والنازعات وما أشبه، وما فصلت في «فصلت» هي أفصل وأحصل رغم أنها أعضل مما سواها ولكنها أفضل تبياناً.

وهنا نتحدث عن ذلك ﴿ٱلْمَآءِ﴾ الذي هو مادة خلق الأرض والسماء، بكل إمعان وإتقان وعن ﴿عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ والله هو المستعان فعليه التكلان.

العرش هو كسائر اللغات المشتركة الاستعمال بين الخلق والخالق، هنا تجرَّد عن المعاني الخَلقية، وتختص بما يناسب ساحة الربوبية، فقد تعني هنا مستقر سلطته تعالى، وقد جاءت العرش - أيضاً - بمعنى البناء العال كـ ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1] و﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[2] فقد كان بناءه تعالى حين خلق السماوات والأرض على الماء، أم وسلطته، وهما هنا بمعنى واحد هو أن مادة خلقهما كانت هي الماء.

ومن ثَمَّ عرش ثان هو لإدارة شؤون السماوات والأرض كما ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾[3].

وعرش ثالث يوم القيامة الكبرى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ...﴾[4] ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[5].

فالعرش وهو السلطة الربانية بملابساتها الخَلقية، هو واقعياً وفعلياً ليس إلّا في مثلث الزمان، على المادة الأولية: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وعلى السماوات والأرض: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾[6] وعلى القيامة الكبرى، تقديراً وتدبيراً، وأما قبل الخلق حيث كان الله ولم يكن معه شيء فلا عرش إذ لا معروش، مهما كان له العرش ذاتياً لمكان الحياة والعلم والقدرة الطليقة، فهو «خالق إذ لا مخلوق» بمعنى قدرته على الخلق قبل مشيئته، كذلك هو «ذو العرش» إذ لا معروش، بمعنى سلطته على ما يخلق من معروش فعرش.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٧.
(٦) سورة يونس، الآية: ٣.

فهو ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾[١] فعاليته الفعلية الواقعية هي عرشه الفعلي في مثلث الزمان، وفاعليته الشأنية بكمال القدرة الفعلية هي عرشه الشأني[٢]، والقرآن إنما يتحدث عن الأول دون الثاني، اللّهم إلّا ما قد يدل على الخلق الأوّل كهذه الآية، فقد كان عرشه وسلطته على الماء قبل خلقه سلطة على إنشائه، وبعده سلطة على تقديره وتدبيره، ثم قبل خلق السماوات والأرض سلطة على خلقهما، وبعد خلقهما سلطة على تقديرهما وتدبيرهما، ثم قبل إقامة القيامة سلطة عليها كأصل، وبعدها سلطة على تقديرها وتدبيرها.

فلئن توسعنا في صيغة العرش لكان له مراحل ست، إلّا أن القرآن يذكر تلك الثلاثة من السلطة الفعلية بعد كل مرحلة من الخلق تقديراً له وتدبيراً.

وأما ﴿ٱلۡمَآءِ﴾ هنا، فهل هو المعروف لدينا حيث نَشربه ونُشرب به زروعنا ودوابنا؟ وهو مما خلق مع السماوات والأرض أم بعدهما، فهو وليد ﴿ٱلۡمَآءِ﴾ الذي خُلق منه الأرض والسماء، فأين والد وما ولد؟.

ذلك، و«كان» هنا تضرب إلى أبعد أغوار الماضي البعيد لكينونة «الماء» قبل خلق الأرض والسماء، فليس هو الماء المتولد فيهما وعنهما حيث خلقهما «و» الحال أنه ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾.

وقد يروى في بُعد هذا الماضي البعيد عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ما العقل منه يحيد لروعته وبداعته حيث يضرب إلى مليارات من سنّينا والله أعلم[٣] ولا سيما بما نعلمه حتى الآن من آلاف السنين الضوئية الفاصلة بيننا وبين جُزُر من النجوم للسماء الأولى.

---

(١) سورة البروج، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٢٢ أخرج مسلم والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء.

(٣) في تفسير البرهان ٢: ٢٠٨ عن تفسير العياشي سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن مدة ما كان =

هنا يعرَّف «الماء» أنه أم الكائنات بأسرها المعبر عنها دوماً بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أم ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أم «وما فيهما» فهو الخلق الأول على الإطلاق حيث خلق منه كل خلق من الأرواح والأجساد الكامنة فيه، كيف لا وقد «حمل دينه وعلمه الماء قبل أن يكون سماء أو أرض أو إنس أو جن أو شمس أو قمر»[1]، وكما في الآثار: «أول ما خلق الله الماء» «ولو كان أوّل

= عرشُه على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء؟ فقال: تحسن أن تحسب؟
فقال السائل: نعم، فقال: لو أن الأرض من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى السماء حب خردل ثم كلفت على ضعفك أن تحمله حبة حبة من المشرق إلى المغرب حتى أفنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزءاً من بقاء عرش ربنا على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء، ثم قال: إنما مثلث لك مثالاً.
أقول: نظراً إلى «على ضعفك» بطأً في الحركة، والسعة الهائلة بين المشرق والمغرب، وأهم منها عدد حبات الخردل ملأ الأرض والسماء على سعتها الهائلة، نظراً إلى هذا المثلث، وأن الزمن الذي يتطلب ذلك النقل هو «ربع جزء من سبعين جزءاً» أي ١/ ٢٨٠٠ من بقاء عرش ربنا، وأنه «إنما مثلت لك مثالاً» يعرف مدى طائل الزمن الذي كان عرشه على الماء وهو بليارات من السنين في حسابنا والله أعلم.
وفي بحار الأنوار ٥٤: ٢٣١ عن كتاب المختصر للحسن بن سليمان مما رواه من كتاب الخطب لعبد العزيز بن يحيى الجلودي قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: سلوني فإني لا أسأل عن شيء دون العرش إلا أجبت فيه فقام رجل - وفيه أنه سأله تعنتاً عن مسائل منها - فكم مقدار ما لبث الله عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء، قال: تحسن أن تحسب؟ قال: نعم، قال: لعلك لا تحسن! قال: بلى إني لأحسن أن أحسب، قال علي عليه السلام: أفرأيت لو كان حب خردل في الأرض حتى سد الهواء وما بين الأرض والسماء، ثم أذن لمثلك على ضعفك أن تنقله حبة حبة من مقدار المشرق إلى المغرب ثم مدّ في عمرك وأعطيت القوة على ذلك حتى تنقله وأحصيته لكان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء وإنما وصفت لك ببعض عشر عشير العشير من جزء مائة ألف جزء واستغفر الله من القليل في التحديد».
أقول إنه لا يستطيع أي محاسب دقيق أن يحاسب ذلك المقدار وإن في مليار من السنين، كيف وأقرب الجزر السماوية إلينا تبعد عنا ٠٠٠ / ١٠٠ من السنين الضوئية هي جزيرة «ماجلان» تبعد ٠٠٠ / ٢٥٠ و«اندروما».

(١) نور الثقلين ٢: ٣٣٧ في كتاب التوحيد عن داود الرقي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن =

ما خلق من خلقه، الشيءَ من الشيءِ، إذاً لم يكن له انقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعه شيءٌ ليس هو يتقدمه، ولكنه كان إذ لا شيءَ وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه»[١].

إذاً فليس هو ماءَنا (H_2O) منسوباً إلى هذين الوالدين، ولا أي عنصر أو جزيءٍ حتى الئيدروجين حيث النسب يشملها كلها، فإنه على كونه أبسط الذرات - فيما يعرفه العلم حتى الآن - منسوب إلى والدين هما «الكترون وبروتون» أم وفيه مزيد من نيوترون وبوزيترون.

إنما المادة الأم الفردة الأولى هي المشار إليها في آية الذاريات ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢] فـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعم الشيء الأوّل المخلوق منه سائر الأشياء، وأقل تركيب له يشكل كيانه المادي كأبسطه، هو الجزآن الهندسيان أو الفيزيائيان، أم - لأكثر تقدير - أبعاد ثلاثة هي أم هما تشكل كيان المادة كأصل لها أصيل، وقد فصلنا البحث حول كيان المادة الفردة غير القابلة للانقسام ببقاء زوجها على ضوء آية الذاريات فلا نعيد.

وترى ولماذا سميت المادة الأولية هنا بـ «الماء» ولها اسمها؟ ذلك لأنها غير معروفة لدينا حتى نعرف لها اسماً، وأفضل تعريف بها اسمياً هو «الماء»

= قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، فقال لي: ما يقولون؟ قلت: يقولون إن العرش كان على الماء والرب فوقه، فقال: كذبوا، من زعم هذا فقد صير الله محمولاً ووصفه بصفة المخلوقين ولزمه أن الشيء الذي يحمله أقوى منه، قلت: بين لي جعلت فداك، فقال: إن الله عَزَّوَجَلَّ حمل دينه وعلمه. . .

أقول: وهذه عناية لطيفة أن علمه ودينه بحملتهما كانا محمولين في «الماء»!.

(١) الكليني في روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية قال: جاء رجل إلى أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهل الشام من علمائهم - إلى أن قال -: وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان. . .

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

اعتباراً بمشابهة أجزائه حسب المعرفة البسيطة، وبساطتها حيث يركب من ذرتي الأوكسيجين والئيدروجين، فلتسمَّ المادة الأولية باسم أبسط المواد المعروفة لدينا عرفياً وعلمياً، وكما استعمل «الماء» في مني الإنسان وسائر الحيوان، وما أشبه في سائر القرآن.

ذلك، وكما يعرف «الماء» من وراءِ ذلك الاسم بسماته، فمنها هنا أنها مادة السماوات والأرض لخلقهما، وفي الذاريات نعرف أبسط تركيب له أنه ذو بعدين اثنين، أم وأبعاد ثلاثة.

ثم وهنا آثار مستفيضة عن الرسول ﷺ وعترته المعصومين عليهم السلام تتوارد لتأييد أن هذا «الماء» هو المادة الأولية المخلوقة قبل كلِّ شيءٍ، مهما اختلفت أحياناً في كيفية التفجُّرة الأولى لخلق السماوات والأرض منها.

فالمروي عن النبي ﷺ: «أول ما خلق الله الماء» مهما روي عنه أيضاً «أوّل ما خلق الله نوري» حيث الأولية الأولى تعني الزمنية، والثانية قد تعني الرتبية بين خلق الأرواح القدسية، وقد خلقت بأجسادها من «الماء» كما خلقت الأرواح من الأجساد، كما تعنيه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] على تفصيل مذكور عند تفسيرها وتفسير آية الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[2] فراجع.

فقد يروى عنه ﷺ «وخلق عرشه على الماء»[3] و«إن الله قدر مقادير

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) الدر المنثور ٣: ٣٢٢ عن أبي رزين قال قلت: يا رسول الله ﷺ أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء» أقول «في عماء» قد يعني عماء التفصيل لخلقه إذ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧] وعل «أين كان» سؤال عن «أين» المكانة في خلقه الخلق دون المكان، وإذا كان عن المكان فالجواب ينفيه بما فيه «ما تحته وما فوقه..» حيث هما نافيتان فتسلبان عنه كلا الفوق والتحت.

الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»[1] و«كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر الحكيم كل شيء ثم خلق سبع سماوات...»[2] وهنا «لا شيء غيره» قد يعني تفصيل الخلق دون إجماله، حيث ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بيان لإجماله.

ويروى عن خليفته الإمام علي عليه السلام قوله: «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا رويَّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولام بين مختلفاتها، وغرَّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها - ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره - فهذا الماء المُجرى كان قبل إجرائه كائناً كأول ما خلق! - متراكماً زخَّاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلَّطها على شدِّه، وقرنها إلى حده، الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق، ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبَّها، وأدام مربَّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخضَ السِّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عبَّ عُبابُهُ، ورمى بالزبد رُكامُه، فرفعه في هواء منفتق، وجوٍّ منفهق، فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً، وسَمْكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها، ثم زينها بزينة

---

(١) المصدر عن ابن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...

(٢) المصدر عن بريدة قال: دخل قوم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: جئنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونتفقه في الدين ونسأله عن بدء هذا الأمر فقال: كان الله.. أقول: قد يعني «ولا شيء غيره» ما عناه نفس التعبير من ذي قبل.

الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر...[(١)].

«وكان من اقتدار جبروته، وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماءِ البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يَبَساً جامداً، ثم فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت على حده»[(٢)].

فقد «كان كل شيءٍ ماءً وكان عرشه على الماء فأمر الله عز ذكره الماء فاضطرم ناراً فأمر الله النار فجمدت فارتفع من جمودها دخان فخلق الله عزّ وجلّ السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الماء...»[(٣)].

ذلك، وكما بدأ خلقه من الماء حيث ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فقد يعيد عرشه على الماء كما كان أوّل مرة مستقلاً بعظمته وقدرته[(٤)] إذ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[(٥)] إعادة إلى ما كان «ماءً» ثم خلقاً آخر من نفس المادة، مهما اختلف خلق عن خلق، حيث الأرواح لا تبيد، اللّٰهم إلّا صعقة، فالماء المُعاد قد يختلف اختلافاً عن الماء الأول المُبدَإِ المُبدَع.

ذلك، فلا دور للهرطقة الحمقاء أن الكائنات هي قديمة زمنية قضيةَ دوام فضله وفيضه تعالى، وأن المعلول ليس لينفك عن العلة أبداً؟.

---

(١) من الخطبة الأولى في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) (الخطبة ٢٠٩).

(٣) البرهان ٢: ٢٠٧ عن الكافي بسند متصل عن محمد بن مسلم قال قال لي أبو جعفر عليه السلام: ... وفي نور الثقلين ٢: ٣٣٨ عن الكافي عن سدير الصيرفي سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: ١١٧] فقال عليه السلام: إن الله عزّ وجلّ ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...﴾ [هُود: ٧].

(٤) المصدر عن تفسير القمي يقول عليه السلام: و﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب، بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أوّل مرة ويعيد عرشه..

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

حيث القدم الأزلي يناقض الزمان، وليس الله علة والدة دون إرادة لخلقه حتى لا ينفكَّا عن بعضهما البعض، وليس دوام فضله وفيضه مما يقتضي أن يلازمه أزلي سواه[1] إضافة إلى أن الأزلية هي أصل للغنى الذاتية، فكيف يكون الخلق أزلياً زمانياً، وأزليته تغنيه عن الخالق، وزمنيته تحوجه إليه وتخرجه عن الأزلية؟.

هذا، وكافة الأدلة الموحدة لله، المحوجة لخلق الله إلى الله، هي معسكرة مبرهنة لأن الكائنات المخلوقة لها بداية، ولا أزلي إلا الله، ويكأن هؤلاء العقلاء الذين يرون أنفسهم عللاً لأفعالهم بالإرادة، فلا تلازمهم أفعالهم، هؤلاء هم لا يرون لله تعالى إرادة حتى يسمحوا له وحده دون خلقه، فيختلقون له وهدة أنه علة والدة أوتوماتيكية خلقت من نفس ذاتها معاليلها، قائلين غائلين بوحدة حقيقة الوجود ومسانخته بين الخالق والمخلوق، حال أن العلة غير المريدة، الأتوماتيكية، أيضاً قد تنفصل عن معلولها كالنار لمكان ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾[2]! فهم - إذاً - ينزلون العلة الخالقة! عن العلل المخلوقة غير المريدة فضلاً عن العلل المريدة كأنفسهم أولآء!.

ذلك، فكل البراهين العقلية والكونية، إضافة إلى البراهين النقلية عن نقلة الوحي، التالية، معسكرة لإثبات: أن للخلق بداية:

كان الله إذ لا كان: إنه لا بد لهذا الخلق من أوّل حدث فيه، وإلَّا لم يكن هناك خلق، أم كان من مادة أزلية وهو يطارد توحيده تعالى في الأزلية، والقدم الزمني لأوَّل ما خلق الله هو هرطقة متناقضة هُراءٌ، حيث الزمان بذاته

---

(١) وكونه دائم الفضل على البرية ليس إلا بعد خلق البرية، ومهما كانت البرية أيضاً من فضله ولكن أصل فضله هو من فعله فليس أزلياً بل هو حادث كسائر الحادثات!.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

حادث لتصرُّمه، فكيف يجتمع مع القدم، إلّا أن يراد بالقدم الماضي البعيد البعيد.

فـ «هو الأول قبل كل أوّل والآخر بعد كل آخر»: «الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليته» فـ «لم يخلق الأشياء من أصول أزلية، ولا من أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حده وصور ما صور فأحسن صورته» «سبق الأوقات كونُه، والعدمَ وجودُه، والابتداءَ أزلُه»[١]. - «هو أيّن الأين، كان ولا أين، وهو كيَّف الكيف، كان ولا كيف»[٢] «وأنت الجبار القدوس الذي لم تزل أزلياً دائماً في الغيوب وحدك، ليس فيها غيرك، ولم يكن لها سواك»[٣] «كنت قبل كل شيء وكوّنَت كل شيءٍ وابتدعت كل شيءٍ»[٤] فـ «المشية من صفات الأفعال فمن زعم أن الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحد»[٥] و«الحمد لله الذي كان قبل أن يكون كان، لم يوجد لوصفه كان، كان إذ لم يكن شيءٌ ولم ينطق فيه ناطق فكان إذ لا كان»[٦] «الحمد لله الذي كان في أزليته وحدانياً»[٧].

و«اعلم علمك الله الخير أن الله تبارك وتعالى قديم والقدم صفة دلت العاقل على أنه لا شيءَ قبله، ولا شيءَ معه في ديمومته، فقد بان لنا بإقرار

---

(١) ملتقطات من نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) التوحيد والعيون عن محمد بن عبد الله الخراساني عن الرضا عليه السلام.
(٣) بحار الأنوار ٥٤ : ٣٧ عن نهج الدعوات بأسانيد ذكرها إلى ابن عباس وعبد الله بن جعفر عن أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء اليماني المعروف.
(٤) المصدر عن الحارث بن عمير عن جعفر بن محمد عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الدعاء: الحمد لله الذي لا إله إلّا هو الملك الحق المبين... كنت.
(٥) المصدر عن التوحيد عن سليمان الجعفري قال قال الرضا عليه السلام: ..
(٦) المصدر بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ..
(٧) المصدر عن التوحيد عن إسحاق بن غالب عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ..

العامة معجزة الصفة أنه لا شيءَ قبل الله ولا شيء مع الله في بقائه، وبطل قول من زعم أنه كان قبله أو كان معه شيءٌ، وذلك أنه لو كان معه شيءٌ في بقائه لم يجز أن يكون خالقاً له، لأنه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه، ولو كان قبله شيءٌ كان الأول ذلك الشيء لا هذا، وكان الأول أولى بأن يكون خالقاً للثاني»[١].

أوّل ما خلق الله الماء:

هذا ما تدل عليه آيتنا هذه: «وكان عرشه على الماء» ومستفيض أحاديثنا، ونموذجاً بارعاً منها حوار بين أبي جعفر الباقر عليه السلام ورجل من علماء الشام حيث قال له عليه السلام: «جئت أسألك عن مسألة لم أجد أحداً يفسرها لي، وقد سألت ثلاثة أصناف من الناس فقال كل صنف غير ما قاله الآخر - قال عليه السلام: وما ذلك؟ فقال: أسألك ما أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ من خلقه؟ فإن بعض من سألته قال: القدرة، وقال بعضهم: العلم، وقال بعضهم: الروح - فقال أبو جعفر عليه السلام: ما قالوا شيئاً، أخبرك أن الله علا ذكره كان ولا شيء غيره، عزيزاً ولا عز كان قبل عزه، وذلك قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢] وكان خالقاً ولا مخلوق، فأوّل شيءٍ خلقه من خلْقه الشيءُ الذي جميع الأشياء منه، قال السائل: فالشيء خلقه من شيء أو لا من شيءٍ؟ فقال عليه السلام: «خلق الشيء لا من شيءٍ كان قبله ولو خلق الشيء من شيءٍ إذاً لم يكن له انقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعه شيءٌ ولكن كان الله ولا شيء معه فخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء»[٣].

---

(١) التوحيد ١٢٥ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٨٠.
(٣) التوحيد ٣٢ بسند متصل عن جابر الجعفي قال: جاء رجل من علماء الشام إلى أبي جعفر عليه السلام فقال: . .

ذلك، فقد يعني الخبر أن أوّل ما خلق الله النور[(١)] نور الإرادة الخالقة التي خلق بها الماء، وكما يروى عن موسى بن جعفر عليه السلام قوله في جواب: أين كان ربك حيث لا سماءَ مبنيّةَ ولا أرض مدحية؟ قال: «كان نوراً في نور ونوراً على نور، خلق من ذلك النور ماءً منكدراً. . .»[(٢)]، فالنور الأول ذاته فقد كان في ذاته، والنور الثاني في مشيئته التي خلق بها الخلق الأول.

وما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: «أوّل ما خلق الله نور نبيك»[(٣)] قد تعني الأولية في كيانه لا في كونه، أم إن الأول في المادة الأولية في الزلفى إلى الله هو هو صلى الله عليه وآله وسلم[(٤)].

وكما ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ «وأمرت أن أكون أوّل المسلمين» ثم وليست للأولية الزمنية مكانة أمام الأولية في المكانة.

---

(١) العيون ١: ٢٤٠ عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال علي عليه السلام في جامع الكوفة إذ قام إليه رجل من أهل الشام فقال أخبرني عن أوّل ما خلق الله، قال: خلق النور، قال فمم خلقت السماوات؟ قال: من بخار الماء، قال: فمم خلقت الأرض؟ قال: من زبد الماء، قال: فمم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج.

(٢) البحار ٥٤: ١٠١ عن الاختصاص قال يونس بن عبد الرحمن يوماً لموسى بن جعفر عليه السلام: أين كان ربك. .؟

(٣) البحار ٥٤: ١٧٠ عن رياض الجنان بإسناده إلى الصدوق بإسناده عن جابر بن عبد الله قال قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أوّل شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كلّ شيء. .

(٤) وفيه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أوّل ما خلق الله نوري ففتق منه نور علي عليه السلام ثم خلق العرش واللوح والشمس والقمر وضوء النهار ونور الأبصار والعقل والمعرفة، وفي الخصال ومعاني الأخبار بإسناده المتصل إلى سفيان الثوري عن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يخلق السماوات والأرض والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار وقبل أن يخلق آدم ونوحا وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان وقبل أن يخلق الأنبياء كلهم بأربعمائة ألف سنة وأربع وعشرين ألف سنة» أقول: هذا العدد هو من عديد الأدلة على أن المعنى بهذه الأولية هو الأولوية، فهو أولى من عديد الرسل كلهم، وهو يجمعهم في نفسه المقدسة وزيادة!

ذلك، وهكذا المروي عنه ﷺ «أول ما خلق الله نوري» «أوّل ما خلق الله العقل»(١) فنور النبي ﷺ وعقله المعني من العقل - «هو أول خلق خلقه من الروحانيين»(٢) أولية في الدرجة، وهكذا أولية في كيفية المادة التي خلق منه نوره ﷺ وعقله، حيث كان في «الماء».

وقد يُعنى من «أوّل» هنا الأول بعد «الماء» حين خلق السماوات والأرض، فالعقل - الذي جوهره الأعلى عقل محمد ﷺ - خلق من الماء أول ما خُلق من الروحانيين، فالأولية في الدرجة بين كل الروحانيين هي لعقل محمد ﷺ ثم هي لكل العقول على درجاتها(٣).

فـ «الحمد لله الذي كان عرشه على الماء حين لا شمس تضيء ولا قمر يسري، ولا بحر يجري، ولا رياح تذري، ولا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا ليل يجن، ولا نهار يكنُّ، ولا عين تنبع، ولا صوت يُسمع، ولا جبل مرسى، ولا سحاب مُنشأ، ولا إنس مبروء، ولا جن مذروءَ، ولا ملك كريم، ولا شيطان رجيم، ولا ظل ممدود، ولا شيءٌ معدود»(٤).

ذلك وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ في كيفية خلق السماوات والأرض من «الماء»: «إن الله عزّ وجلّ لمَّا خلق الماء فجعل عرشه عليه قبل أن يخلق السماوات والأرض وذلك قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يعني وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأرسل الله الرياح

---

(١) العوالم (٢ - ٣: ٤٠) غوالي اللئالي عنه ﷺ وفيه عن المكارم (٥٩٣) في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام: يا علي! إن أول ما خلق الله - خلقه الله - العقل، وعن العلل عن أمير المؤمنين عليه السلام «النور».

(٢) المصدر.

(٣) المصدر (٤١) تحف العقول في حديث موسى الكاظم عليه السلام لهشام: يا هشام إن الله خلق العقل وهو أول ما خلقه الله من الروحانيين عن عين العرش من نوره.

(٤) الإقبال بإسناده إلى التلعكبري بإسناده إلى أيٍّ من ابن سلمة عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام في دعاء يوم عرفة: أنت الكائن قبل كلّ شيءٍ والمكون لكل شيء - إلى قوله -: الحمد لله..

على الماء فتفجر الماء من أمواجه فارتفع عنه الدخان وعلا فوق الزبد فخلق من دخانه السماوات السبع فخلق من زبده الأرضين السبع...»[(١)].

وفي الباقري عليه السلام: «كان كل شيء ماءً وكان عرشه على الماء فأمر الله تعالى الماء فاضطرم ناراً فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد».

وفيه «... وخلق الشيءَ الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شيءٍ إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيءٍ.. ثم خلق النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماءً صافية...»[(٢)].

ولو كان «الماء» هنا هو المعروف عندنا فكيف - إذاً - يتفجر ويرتفع عنه الدخان وهو المستصحب مع اللهيب أو يضطرم ناراً، أو يخلق منه نار، وقد نص القرآن أن السماء كانت دخاناً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ...﴾[(٣)] فهذه التفجرة الأولى في التكوين، التي أولدت السماوات والأرض، كانت في المادة الأم المعبر عنها بـ «الماء» وعلّه أم الذرات وأصل حروف التكوين، وقد تفجرت فانفجرت منها سائر حروف التكوين الصالحة لخلق السماوات والأرض بما فيهما وما بينهما.

ولأن الله تعالى جعل نسب كل شيءٍ إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً - وكما يروى - فهذا الماء قد يكون هي الحروف الأولية لسائر التكوين بعده، فعلها المادة الفردة ذات بعدين اثنين وهما أقل تركيب لأي كائن كان، فقد

---

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:..
(٢) تفسير البرهان ج ١ عن أصول الكافي.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

خلقت سائر حروف التكوين - ذراتٍ أما أشبه - من تلك التفجُّرة الأولى، كما تخلق الجُزئيات من هذه الذرات، وتُخلق العناصر من الجزئيات.

والمحاولات الكادحة البشرية هي كلها كالحة في حقول الحصول على معرفة المادة الأولى التي هي أبسط المواد، وهي البداية والنهاية لكيان المادة، بدءاً لتكوينها منها، وختماً لإعدامها فيها.

فلا مجال - إذاً - لاحتمال أن «الماء» هنا هو المعروف لدينا، حيث السماوات والأرض وهما وليدا ذلك الماء، هما يحملان الماء المعروف، وله نسب هما الذرتان، كما ولكل ذرة نسب هو أجزاؤها التي تتشكل منها، ثم ليس قابلاً للاحتراق حتى يصعد منه دخان وهو المستصحب للهيب، ولو كان القصد من «الماء» هو الذرات التي يتشكل منها لكان الصحيح ذكرها بما يناسب تعريفها.

ثم وليست لفظة الماء بالتي تعيِّن المعروف لدينا، بل القرائن هي التي تقرر كيانه، وهنا المقرر كتاباً وسنة هو المادة الأولية لخلق الكون القابلة للاحتراق، التي ليس لها نسب يرجع إليه، وليس خلقها بإرادة الله نسباً له، إنما النسب هو الذي خلق منه، فقد خلق كل شيء من ذلك «الماء» ولم يُخلق هو نفسه من شيء، بل هو المخلوق لا من شيء حيث خلقه الله لا من شيء سبق، لا من شيء ذاته فإنه باين من خلقه وخلقه باين منه، ولا من شيء خارج ذاته، لأنه حسب النص أوّل ما خلق الله، فليكن مخلوقاً لا من شيءٍ، وإنما بإرادة الله تعالى خلقاً لذلك المخلوق الأول، دون أن يكون هناك مخلوقٌ منه.

فكل خلق بعد الماء له مخلوق منه هو الماء، وليس للماء نفسه مخلوق منه، وإنما كيانه تركُّب مَّا تحتاجه المادة في أصل كونها وكيانها، وليس ذلك تركباً من جزئيه بعد خلقهما وكونهما منفصلين، حيث لا كون ولا كيان لكل

منهما إلّا حالة تركُّبهما، فذلك المركب يكون كأول كائن مركباً، ثم انعدامه يساوي ويساوق انفصالهما، فإنه انفصال عن كونهما تماماً، وتمام التفصيل حول هذه المادة البسيطة راجع إلى آية الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾[١].

وحصيلة البحث حول الآية - بمراجعة أخرى إليها - كالتالية: «الماء» فيها حيث يقابل ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليس هو الماء المخلوق في السماوات والأرض، فإنهما - كلما تذكران في القرآن - عبارة أخرى عن الكون كله، فحين تفردان بالذكر تعنيان كافة الكائنات المخلوقة أمّاً والدة سائر الكائنات المخلوقة منها، وحين تُقرنان بـ «الماء» أمّا أشبه، تعنيان الكون كله إلّا «الماء» أمّا أشبه.

ثم الله جعل للسماوات والأرض نسباً هو الماء ولم يجعل للماء نسب ينسب إليه، فقد يعلم أن ليس للماء نسب وماء السماوات والأرض له نسب الـ (H_2O) حيث ركِّب منهما.

ولأن كافة التركيبات غير الأولية راجعة إلى «الماء» فليكن هو المركب الأوّل غير المركب عن مادة أخرى، فهي - إذاً - مادة فردة لا تركيب لها عارضاً على أجزائها، اللّهم إلا التركب الذاتي الذي لو تحلل عنه لكان تحللاً عن كونه المادي بأسره، رغم سائر التحللات في التركبات غير الأولية، فإنها تحللات عن الكياني المادي العارض دون كونه الذاتي أصلاً لوجوده.

فلذلك لا تعني «الماء» أية مركَّبة مادية غير الأولية، سواء أكانت مركبة الماء المعروف عندنا، أم الذرات التي تشكله ككل (H_2O) أم كلٌّ من ذرتي الأوكسيجين والئيدروجين، أم وأجزاءَ كلٍّ، إذ لم تثبت أمومة سائر التركبات

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

غير الأولية لأية ذرة وصل العلم إليها حتى الآن، ولن يصل إليها بعد الآن، حيث الأم الأولى غائبة عن الحواس والعقول في كلّ الحقول، إلا أن يكشف الوحي عن وجهها النقاب وقد كشف هنا وفي آية الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾[1].

ذلك، وكما أن المركبات غير الأولية رُكِّبت من عناصر وجزئيات وذرات، وكذلك الذرات ركبت من أخرى لا نعرفها، هكذا المادة الفردة الأولى أخذت تتركب بمختلف الفواصل والأشكال حتى حصلت مواد أخرى ومنها الذرات التي نعرفها.

ولأن «الماء» كيفما كان - ليس إلَّا مادة، إذاً فليس الكون المخلوق منها إلّا مادة أو مادية، إذ لا يُخلق المجرد عن المادة كما لا تخلق المادة عن المجرد لمكان التباين بينهما، فالأرواح وما أشبه، المعبر عنها بالمجردات هي كلها ماديات خُلقت من «الماء».

ثم وتأويل الماء إلى العقل المجرد والروح المجرد ليس ليفيد القائلين الغائلين بتجرد الأرواح والعقول بنفس السند، وليس الماء مركباً من المجرد والمادة - لو صح ذلك التركب وأمكن - حيث ينتشئ المجرد عن مجرده والمادة عن مادته، إنما هو «الماء».

إذاً فخلقُ كل شيءٍ من «الماء» يطارد خلق المجردات إلَّا ألا تكون من الأشياء المشمولة لـ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] وما أشبه من آيات.

ذلك عرض للمادة الأولية المخلوق منها السماوات والأرض بتعبير عبير

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٦.

من العليم الخبير، وأين ذلك مما في التوراة المصرحة: «في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وعلى وجه الغمر ظلمة. روح الله يرفُّ على وجه الماء» (التكوين ١: ١ - ٣).

فإن كان ذلك الماء هو المادة الأولية، فلماذا تأخر عن «السماوات والأرض» المخلوقتين منه، ثم وإن كان - إذاً - يعني من «روح الله» عرش الله، فما هي المناسبة بين روح الله وعرش الله؟ أم يعني «الماء» المخلوق كسائر الكون من المادة الأولية، فلما يختص ذلك الماء بين سائر الخلق برفّ روح الله عليه؟.

فإنما هي كلمة إشراكية متَّخذَة من الوثنيات العتيقة حيث تعتبر «سيفا»: الروح المهلك: الأقنوم الثالث، أنه هو الروح الذي يرف على وجه الماء[1]!.

وهذا الإله الذي يرف روحه على وجه الماء حق له أن يعي من ذلك السبح الطويل الوبيل، فيعيى - بأحرى - في خلقه السماوات والأرض وكما في (التكوين ١: ٢ - ٤) «فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً»!.

ذلك، ولهذا سموا يوم السبت سبتاً اعتباراً بسبته تعالى عن خلقه استراحة فيه، والقرآن يزيف هذه الهرطقة الحمقاء قائلاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

(١) هذا هو الثالوث البوظي كما يقول المستر فابر في كتابه أصل الوثنية: «نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من: برهمة وفشنو وسيفا، وهكذا نجد عند البوظيين فإنهم يقولون: إن بوظا إله واحد ويقولون بأقانيمه الثلاثة، وكذلك بوظي «جينست» يقولون عن «جيفا» إنه مثلث الأقانيم، والأقنوم الثالث: سيفا هو الروح الذي يرف على وجه الماء.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[١] قضية هيمنته على ما بين يديه، تزييفاً لكل تجديف، وتصديقاً لصالح الوحي فيه.

ذلك، ولنرجع إلى تتمة البحث حول الآية مهما لم نقض حقها كما يحق، وإنما هو قدمنا قدر المستطاع.

﴿خَلَقَ... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بلوىً بذلك الكون الواسع الشاسع في حقل العمل بكل جوانبه، فميدان الكون مسرح للتسابق في إحسان العمل.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٣].

وأحسن عملاً هو أحسن عقلاً فقد «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: ما معنى ذلك يا رسول الله ﷺ قال: «ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: وأحسنكم عقلاً أورعكم عن محارم الله وأعلمكم بطاعة الله»[٤].

فليس يعني «أكثركم عملاً» ولكن «أصوبكم عملاً» وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة[٥] «ألا إن الله قد كشف الخلق كشْفةً لا أنه جهل ما أخفوه من مضمون أسرارهم ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فيكون الثواب جزاءً والعقاب بواءً»[٦].

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.
(٤) الدر المنثور ٣: ٣٢٢، أخرج داود بن المجر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول الله ﷺ...
(٥) نور الثقلين ٢: ٣٤٠ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية.
(٦) المصدر في نهج البلاغة قال عليه السلام:... ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل والنية أفضل من =

فـ «إن الله خلق الخلق فعلم ما هم إليه صائرون، فأمرهم ونهاهم فما أمرهم به من شيءٍ فقد جعل لهم السبيل إلى الأخذ به، وما نهاهم عنه من شيءٍ فقد جعل لهم السبيل إلى تركه، ولا يكونون آخذين ولا تاركين إلّا بإذنه، وما جبر الله أحداً من خلقه على معصية بل اختبرهم بالبلوى كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

ذلك، وأصل الخلق وفصله في ستة أيام هما ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ففي أصله إذ «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف» وفي فصله لنحسن العمل بمهَل وَدون عَجَل، حيث المهل هو على أية حال خير من العجل إلا لضرورة، والله خلق الكون من ﴿الْمَاءِ﴾ في ستة أيام دون ضرورة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ في فاسحة المجالات والجلوات ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ بعد كل هذه التفاصيل ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا﴾ القول وذلك البعث ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم يعيشون واقع الخلق المنضد المنظوم، وواقع الدلالات الصادقة من الآيات البينات تكوينية وتدوينية! وقد تخطّوا عن فرية السحر على القرآن إلى فريته على إنباءاته، وكل ذلك لعجزهم عن نقضه.

هذا، وقد يستفاد من ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ غاية لخلق السماوات والأرض، أنها البلوى المتواترة ليطلع فيها ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فهم - إذاً - غاية لذلك الخلق العظيم.

ولأن محمداً ﷺ هو أول العابدين وأفضل العارفين، فهو الغاية

= العمل إلا أن النية هي العمل ثم تلا قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] يعني: على نيته.

(١) المصدر في كتاب الاحتجاج وروى عن علي بن محمد العسكري عليه السلام أن أبا الحسن موسى ابن جعفر عليه السلام قال: . .

القصوى من الخلق أجمعين، هو ومن معه من المحمديين من عترته وسائر أنبياء الله ورسله والصالحين من عباد الله.

وهكذا يصدِّق المروي في حديث قدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك».

صحيح أن في الخليقة من هم كالإنسان في أنه بأحسن تقويم، ولكن الفعلية المتميزة في ميدان التقويم الأحسن بكدح كامل وسعي شامل كافل ليس إلّا لمحمد ﷺ فهو الأفضل الأكمل على الإطلاق بين العالمين أجمعين منذ بداية الخلق إلى يوم الدين.

ذلك، وحتى إذا يعني من ﴿أَيُّكُمْ﴾ كافة المكلفين - وهو صحيح كأصل - فلا ريب أيضاً أنه ﷺ فاق المكلفين كلهم لأنه «أول العابدين» على الإطلاق طول الزمان وعرض المكان.

﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ...﴾:

فـ «بادروا الموت وغمراته، وأمهدوا له قبل حلوله، وأعدوا له قبل نزوله، فإن الغاية القيامة وكفى بذلك واعظاً لمن عقل، ومعتبراً لمن جهل، وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس، وشدة الإبلاس، وهول المطَّلع، وروعات الفَزَع، واختلاف الأضلاع، واستكاك الأسماع، وظلمة اللَّحْد، وخيفة الوعْد، وغم الضريح، وردم الصفيح - فالله الله عباد الله، فإن الدنيا ماضية بكم على سَنَن، وأنتم والساعة في قَرَن، وكأنما قد جاءت بأشراطها، وأزِفت بأفراطها، وأناخت بكلاكلها، وانصرمت الدنيا بأهلها، وأخرجتهم من حِضنها، فكانت كيوم مضى، أو شهر انقضى..»[1].

---

(١) (الخطبة ٢٣٢).

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)﴾:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الموعود عن عاجله ﴿إِلَى﴾ آجله: ﴿أُمَّةٍ

﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ من الزمان، يرتابون في صدق الوعد و﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ هزأ بالوعد وحامله الرسولي ﴿أَلَا﴾ لينتبهوا ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ وهو آتيهم وعداً غير مكذوب ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ بأي صارف ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ حيطة عليهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من العذاب بوعده.

ولأن «هم» في ﴿عَنۡهُمۡ﴾ هم كل هؤلاء المكذبين بآيات الله، فقد يشملهم أجمع منذ نزول هذه الآية إلى يوم الدين، فيقوم بدر الموعود للمؤمنين وعيداً على المشركين[1] وأيام مثله، ثم يوم القائم[2]، ويوم عذاب كما هما مثل يوم الموت ويوم القيامة، كلها داخلة في ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ فهل الزمن المعدود ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ وليس أصحاب القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾.

فكل من عذابهم يوم بدر وما أشبه من حروب، وأمة القائم الثلاثمائة والثلاثة عشر، وأمة الموت وأمة القيامة، من أمم زمنية أم إنسانية، كلها مصاديق صادقة لـ ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ فإنها معدودة معلومة عند الله مهما كانت مجهولة عند من سواه.

ذلك، ولا حِوَل هنا عن عناية أمة من الناس من ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ فإنها

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٤١ في تفسير العياشي عن أبان بن مسافر عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية يعني عدة كعدة بدر، أقول هي عدة بدر ومثلها وهو عدة القائم عليه السلام .

(٢) المصدر عن العياشي عن عبد الأعلى الحلبي قال قال أبو جعفر عليه السلام : أصحاب القائم عليه السلام الثلاثمائة والبضعة عشر رجلاً هم والله الأمة المعدودة التي قال الله : . . قال: يجتمعون له في ساعة واحدة قزعاً كقزع الخريف، وفيه عن الحسين الخزاز عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو القائم وأصحابه وفيه عن تفسير القمي في الآية قال: إن متعناهم في هذه الدنيا إلى خروج القائم عليه السلام فنردهم ونعذبهم ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨] أي يقولوا : لا يقوم القائم ولا يخرج على حد الاستهزاء فقال الله : ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [هود: ٨]، ورواه عن هشام بن عمار عن أبيه وكان من أصحاب علي عليه السلام عن علي عليه السلام في الآية قال: الأمة المعدودة أصحاب القائم الثلاثمائة والبضعة عشر.

تعنيهم في (٤٩) مرة مذكورة في القرآن اللّهم إلّا واحدة هي ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[1].

وليست هذه الأمة المعدودة أمة رسولية أخرى حيث ختمت الرسالة بمحمد ﷺ، فهم - إذاً - أمة رسالية خاصة من هذه الأمة تعذّب كل هؤلاء المكذبين يوم الرجعة، وهو المعني من ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[2] حيث يرجع يوم الهدى عليه السلام حسب القرآن والسنة «من محّض الإيمان محضاً أو محّض الكفر محضاً» رجوعاً بالاستعداد، مهما يرجع مؤمنون متوسطون في الإيمان أيضاً رجعة بالاستدعاء، وهنا ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ لمحة لرجعتهم يوم الرجعة حيث يعنيهم كحاضرين عند نزولها، ومن ثم مَن يأتي بعدهم من المكذبين.

وقد بشر القرآن - ومعه سائر كتابات الوحي وروايات الإسلام وسائر الأديان - أن الله سوف يؤيد هذا الدين بقوم هم أصلح الصالحين في تاريخ الرسالات، يقودهم القائم بالحق في آخر الزمان وهو المهدي من آل محمد عليهم السلام، وهؤلاء هم أصدق مصاديق من مواعيد الله تعالى في تالية الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4] - ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٤) سورة النور، الآية: ٥٥.

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

هذه وآيات أخرى في مغزاها فصلنا البحث حولها في مجالاتها في هذا الفرقان.

ذلك، وفي تأجيل عاجل العذاب المستحق حكمة ربانية عالية، فكم يؤمن من هؤلاء الموعودين الموعوظين ويحسن إيمانهم حيث أبلوا أحسن البلاء، وكم يولد لهم من ذرية ناشئة في الإيمان.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾:

هذه طبيعة ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الرذيلة، البعيدة عن الفضيلة، فهو الغرير القرير بنفسه الشرِّير، فحين تنزع منه رحمة أذاقها الله إياه ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ يأساً من رحمته المستقبلة، وكفراناً بما كانت له ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ يحسب أنه يستحقها و﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ على سيئاته، وقولته هذه منها ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ برحمته ﴿فَخُورٌ﴾ بنفسه على نحسه!.

وهذه استعارة بالغة لأن إذاقة الرحمة ونزعها ليسا بحقيقة هاهنا، وإنما المعني منها هنا أنا إذا رحمنا الإنسان بعد توبته من مواقعة بعض الذنوب فقبلنا متابه ومآبه، وأسقطنا عقابه، ثم واقع بعد ذلك ذنباً آخر، واستحق العقوبة وإزالة الرحمة، يئس من الرحمة وقنط من المغفرة، وهو خالط في ذلك، غالط هالك، لأنه إذا عاود الإقلاع أمن الإيقاع.

فقد أخرج هذا النص مخرج الذم لمن يواقع خطيئة فيقنط من قبول التوبة.

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

وقد تعني هنا ﴿رَحْمَةً﴾ النعمة والسراء، فانتزاعها منه هو إبداله بها الشدة والضراء، إجراءً له في مضمار الابتلاء والاختبار، أو مصلحة يكون معها أقرب إلى الإصلاح والرشاد، وقد يؤيده: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ. . .﴾.

وإنها صورة سائرة صادقة لهذا الإنسان العجول الجهول، القاصر المقصر في كل الحقول، حيث يعيش لحظته الحاضرة ويطغى عليه ما يلابسه، ناسياً اللحظات الغابرة، غير مفكر في المستقبلة، يؤوساً من الخير المنزوع عنه لفترة، كَفوراً بكل خير ذاقه من ذي قبل وإن كان عمراً طائلاً، «والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر».

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في الشدة والرخاء، ففي الشدة لا ييأسون من رحمة الله وهم يعملون الصالحات، وفي الرخاء لا ينسون الله وهم يعملون الصالحات، فالصبر والعمل الصالح لهم زاد وراحلة في اجتياز الطرق الملتوية المختلفة، يعيشون على حالة واحدة من الصبر وعمل الصالحات في كلا الشدة والرخاء، بكامل الإيمان والرجاء.

ذلك والصبر على النعمة هو أصعب من الصبر على الشدة، فكثير من المؤمنين يصبرون على الشدة تجلُّداً وإباءً أن يظهر عليهم الضعف والفتور، ثم وقلة قليلة هي الصابرة على النعمة دون اغترار ولا تبطُّر.

فالإيمان الجادُّ المتمثل بصالح الإعمال على أية حال هو الذي يعصم المؤمن من اليأس الكافر في الشدة والضراء، كما يعصمه من البطر الفاجر في النعمة والرخاء والسراء، صبراً في السراء والضراء على سواء، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء، كما لا يتنفَّج ويتعالى عندما تغمره السراء.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾:

«لعلك» هنا تبيين لقاسية الظروف الرسالية لهذا الرسول العظيم، أن لولا العصمة الربانية لكان - علّه - تاركاً بعض ما يوحي الله من جراء تكذيبهم الدائب إياه، ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ﴾: - ببعض ما يوحى إليك - ﴿صَدۡرُكَ﴾ حيث لا تتحمله حين يكذبونك فيه، فمهما ينشرح صدره بما يوحى إليه ولكنه قد يضيق بما يكذَّب فيما انشرح به صدره، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ كسائر النذر ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾[1] وليس عليك هداهم ف ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ فلست أنت عليهم بوكيل ولا نائب ولا خليفة ولا مخول في أمرهم، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾.

وقد تمسك بـ «لعل» هنا مجاهيل من المبشرين أنه ﷺ ترك بعض ما أوحي إليه وضاق به صدره[3] ويكأن «لعل» - المشكلَة - في أدبهم غير الأديب ولا الأريب، تعني «أنَّ» الحاتمة لمدخولها، وهي لا تعني إلّا بياناً

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) كالحداد البيروتي في كتابه «القرآن والكتاب» ج ٢: ٧٠٨ حيث يقول: الرابعة التسلسل التاريخي إمكان ترك النبي بعض ما يوحى إليه، ما زالت تحديات المشركين تترى على محمد لإثبات رسالته بمعجزة كالأنبياء الأولين، ولما ضايقوه همَّ بترك بعض ما يوحى إليه ﴿فَلَعَلَّكَ...﴾ [هود: ١٢] أجل لا يلزم من توقع النبي الشيء حدوثه، ولكن مجرد التهمة شبهة، وضيق صدر الرسول ﷺ عن عدم وقوع المعجزة دليل على ما هم به من ترك بعض الوحي، ولولا عزم النبي على ترك بعض الوحي، ما كان القرآن وبّخه هذا التوبيخ اللاذع، فلا يليق بالله توبيخ بلا ذنب ومعاقبة بلا زلّة، وفي قصة النسيان المقصود من الله دليل على إمكانية وقوع الترك».
أقول: القصد من النسيان المقصود ما خيِّل إليه من ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ...﴾ [الأعلى: ٦-٧] وليس الاستثناء إلا عن الإقراء، سنقرئك إلا ما شاء الله ألا يقرئك.

لقاسية الظروف الرسالية مثل ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1] وما أشبه.

ولو أن «لعلّ» - التي تجعل مدخولها في بقعة الإمكان، نافية للاستحالة - لو أنها تحتِّم مدخولها لها بمجرد ذكرها، لكان - إذاً - كل ما بالإمكان واقعاً لا محالة، فليكن المستدل بها على الوقوع مجنوناً جاهلاً قاحلاً لإمكانيتها فيه، أم ليكن ميتاً أو لمَّا يولد وما أشبه من إمكانيات غير واقعة، أنها واقعة.

إنما «لعل» هنا وفي أضرابه للتأشير إلى عشير النكير المتواتر من هؤلاء المجاهيل - كقائل هذه القولة الغائلة - لهذه الرسالة السامية.

ثم ومثل شديد التهديد ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[2] كان يتربصه لو أنه غيَّر سلبياً أو إيجابياً بعض ما أوحي إليه، فكما أن الزيادة في الوحي توحي بفرية الوحي، كذلك النقيصة منه توحي بعدم الوحي، فـ «أوحى إليَّ ربي» ولم يوح إليه، لا يختلف عن «لم يوح إلي ربي» وقد أوحى إليه، والرسول بكل كيانه الرسالي إذاعة للوحي قولاً وعملاً وتقريراً، والسكوت عن بعض ما أوحي إليه نطق بأنه لم يوح إليه وقد أوحي!.

ذلك، وقد شرح الله صدره عند بزوغ الوحي بهذه الرسالة القدسية، فليس ليضيق صدره إلَّا بما يضيِّق صدره من تكذيبه في رسالته، ضيق هو من قضايا الشرح، ثم ولم يضق صدره لذلك أيضاً، وإنما كاد، وعصمه الله عنه كما عصمه عن ترك بعض ما أوحي إليه.

ولو أنه ترك بعض ما أوحي إليه لكان متروكه مذكوراً في الذكر الحكيم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.

إذ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١] وكيف يُحفظ القرآن بترك بعضه؟ إنما هو «لعلك» بياناً لإحراج موقفه لحد علّه يترك بعض ما أوحي إليه مخافة تكذيبه المتواصل، ولكن الله طمأنه وآمنه فلم يترك ولن.

ثم وليس من المعقول - ولا سيما بالنسبة لأعقل العقلاء - أن يترك بعض الوحي ويفضح نفسه في كتاب وحيه نفسه ليسقط عن الاعتبار، وهو خيانة في الوحي، وليس الله بساكت عنها أبداً!.

وقد يعني ﴿تَارِكُۢ﴾ - إلى ما يعنيه - ترك إبلاغه إلى هؤلاء المكذبين وهو يبلغه إلى المصدقين حيث الترك ليس يختص بالسلب الطليق، بل وسلب نسبي فيه إثباتٌ مَّا كـ ﴿تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾[٢] فإنه سلب نسبي وهو عن أنفسهم بالموت، ثم إيجاب لهم أنفسهم حيث عاشوا بعدهم، فقد يترك بعض ما أوحي إليه كتماناً عن أهليه، أو نسياناً، أم يترك تناسياً تركاً لبلاغه المستمر للمكذبين به، بعدما بلغه ولم يزدهم إلّا زائداً من الهزء والتكذيب، ولكنه لم يكن ليتركه رسولياً «نسياناً» أم رسالياً تناسياً عن بلاغه إلى أهليه، ولا عن غير أهليه، وإنما «لعلك» بالنسبة لهؤلاء الأنكاد المكذبين.

وعلّ ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ دون «كله» يعني الآيات التي تصرح بمعجزة القرآن، ألا يتلوها - بعد - عليهم، قضية تواتر نكرانهم لمعجزة القرآن، فقد يهتم الرسول ﷺ أن يترك قراءة الوحي على هؤلاء المكذبين لمحات يسيرة أو كثيرة أو مع الأبد، غضباً وعقوبة عليهم، كما الله قد يسلب بعض عباده نعمةً نتيجةَ كفرهم أو كفرانهم إياها و: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣].

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

ولم يكن الرسول ليترك بعض ما يوحى إليه قضيةَ ذلك التكذيب المتواصل المتعاضل إلَّا بإذن ربه، وقد عرف عدم إذنه تعالى بمثل هذه الآية فلم يتركه إذاً ولن: فـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[١].

فلا أنه ﷺ ترك الوحي، ولا بعض ما يوحى إليه أو كاد، وعله يترك بإذن ربه عقوبة عليهم ونكاية ولكنه لم يؤذن بذلك، ولكنه لم يتركه لهم حتى نسبياً حيث ضمن له الله وطمأنَه، وأنه من رعيل النذر الذين عليهم الإنذار «عذراً أو نذراً» «عذراً» حين لا يؤثر الإنذار «أو نذراً» فيما يؤثر.

فـ ﴿أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ هي قولة غائلة هائلة ضد هذه الرسالة السامية قد تحرضه ﷺ على أن يترك بعض ما أوحي إليه بلاغاً لهؤلاء الأنكاد، ولكنه معصوم بعصمة ربانية تحافظ على «لعلك - و - ضائق به صدرك» فهو نافض يديه عن كل ما أوحي إليه دون إبقاء، وكما نجد عشرات من الآيات التي تذكر مواجهته بها إياهم بهذه الذكريات وهم مكذبوه.

وهنا ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ ليس إلا البعض الذي أحرجوه فيه، كآيات التحدي التي تعرِّف بالقرآن أنه أفضل آية رسولية ورسالية على مدار الزمن الرسالي، ما نزلت منها وما لم تنزل بعد، وكذلك آيات البشارات في كتابات السماء، أن الله تعالى أودع فيها خبر هذه الرسالة السامية بكتابه المجيد.

فقد كان قضية ظرف النكران لأمثال هذه الآيات، تطلب بديلها ما ليست بآيات كـ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أم أية خارقة ليست لتدل على الرسالة كـ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ إذ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.

يَلْبِسُونَ﴾[1] كان قضيته أن يترك أمثال هذه الآيات التي ما كانت تزيدهم إلّا نفوراً، فلا يتلوها عليهم بعدُ، بعدما تلاها عليهم وما نفعتهم!.

ولكن الله لم يسمح له بهذا الترك رغم أنه قضية الحال اعتباراً بالصبغة الرسالية العامة: «عذرا أو نذراً».

ذلك، فالمتوقع من النفس البشرية - لولا العصمة الربانية - أن تضيق صدراً بذلك الجهل القاحل، والتعنت الماحل، والاقتراحات السخيفة النحيفة التي تكشف عن بعدهم البعيد عن درك طبيعة الرسالة الربانية ووظيفتها.

فقد تشي هذه الآية وأضرابها بقساوة الجو لفترة حَرِجة مَرِجة في تأريخ الدعوة المحمدية ﷺ وما كان يعتور صدره المنشرح من ضيق بتكذيبه، كما تشي بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة في الوقت الذي هلك فيه العشير والنصير، وغمرت الوحشة قلب هذا البشير النذير، وغشي الكرب على قلوب القلة المؤمنة بهذه الرسالة أمام الثلة الكافرة بها المكذبة إياها.

أفيقولون قد لا يكون هو رسولاً إذ لم ينزل عليه كنز ولا جاء معه ملك:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾:

كل فرية لها سمة أو سمات، فهل هنا سمة في القرآن أم وصمة تدل على أنه ليس رباني المصدر والصدور؟ ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾:

القرآن، مفتريات، والخطاب المتحدي هنا يعم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ المستمرة بمضارعتها تعم كافة القائلين

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.

الغائلين أن يفترى على الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

لا فحسب بمثله أم بعشر سور مثله، بل وبسورة ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[2] أو من مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[3].

والمماثلة المتحدى بها وإن في سورة هي الطليقة الشاملة لأية مماثلة في نسج العبارة ونضد التعبير، في كافة الضروب البيانية بلاغة وفصاحة، وفي كافة الحقول العلمية التي توجد في ذلك المسرح الفصيح القرآني الفسيح.

فكما أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[4] في ذات وصفة وفعل، كذلك كتاب الله ليس كمثله شيء في أي شيءٍ من كتابات الأرض، ولا الكتابات السماوية غير المتحدى بها!.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ - وهم يكرِّسون كافة إمكانياتهم وطاقاتهم تثبيتاً لكونه مفترى على الله - إذا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ حيث النازل بعلم غير الله له أمثال ونظائر قد تربوه أم تساويه وتوازيه، والقرآن بنفسه شهيد على ربانية مصدره وصدوره: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ... ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٥) سورة الأنعام، الآيتان: ١٩، ٢٠.

فعلم الله الذي لا يتغير ولا يتدرج ولا يُنتقص ولا يُنتقض، ظاهر في آياته، باهر في بيناته، والركب السريع الهريع من العقل والعلم شاهد صدق على أنه علم الله و﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

أجل، وليس القرآن بحاجة لإثبات ربانية صدوره إلى شاهد سواه، كما الله لا يحتاج إلى ما سواه، فإنه نور وتبيان وشاهد وبرهان لا يوازيه أو يساميه أي برهان شهادة لربانيته، ولا بياناً لما يحويه من حاجات المكلفين منذ بزوغه إلى يوم الدين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] ولن تجدوا في هذا القرآن اختلافاً كثيراً ولا يسيراً!.

إذاً ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[2] حيث يشهد بعلمه في كتابه على وحيه وعلى توحيده: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لله بكامل حججه وبيناته في كتابه؟.

ذلك، ولماذا يتحدى القرآن بمثلث ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[3] و﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ و«بسورة مثله - أو - من مثله» ؟

هذا ليحلِّق التحدي على مثلثه، فلا يقال قد لا يؤتى بسورة واحدة مثل سورة واحدة منه ولكن يؤتى بسور قد تماثل القرآن بعضاً مَّا، أم يؤتى بقرآن يماثله شطراً مّا.

فلكي تسد كافة الثغور على بلدة القرآن يؤتى بمثلث التحدي وأقله سورة مّا وإن مثل سورة الكوثر، وأوسطه عشر سور بين صغيرة وكبيرة ومتوسطة، وأكثره كل القرآن.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

ذلك، وليحلِّق التحدي على كافة المواضيع القرآنية - العلمية - إضافة إلى أدبه البارع القمة، وهنا الله تعالى مصرح بإعجازه العلمي ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ مهما شمل الجانب اللفظي الأدبي فإنه القشر في إعجازه وسائره هو اللب.

والتحديات الثلاثة لا تعني الكمية المتحدى بها، بل هو الكيفية والنوعية وإن في آية واحدة، حيث الأسلوب القرآني هو منقطع النظير بين كافة الأساليب لمن سوى الله، مهما كان من عباقرة العلم والتفكير، فالمماثلة في مثلَّثها يعني منها جانب الكيفية لفظياً ومعنوياً، دون الكمية إذ لا خارقة فيها.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ مسلمون كما يصفه القرآن ورسول القرآن: مسلمون للرسالة القرآنية، وهنا يصفه شاهدٌ منه قائلاً: «ثم إن هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، وأصفاه خير خلقه، وأقام دعائمه على محبته، أذلّ الأديان بعزته، ووضع الملل برفعه، وأهان أعداءه بكرامته، وخذل محادِّيه بنصره، وهدم أركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش بحياضه، وأناق الحياض بمواتحه - ثم جعله لا انفصام لعروته، ولا فك لحلقته، ولا انهدام لأساسه، ولا زوال لِدعائمه، ولا انقلاع لشجرته، ولا انقلاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذّ لِفروعه، ولا ضنك لطرقه، ولا وُعوثة لسهولته، ولا سواد لِوضحه، ولا عِوَج لانتصابه، ولا عَضَل في عُوده، ولا وعثَ لفجِّه، ولا انقطاع لِمصابيحه، ولا مرارة لحلاوته - فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها، وثبَّت لها أساسها، وينابيعُ غَزُرت عيونها، ومصابيح شبت نيرانها، ومَنارٌ اقتدى بها سُفَّارها، وأعلامٌ قُصِدَ بها فِجاجها، ومناهل رَوِيَ بها وُرَّادُها، جعل الله فيه منتهى رضوانه، وذِروة دعائمه، وسَنام طاعته، فهو عند الله وثيق الأركان، ورفيع البنيان، ومنير

البرهان، مضيءُ النيران، عزيز السلطان، مُشرف المَنار، فشرِّفوه واتبِعوه، وأدوا إليه حقه، وضعوه مواضعَه»[١].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾:

آية وحيدة بصيغة التعبير لتقرير مسير أنحس الكافرين ومصيرهم إلى جهنم وبئس المصير: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ طول حياته منذ أعماق ماضيه حتى مضيّه عن الحياة، لحد ركنت إرادة الحياة الدنيا وزينتها وركزت في أركان حياته، دونما إرادة معها الحياة الآخرة، فلا أعمال له ولا أحوال ولا أقوال إلَّا ما يتبنى الحياة الدنيا وزينتها، إذاً ف ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ توفيه لها إليهم فيها كما يصح ونرضى، لحد لا ظلم عليه فيها لأعماله لها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[٢] و﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٣] وإنما نصيبهم في الدنيا بما عملوا لها ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ عما يحق لهم بسعيهم على وعيهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

فهم أولاء الذين لم يعملوا إلَّا للحياة الدنيا وزينتها، هم في ثالوث منحوس من جرَّاء أعمالهم وأثقالهم: ف ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ قراراً

---

(١) (من الخطبة ١٨٩).

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٨-٢٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

فيها دون فرار ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ إذ لم يصنعوا فيها لدار القرار ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في دار الفرار، إذ لم يعملوها لدار القرار، فـ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[١].

وتراهم كانت لهم صالحات حتى تُحبط وتبطل؟ كلّا، وإنَّما هي الصالحات التي يعملونها للحياة الدنيا وزينتها دون الآخرة وذلك شرط ألا يؤمن بالآخرة، فإن إرادة الحياة الدنيا وزينتها قد تكون بعمل الدنيا وأخرى بعمل الآخرة، فيا ويلاه أن تعمل عمل الآخرة للدنيا فإنه نفاق وهو أنحس من الكفر وأضل سبيلاً.

وهنا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قد تكون مستقلة مستغلة بعمل الدنيا أو الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، أم مشتركة بينهما أن يعمل لهما، أم هو خارج عن الإخلاص في أعماله للأخرى فأدنى عذاباً إذ لا يسوّى بمن هو ملحد في أعماله ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٢] [٣] والمعني من حديث الرسول ﷺ أن العمل

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٣) الدر المنثور ٣: ٣٢٣ - أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: أوّل من يدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن يقول الله تعالى له: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى، فيقول فماذا عملت فيما علمتك؟ فيقول: يا رب كنت أقوم به الليل والنهار فيقول الله له: كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئٌ فقد قيل. اذهب ليس لك اليوم عندنا شيء ثم يدعى صاحب المال فيقول عبدي: ألم أنعم عليك ألم أوسع عليك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: فماذا عملت فيما آتيتك؟
فيقول: يا رب كنت أصل الأرحام وأتصدق وأفعل فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك اذهب فليس لك اليوم عندنا شيء، ويدعى المقتول فيقول الله له: عبدي فيم قتلت؟ فيقول: يا رب فيك وفي سبيلك فيقول الله له: كذبت وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جريءٌ فقد قيل ذلك، اذهب فليس لك اليوم عندنا شيءٌ ثم قال رسول الله ﷺ: أولئك شر خلق الله يسعر بهم النار يوم القيامة. =

الذي ليس إلَّا للحياة الدنيا وزينتها هو حابط باطل في الأخرى وليس يعني أن بعض الأعمال الطالحة يحبط سائر الأعمال الصالحة[١] وإنما لكلِّ عملٍ أجره قَدَر قدْره لـلآخرة، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٢] فإن كان سعيه للدنيا فله ما سعى فيها، وإن كان للآخرة فله سعيه فيها وعند الله مزيد.

فمحور القصد في الآية هم الكفار الذين لا يعملون إلَّا للحياة الدنيا، لمكان ﴿مَن كَانَ﴾ الدالة على الاستمرار في كل الأعمال، و«ليس لهم إلَّا النار» وعلى هوامشهم المسلمون الذين قد يعملون أعمالاً صالحة يقصدون بها الحياة الدنيا.

ذلك، ولأن سنة الله جارية على الجزاء بالأعمال صالحة وطالحة هنا وفي الأخرى، فلا تعجبك الأموال الوفيرة والقُدرات والإمكانيات الكثيرة للذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها.

فلأن أكثر الجزاء للمؤمن هو في الآخرة، وكل جزاء الكافر في الدنيا، لذلك نرى زُهَر الحياة الدنيا لأهليها أكثر من أهل الآخرة، وهنا نعرف المعني مما يروى أن «الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر».

ذلك «وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود والأعمى لها متزود»[٣].

= وفي نور الثقلين ٢: ٣٤٤ عن تفسير القمي في الآية قال: من عمل الخير على أن يعطيه الله ثوابه في الدنيا أعطاه الله ثوابه في الدنيا وكان له في الآخرة النار، وعن المجمع في الحديث أن النبي ﷺ قال: بشر أمتي بالسناء والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عملاً للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب» أقول: يعني من هذا العمل، وأما العمل الذي يعمله للآخرة فله فيها منه نصيب.

(١) المصدر.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) (الخطبة ١٣٣).

فالحياة الدنيا هي لأهلها المُبصرين إليها مُعمية، وللمتذرعين بها إلى الحياة الأخرى المبصرين بها مُبصرة، فالدنيا في حد ذاتها ليست بمذمومة ولا ممدوحة، وإنما هي مدرسة ينجح فيها جماعة ويسقط آخرون، فـ : «أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المنخدع بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرتك؟ أبمصارع آبائِك من البِلى، أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك؟ وكم مَرَضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداةً لا يُغني عنهم دواؤك، ولا يُجدي عليهم بكاؤك، لم ينفع أحَدَهم إشفاقك، ولم تُسعَف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، وقد مثلت لك به الدنيا نفسَك، بمَصرعه مصرعك - إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزود منها، ودار موعظةٌ لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله - اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذّمها وقد آذنت ببيَنها، ونادت بفراقها، ونَعَت نفسها وأهلَها، فمثَّلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور؟ راحت بعافية، وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة، وحَمدِها آخرون يوم القيامة، ذكَّرتهم الدنيا فتذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظَتهم فاتعظوا»[١].

ذلك، ومما يروى عن الرسول ﷺ في همِّ الدنيا: «من كانت الدنيا همه وسَدْمَه جعل الله فقراً بين عينيه»[٢] حيث يعني: «من جعل الدنيا همه، وقرَّ عليها باله، وأعرض عن الآخرة بوجهه، وأخرج ذكرها من قلبه، وأقبل على تثمير الأموال، واستضخام الأحوال، عاقبة الله على ذلك بأن يزيده فقر

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٢٧ قالها عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا: أيها الذام...
(٢) المصدر.

نفس، وضرع خد، فلا تُسد مفاقره كثرة ما جمع وعدد، وعظيم ما أثل وثمر، فكأنه يرى الفقر بين عينيه، فهو أبداً خائف من الوقوع فيه، والانتهاء إليه، فلا يزال آكلاً لا يشبع، وشارباً لا ينفع، فمعه حرص الفقراء، وله مال الأغنياء»[١].

أجل «وهذه الخطوط إلى جنبها الأعراض تنهشها»[٢] فهي أعراض الدنيا التي تعرض فيها من المصائب، وتطرق من النوائب، تشبيهاً لها بالحيات الناهشة، والذؤبان الناهسة، لأخذها من لحم الإنسان ودمه، وتأثيرها في نفسه وجسمه.

أجل، أولئك الأنكاد، الأعمون البعاد: «آثروا عاجلاً، وأخروا آجلاً، وتركوا صافياً، وشربوا آجناً، كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، وبسيء به ووافقه، حتى شابت عليه مفارقه، وصُبغت به خلائقه، ثم أقبل مزيداً كالتيار لا يبالي ما غرّق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرّقَ - أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منار التقوى؟ - أين القلوب التي وُهِبت وعوقدت على طاعة الله - ازدحموا على الحطام، وتشاحوا على الحرام، ورُفع لهم علم الجنة والنار فعرفوا عن الجنة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم، ودعاهم ربهم فنفروا وولّوا، ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا»[٣].



(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٧٥).
(٢) المصدر ٧٧ عن النبي ﷺ.
(٣) (الخطبة ١٤٤).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هنا هو الرسول ﷺ فإنه هو الذي حُشِر بيناتٍ وشهوداً في مثلث الزمان، دون أهل الكتاب، فإن البينة الأولى لهم

هو كتاب موسى، وليس هو من قبله، بل هو معه، ثم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جمعاً لا تناسب «مَن كان» المفرد، ثم لا مرجع لضمير الغائب في «به» لا هنا ولا التي قبلها.

إذاً فهو النبي ﷺ حشيراً وعشيراً لبينات وشهادات تدل على محتده الرسالي السامي.

و«كان» تضرب إلى أعماق الماضي، ١ - قبل ولادة ببينات البشارات الواردة بحقه في كتابات الوحي، ٢ - وبأصل وِلادة حيث ظهرت عنده عجائب قاصده، ٣ - وطيلة الأربعين قبل رسالته وهي الحالة التحضيرية لرسالته، بارقة مشرقة خارقة للعادات إذ لم يُرَ في حياته تلك نقطة سوداء، مما يبرهن - وهو في جو الإشراك وكافة الرذالات - على بالغ حاله واستقباله.

٤ - ومنذ ابتعاثه إذ كان يحمل من بينات الرسالة الربانية كافة اللمحات والدلالات، فحين نرى رسل المسيح يستدلون بأنفسهم على رسالاتهم أمام الناكرين: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾(١) فهذا النبي أحرى أن يكون بنفسه برهاناً ساطعاً على رسالته.

٥ - ويقرآنه وهو رأس الزاوية من ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ منقطعة النظير عن كل بشير ونذير، آيات بينات خمس تلو بعضها البعض، أو مع بعضها البعض، تحشره بنفسها.

ثم ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ من الله، أو من نفسه، أم من الله ثم منه بإذن الله، فتراه نفسه؟(٢) وهو لا يتلو نفسه مهما كان شاهداً من ربه على رسالته بنفسه، وشاهداً بنفسه بما اجتهد وسعى ووفقه الله!.

---

(١) سورة يس، الآية: ١٦.

(٢) المصدر عن الحسين بن علي عليه السلام في الآية قال: محمد هو الشاهد من الله، ومثله ما عن أبي العالية وإبراهيم.

أم هو جبريل عليه السلام[١]؟ وكيف يتلوه وهو معه نازلاً بتفصيل الكتاب على قلبه!، وليس هو شاهداً منه ﷺ ولا شاهداً من ربه له، إذ تكفيه شهادة الوحي من ربه، وأنه هو الذي عرفه جبريل وسيطاً لوحيه، دون أن يشهد على شيء!.

ولا هو شاهد من ربه للآخرين إذ لم يروه، فلا دور له في حقل الرسالة ولا الوحي شهادةً، إنما هو وسيط في تفصيل الوحي، لا لحاجة منه إليه، بل ليعرف الناس أنه ﷺ ليس إلهاً يقول من نفسه، تثبيتاً لإيمانهم أنه بشر رسول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. .﴾[٢].

أم هو لسانه الصدق[٣] القرآن العظيم، بينة له في زمنه، ثم يتلوه على مدار الزمن حتى القيامة الكبرى، شاهدٌ من ربه على رسالته الأخيرة، وهذا هو الحق، فإن الله يشهد بالقرآن على وحيه وعلى رسالة من جاء به على طول الخط.

ثم ويتلوه شاهد من الله كأصل، وهو شاهد منه ﷺ بما أذن الله، وهو الإمام علي عليه السلام كما تواترت به الروايات[٤].

---

(١) المصدر عن ابن عباس أنه جبرئيل ووافقه سعيد بن جبير وعطاء وابن عباس.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٢٤ عن محمد بن علي بن أبي طالب قال قلت لأبي: إن الناس يزعمون في قول الله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧] أنك أنت التالي؟ قال: وددت أني أنا هو ولكنه لسان محمد ﷺ.

(٤) المصدر أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧] رسول الله على بينة من ربه وأنا شاهد منه، وأخرجه عنه عليه السلام ابن عساكر، وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧] قال: علي.
أقول وفي ملحقات إحقاق الحق (٣: ٣٥٢ - ٣٥٨): أورد هذه الرواية عن النبي ﷺ كثير من الحفاظ منهم الثعلبي في تفسيره، والبغوي في تفسيره معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن=

. . . .

= ٣: ١٨٣ والرازي ١٧ : ٢٠١ من تفسيره حيث أورده عن بعض، والطبري في تفسيره ١٢ : ١٠ والقرطبي في تفسيره ٩: ١٦ والكنجي في كفاية الطالب ص ١١٠ والنيسابوري في تفسيره ١٢ : ١٦ والخازن في تفسيره ٣: ١٨٣ وصاحب فتح البيان على ما في فلك النجاة ٤٦١ وأبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط ٥: ٢١١ والألوسي في روح المعاني ١٢: ٢٥ والقندوزي في ينابيع المودة ص ٩٩.

وفي أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه إذا كان يوم الجمعة يخطب على المنبر فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواثيق إلا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله عزّ وجلّ أعرفها كما أعرفه فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما آيتك التي نزلت فيك؟ فقال: إذا سألت فافهم ولا عليك ألا تسأل عنها غيري أقرأت سورة «هود»؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين عليه السلام قال: أفسمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧] ؟ قال: نعم قال: فالذي على بينة من ربه محمد صلى الله عليه وآله والذي يتلوه شاهد منه وهو الشاهد وهو منه وأنا علي بن أبي طالب وأنا الشاهد وأنا منه.

وفيه عن الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه لبعض الزنادقة - وقد قال: وأجده يخبر أنه يتلو نبيه شاهد منه وكان الذي تلاه عبد الأصنام برهة من دهره - وأما قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧] فذلك حجة الله أقامها على خلقه وعرفهم أنه لا يستحق مجلس النبي صلى الله عليه وآله إلا من يقوم مقامه ولا يتلوه إلا من يكون في الطهارة مثله بمنزلته لئلا يتسع لمن ماسّه رجس الكفر في وقت من الأوقات انتحال الاستحقاق لمقام الرسول صلى الله عليه وآله وليضيق العذر على من يعينه على إثمه وظلمه إذ كان الله قد حظر على من مسّه الكفر تقلد ما فوضه إلى أنبيائه وأوليائه بقوله لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٤] أي المشركين لأنه سمى الشرك ظلماً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فلما علم إبراهيم عليه السلام أن عهد الله تبارك وتعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، واعلم أن من آثر المنافقين على الصادقين والكفار على الأبرار فقد افترى على الله إثماً عظيماً إذ كان قد بين في كتابه الفرق بين المحق والمبطل والطاهر والنجس والمؤمن والكافر وأنه لا يتلو النبي صلى الله عليه وآله عند فقده إلا من حل محله صدقاً وعدلاً وطهارة وفضلاً.

وفي ملحقات إحقاق الحق (١٢: ٣٠٩ - ٣٢١) المستدركات التالية حول نزول الآية في الإمام علي عليه السلام منها ما رواه عباد بن عبد الله عن علي عليه السلام رواه جماعة منهم ابن المغازلي في مناقبه والحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٢٧٥) والثعلبي في الكشف والبيان (مخطوط) والسهيلي في التكملة (١١٧) والقندوزي في ينابيع المودة (٩٩) والأمر تسري في أرجح المطالب (٦٢). =

فالشاهد الأصيل الدائم القائم طول الزمن الرسالي ما طلعت الشمس وغربت هو القرآن، فإنه الثقل الأكبر والأطول والأتم والأعظم والأكمل، بمتواتر السنة.

ثم على ضوئه الإمام علي كرأس الزاوية من الأئمة الشهود حتى القائم المهدي عليه السلام فإنه يشهد له بما صنعه مثله وصنوه.

ولأن شاهد القرآن متفق عليه فلم ترد به رواية إلا لمحة، ثم شاهد الإمام المختلف فيه تواترت به الرواية، تلحيقاً له بما هو متفق عليه.

فهو عليه السلام شاهد صدق على هذه الرسالة السامية يتلوه صلى الله عليه وآله وسلم نسخة ثانية طبق الأصل، صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كمثله بأمر ربه، ولقد حق القول من جموع من غير المسلمين، لو لم يكن لرسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم برهان إلا علي لكفى برهاناً ساطعا قاطعاً على رسالته!.

= وما رواه زادان عن علي عليه السلام رواه جماعة منهم الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) والنيسابوري في تفسيره الكشف والبيان (مخطوط) والقندوزي في ينابيع المودة (٧٤) والجري في تنزيل الآيات (١٣) والحسكاني في شواهد التنزيل (١: - ٢٨١).

وما رواه الحارث عن علي عليه السلام رواه جماعة منهم الحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٢٧٧) وابن أبي الحديد في شرح النهج (١ : ٢٠٨).

وما رواه جابر عنه صلى الله عليه وآله وسلم روى عنه ابن حسنويه في در بحر المناقب (٨٥ مخطوط) والخازن في تفسيره (٣: ١٨٣) والحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) والحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٢٧٩) والترمذي في المناقب المرتضوية (١٢٠).

وما رواه ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم روى عنه جماعة منهم الثعلبي في الكشف والبيان (مخطوط) والحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٢٧٩) والحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) والجري في تنزيل الآيات (١٤) مخطوط والأمر تسري في أرجح المطالب (١٠٢).

وما رواه أبو ذر عنه صلى الله عليه وآله وسلم وممن رواه عنه شهاب الدين الهمداني في مودة القربى (٨٣).

وما رواه أبو الطفيل عن علي عليه السلام روى عنه الحسكاني في شواهد التنزيل (١ :٢٧٧).

وما رواه أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم رواه عنه الحسكاني في شواهد التنزيل (١ :٢٨٠).

وما رواه أبو جعفر عليه السلام رواه عنه ابن المغازي في مناقبه (مخطوط).

ومن الفارق بين الشاهدين، أن ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ في شاهد القرآن من التِّلو اللحوق، حيث يلحقه - كما عاشه - استمراراً لرسالته الصادقة المعصومة.

ثم ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ في شاهد الإمام تعني التلاوة المتابعة إضافة إلى التِّلو، حيث الإمام المتابع إياه، الآتي تلوه في حمل هذه الرسالة دون وحي، إنما هو نسخة ثانية رسولية بخط يد الرسول بما أذن الله.

وإذا كان علي عليه السلام - وهو صنيعه صلى الله عليه وآله وسلم - شاهداً منه على رسالته، فشهادته صلى الله عليه وآله وسلم نفسه على رسالته هي الأُولى والأَولى.

فقد كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم آية بينة من ربه، وهو على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، فهذه بينات أربع.

أم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هي البينة الرسالية، بينة من نفسه ومن القرآن، وهما صِنوان اثنان متحدان لا يختلفان، كما لا يتخلفان عن كونهما بينة رسالية موَّحدة.

فالقرآن هو اثنان هما محمد والقرآن، فمحمد هو القرآن والقرآن هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1] فـ «هو» هو الرسول ﴿ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يبين القرآن الكتاب بكتاب حياته الرسالية المستفادة من القرآن والسنة: أنا القرآن والسبع المثاني. وروح الروح بل روح المعاني.

وإذا كان سائر المرسلين هم شهود بأنفسهم على رسالاتهم وكما جاء في رسل المسيح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[2] فبأحرى لرسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون بنفسه شهيداً على رسالته نفسه، كيف لا؟ وربيُّه شاهد منه على رسالته!.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٢) سورة يس، الآية: ١٦.

وإذا كان الرسول ﷺ شاهداً لربه برسالته لمكان تربيته القمة الرسولية، فحري بعلي عليه السلام أن يكون شاهداً له ﷺ لمكان تربيته القمة الرسالية.

هنا ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ متأيّد في تفسيره بما تواتر عنه ﷺ من قوله: «علي مني وأنا من علي»[١] وقد قررته آية المباهلة قراره نفسه: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[٢]!.

وبياناً لهذه الولادة الروحية العلوية من محمد ﷺ ما يروى عن علي عليه السلام نفسه من قوله: «وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويُشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه وما وجد لي كَذِبة في قول، ولا خَطْلة في فعل، ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي كل يوم عَلَماً من أخلاقه، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه

---

(١) حديث صحيح رجاله كلهم ثقاة وممن أخرجه عنه ﷺ الإمام أحمد في مسنده ٤: ١٦٤ و١٦٥ بأسانيد أربعة والحافظ ابن ماجة القزويني في سننه ١: ٥٧ والترمذي في جامعه ١٢: ١٦٩ و٢: ٤٦٠ وفي صحيحه ٢: ٢١٣ والنسائي في الخصائص ص ٢٦ و٢٧ وابن المغازلي في المناقب بأسانيد عدة والبغوي في المصابيح ٢: ٢٧٥ والخطيب العمري في المشكاة ٥٥٦ والكنجي في الكفاية ٥٥٧ والنووي في تهذيب الأسماء واللغات ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ٣: ٧٤ عن الحافظ السلفي وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ وابن كثير في تاريخه والسخاوي في المقاصد الحسنة، والمناوي في كنوز الدقائق ٩٢ والحمويني في فرائد السمطين ب ٧ والسيوطي في الجامع الصغير وجمع الجوامع، وابن حجر في الصواعق ٧٣ والمتقي الهندي في كنز العمال عن (١١) حافظاً والبدخشاني في نزل الأبرار ٩ والفقيه شيخ بن العيدروس في العقد النبوي، والشبلنجي في نور الأبصار ٧٨ والصبان في الإسعاف هامش نور الأبصار ١٥٥ كلهم أخرجوه ورووه عن حبشي بن جنادة وعمران وأبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله ﷺ ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلَّا أنك لست بنبي ولكنك وزير وإنك لعلى خير»[١].

وهكذا: «لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رحم وعائدة كرم».

ولقد تلى علي عليه السلام رسول الله في الإيمان زمناً ومحتدا وكما قال ﷺ: «أولكم وارداً - ورداً - على الحوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب»[٢] «ولقد صلَّت الملائكة عليَّ وعلى عليٍّ سبع سنين لأنا كنا نصلي وليس معنا أحد يصلي غيرنا»[٣].

أجل: وإنه «أول من أسلم وصلى» كما تواتر في زهاء مائة حديث[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة لـ (عبده) الكلام ١٣٥ ص ٣١ عنه عليه السلام.

(٢) كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٣: ١٣٦ وصححه والخطيب البغدادي في تاريخه ٢: ٨١ وفي الاستيعاب ٢: ٤٥٧ وشرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٥٣ والسيرة الحلبية ١: ٢٨٥ وسيرة زيني دحلان ١: ١٨٨ ومناقب الفقيه ابن المغازلي ومناقب الخوارزمي.

(٣) مناقب الفقيه ابن المغازلي بإسنادين وأسد الغابة ٤: ١٨ ومناقب الخوارزمي وكتاب الفردوس للديلمي وشرح ابن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي ٣: ٢٥٨ وفرائد السمطين ب ٤٧.

(٤) ومن المروي عنهم عن رسول الله ﷺ: أنس بن مالك - بريدة الأسلمي - زيد بن أرقم - عبد الله بن عباس - عفيف - سلمان الفارسي - أبو رافع - أبو ذر الغفاري - المقداد بن عمرو الكندي - جابر بن عبد الله الأنصاري - أبو سعيد الخدري - حذيفة بن اليمان - عمر ابن الخطاب - عبد الله بن مسعود - أبو أيوب الأنصاري - أبو مرازم - هاشم بن عتبة - مالك ابن الحارث الأشتر - عدي بن حاتم - محمد بن الحنفية - طارق بن شهاب الأحمسي - عبد الله بن هاشم المرقال - عبد الله بن حجل - أبو عمرة بشير بن محصن - عبد الله بن خباب ابن الأرت - عبد الله بن بريدة - محمد بن أبي بكر - عمرو بن الحمق - سعيد بن قيس الهمداني - عبد الله بن أبي سفيان - خزيمة بن ثابت الأنصاري - كعب بن زهير - ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - الفضل بن أبي لهب - أبو الأسود الدؤلي - مالك بن عبادة الغافقي - جندب بن زهير - زفر بن يزيد - جرير بن عبد الله البجلي - عبد الله بن حكيم =

فهو الأول إسلاماً وصلاة معه ﷺ دون أبي بكر المدعي إيمانه به ﷺ قبل أن يولد علي ﷺ وذلك قبل الرسالة باثنتي عشرة سنة[1]!.

ويا كـ ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ من مشاهد ملتوية بين من يربِّبه ومن يلعنه سَباً له على المنابر[2].

= التميمي - عبد الرحمن بن حنبل - أبو عمرو عامر الشعبي - أبو سعيد الحسن البصري - الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ - قتادة بن دعامة الأكمه البصري - محمد ابن سلم المعروف ابن شهاب - أبو عبد الله محمد بن المنكدر - أبو حازم سلمة بن دينار - أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن المدني - أبو النضر محمد بن السائب الكلبي - محمد بن إسحاق - جنيد بن عبد الرحمن.

(١) كما رواه شبابة عن فرات بن سائب قال: قلت لميمون بن مهران: أبو بكر الصديق أول إيماناً بالنبي ﷺ أم علي بن أبي طالب ﷺ؟ قال: «لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرا الراهب واختلف فيما بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه وذلك كله قبل أن يولد علي بن أبي طالب»!.

(٢) في ملحقات إحقاق الحق (٣: ٤٠٧) فممن ذكر سبه ﷺ على المنابر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٧: ٥٧) بقوله: ثم اشتد الخطب فتنقصوه واتخذوا لعنه على المنابر سنة ووافقهم الخوارج على بغضه.. وكذا في ٧: ٦٠ من قوله: ووقع في رواية عامر بن سعد بن أبي وقاص عند مسلم والترمذي قال قال معاوية لسعد: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه، فذكر الحديث «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»، وابن الجوزي في تذكرة الخواص (١١٤) والحاكم النيسابوري في المستدرك (٣: ١٢١) أورد فيه حديثين عن أم سلمة حيث قال ما هذا لفظه بعد ذكر السند: دخلت على أم سلمة فقال لي: أيسب رسول الله ﷺ فيكم؟ فقلت: معاذ الله - أو - سبحانه الله! فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سب علياً سبني، قال: هذا حديث صحيح الإسناد، والحافظ الذهبي في ذيل المستدرك (٣: ١٢١) والسيد علوي الحداد في القول الفصل (٢: ٣٨٤) والهيثمي في الصواعق المحرقة (٧٢) قال: لما اشتد الخطب واشتغلت طائفة من بني أمية بتنقيصه وسبُّه على المنابر ووافقهم الخوارج لعنهم الله، والنيسابوري في صحيحه على ما في «التاج الجامع للأصول» (٣: ٣٢٩) قال عن سعد: أمرني معاوية أن أسب أبا تراب، والترمذي في صحيحه على ما في التاج (٣: ٣٢٩) وابن الأثير الجزري الموصلي في أسد الغابة (٤: ٢٥) وابن عبد البر في الاستيعاب (٢: ٤٥) والطبري في الرياض النضرة (٢: ١٨٨) وابن جرير الطبري في تاريخه الشهير (٢: ١٢٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١: ٣٥١). =

ولقد تناست الأمة شاهداً منه ﷺ وتحولوا إلى غير شاهد منه مما ابتليت به الأمة ساقطة في هوّات، وماقتة بما هو آتٍ وما يتأوه الإمام الشاهد على ما حصل قائلاً في شقشقيته: «أما والله لقد تقمَّصها ابن أبي قحافة، وإنه لَيعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طُخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهباً، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده، فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشدّ ما تشطَّرا ضرعيها، فصيَّرها في حوزة خشناء، يغلُظ كَلْمُها، ويَخشُن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خَرَم، وإن أسلس لها تقحَّم، فمُني الناس لعَمر الله بخبْط وشِماس، وتلوُّن واعتراض، فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة - حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتى صِرتُ أقرن إلى هذه النظائر، لكنني أسففت إذا أسفوا، وطِرت إذا طاروا، فصغى رجل منهم لِضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هَنٍ وهنٍ - إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله

= أو هكذا يؤذى ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] وقد تظافرت الرواية في نزول الآية فيه عليه السلام كما في ملحقات إحقاق الحق (٣: ٤١٧): وممن أوردها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٤: ٢٤٠) والبيضاوي في تفسيره (٤: ٤٧) ذكرا نزولها في المنافقين الذين يؤذون علياً عليه السلام وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٥) والترمذي في مناقب مرتضوي (٦٠) والخازن في تفسيره (٥: ٢٢٧) والبغوي في معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن، والواحدي في أسباب النزول (٢٧٣).

ومعتلَفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خَضْم الإبل نَبتة الربيع، إلى أن انتكث فَتلْه، وأجهز عليه عملهُ، وكَبَتْ به بِطنته - فما راعني إلَّا والناس كعُرف الضَّبْع إليَّ، ينثالون عليَّ من كل جانب، حتى لقد وُطئ الحسنان، وشُقَّ عِطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم - فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلى والله لقد سمعوها ووعَوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها - أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألَّا يقارُّوا على كِظَّة ظالم ولا سَغَب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخِرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنْزٍ...»[(١)].

«وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً وستُعقبون مني جثَّة خلاءً ساكنةً بعد حِراك، وصامتة بعد نطوق، ليعظكم هُدوِّي وخُفوت أطراقي وسكون أطرافي، فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ والقول المسموع، وداعي لكم وداع امرىءٍ مِرصَد للتلاقي، غداً ترون أيامي، ويُكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلوِّ مكاني، وقيام غيري مقامي»[(٢)] وقد يعني من غيره من يغايره في مقامه كمعاوية.

أجل، فهم أولاء المعصومون عليهم السلام من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «موضع

---

(١) قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عنه بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً فأقبل ينظر إليه، فلما فرغ من قراءته قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو اطَّردت خطبتك من حيث أفضيت، فقال: هيهات يا بن عباس، تلك شقشقة هدرت ثم قرت، قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام أن لا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

(٢) (الخطبة ١٤٩).

سرِّه، ولجأُ أمره، وعيبة علِمه، وموئِل حِكَمِه، وكهوف كُتبُه، وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه»(١).

ف «بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم العلياء، وبنا انفجرتم عن السَّرار، وُقِر سمعٌ لم يفقه الواعية، وكيف يراعي النبأة مَن أصمَّته الصيحة، رَبَط جنان لم يفارقه الخَفقَان، ما زلتُ أنتظر بكم عواقب الغَدْر، وأتوسَّمكم بحلية المغترِّين، سترني عنكم جلباب الدين، وبصَّرنيكم صدق النية، أقمت لكم على سُنن الحق في جوادِّ المضلَّة، حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون، اليوم أنطق لكم العَجْماء ذات البيان، غَرَب رأي امرئٍ تخلَّف عني، ما شككت في الحق مُذ أريتهُ، لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهال، ودِوَل الضلال، اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل، من وثِق بماءٍ لم يظمأ»(٢).

ذلك، وقد وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأوصاف منقطعة النظير إلَّا لهذا البشير النذير، وهي حسب ما حصلنا عليه زهاء ثلاثمائة وصفاً منضَّدة كالتالية حسب ترتيب حروف الهجاء - وقد خلفت أوصافه إياها كلها - رواها مئات من الرواة، وأخرجها جماهير وفيرة من مؤلفي إخواننا في قرابة ألفين من مؤلفاتهم أم تزيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٣).

ألف - إمام المتقين - أمير المؤمنين - أول من يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - أول من يصافح النبي يوم القيامة - أول من من صدق رسول الله - أول من

---

(١) (من الخطبة ٢).

(٢) (الخطبة ٤).

(٣) ملحقات إحقاق الحق (ج ٤ و٥) للمرجع الديني الكبير العلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله ففي (٤٤) صحيفة ذكر المؤلفين بمؤلفاتهم، وفي (٥٠٣) سرد الأحاديث المعنية بذلك، فتم مجلد واحد - ولله الحمد - اختصاصاً بالروايات التي تحمل هذه المواصفات.

وحد الله مع رسوله - الإمام على أمة رسول الله - إمام خلق الله - البرية - أبو ذرية رسول الله - أمين رسول الله على وحيه - أبو هذه الأمة - أفضل الوصيين - إمام الأتقياء - أبو الأئمة الطاهرين - أقدم الناس سلماً - أحب الأوصياء إلى الله - أعظم «أشرف» الناس حسباً - أكر الناس منصباً - أرحم الناس بالرعية - أعدل الناس بالسوية - إمام كل مؤمن ومؤمنة - الآخذ بسنة رسول الله ﷺ - أولى الناس بعد رسول الله - أول الناس «المؤمنين» إيماناً - أوفى الناس «المؤمنين» بعهد الله - أقوم الناس بعهد الله - أقسم الناس «المؤمنين» بالسوية، أرأف الناس «المؤمنين» بالرعية - أعدل الناس في الرعية - أمين الله على سره - أعظم الناس عند الله مزية - أول المسلمين «الأصحاب» إسلاماً - أقدم الأمة سلماً «إيماناً» - أكثر الأمة علماً - أعظم الأمة «أفضل الأمة» - أوفر الأمة حلماً «أحلم الناس» - أحسن الناس خلقاً - أعلم الأمة بالله - أول الناس ورداً على الحوض - آخر الناس عهداً برسول الله - أوّل الناس لقياً برسول الله - أشجع الناس قلباً - أسخى «أسمح الناس كفاً» - أصح الناس ديناً - أفضل الناس يقيناً - أكمل الناس حلماً - إمام أولياء الله - إمام من أطاع الله - أمين رسول الله في القيامة - أمين الله على أرضه - أعلم المؤمنين بأيام الله - أعظم المؤمنين رزية - أقوم الناس بأمر الله - الأوّاه - أفضل الناس منزلة - أقرب الناس قرابة - أعظم الناس غنًى - إمام المسلمين - أفضل الناس - «هذه الأمة» - أعلم الناس - الأمين في أهل الأرض - الأمين في أهل السماء - أكمل الأمة يقيناً - أبو السبطين - أبو الريحانتين - أسد الله في أرضه - أوّل من يدخل الجنة - أول من يقرع باب الجنة - أمير البررة - الأخشين «الأخشن» «المخشوشن» «الأخشى» في ذات الله - ألب الأمة - أمير آيات القرآن - إمام البررة - أحب الخلق إلى الله ورسوله - أحب الرجال إلى النبي - أقرب الناس من رسول الله - أجود الناس منزلة - أعظم الناس عند الله عناءً - أعظم الناس

على الله - أمين رسول الله - أقرب الناس إلى الحجة - أبو اليتامى والمساكين - أول من صدق رسول الله - أول من وحد الله - أبو العترة الطاهرة الهادية - أحكم الناس حكماً - ذلك وقد يفديه ﷺ بأبيه وأمه في مجالات عدة قائلاً له: «يا علي بأبي أنت - قم يفدي بك أبي وأمي - فالتزمه وقال بأبي وأمي - بأبي أبيكما وبأمي أمكما - بأبي أنتما وبأبي أبوكما وبأبي أمكما»[١].

وإنه «أخو النبي ﷺ بمختلف التعابير ومتواترة المجالات[٢].

وأنه «إمام أوليائي - إمام من أطاعني - إمام القوم - إمام كل مسلم وأمير كل مؤمن - إمام الأولين والآخرين، كما في متواترات أخرى[٣].

ب: باب رسول الله الذي يؤتى منه - باب الله - باب العلم - باب الحطة - باب الجنة - باب علم رسول الله - باب مدينة العلم - باب العلم - باب الحكمة - باب الفقه - باب علمي -

ت: التواب الأواب - على رأسه تاج من نور.

ر: راية الهدى - ركن الإيمان - رباني هذه الأمة - رفيق رسول الله في الجنة -

ث: ثقة رسول الله -

ج - جنب الله -

---

(١) تجده على الترتيب في ملحقات إحقاق الحق ج ٤: ٤٠ و٧: ٣٧٤ - ٧: ٣٩ و١٨: ٥٢٤ - ١١: ٤١ - ٩: ٢٠١ و٢٦٧ - ٩: ٢٦٧).

(٢) المصدر في ٤: ١٨، ٥٦، ٦٢، ٧٨، ٧٩، ٩٠، ٩٢، ٩٤، ٩٩، ١٠١، ١٣١، ١٧١، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٦، و٦: ١٥، ١٥١، ٤٦١، ٤٨٦، و٧: ٣٧١، ٣٧٦، و١٥: ٤٥٠، ٥١٧ و٢٠: ٢٢١، ٢٥٥.

(٣) تجدها على الترتيب في المصدر ٤: ١٦٦ - ١٧٠، ٣٦٢ و١٥: ٨٠ - ٨٧ و٢٠: ٢٧٢ - ٤: ١٦٧، ٤: ٢٨٤، ٥: ٥، ٤: ٣٦٢.

ح - حبيب الله - حبيب رسول الله - حبيب قلب رسول الله - حجة الله على بريته - حجة الله في أرضه بعد النبي - الحليم - حجة رسول الله - حجة النبي على أمته يوم القيامة - حامل راية رسول الله - حجة الله على الناس بعد رسول الله - حبل الله المتين -

خ - خاتم الوصيين - خليفة رسول الله - «في أمته من بعده» - خير من تركه رسول الله - خير من أخلفه رسول الله - خليفة الله في أرضه - خليفة الله على عباده - خاتم الأوصياء - خير الأوصياء - خير البشر - خير الناس - خير الرجال - خير هذه الأمة بعد نبيها - خير البرية - خير من طلعت عليه الشمس وغربت بعد النبي - خليل الله - خليل رسول الله - خدن رسول الله -

د: دافن رسول الله - الدال - ديان العرب - ديان هذه الأمة -

ذ: الذائد عن حوض رسول الله - الذاب عن ملة رسول الله - ذو قرني الجنة -

ر: راية الهدى - ركن الإيمان - رباني هذه الأمة - رفيق رسول الله في الجنة -

ز - زوج الأرامل.

س - سيد ولد آدم - سيد العرب - سيد في الدنيا والآخرة - سيد المؤمنين - سيد الأوصياء «الوصيين» سيف الله - سيف رسول الله - سيف الله على أعدائه - سيد الأوّلين والآخرين ما خلا النبيين - سيد الصديقين - سيد المسلمين - سيد الأولياء -

ش: شيخ المهاجرين - الشاهد - ص: الصديق الأكبر - صاحب رسول الله - صاحب لواء رسول الله في المحشر - صاحب حوض رسول الله - صفي رسول الله - صاحب راية رسول الله يوم القيامة - الصراط

المستقيم - صالح المؤمنين - صاحب رسول الله في المقام المحمود - صاحب سر رسول الله - صاحب لواء الحمد - صهر رسول الله - صاحب رسول الله في الجنة - الصديق -

ض: ضامن المستضعفين -

ط: الطريق الواضح - الطريق إلى الله - ظ: ظهر رسول الله وازره -

ع: عيبة علم رسول الله - عضد «عاضد» رسول الله - عمود الإسلام - العلم المرفوع لأهل الدنيا - عالم الناس - العابد - عبقري أصحاب رسول الله - العروة الوثقى - عين الله - علي مني مثل رأسي من بدني علي من النبي والنبي من علي[١] علي سيد العابدين[٢] - أنا وعلي أبوا هذه الأمة - علي باب الدين. - ومن خرج منه كان كافراً[٣].

غ: غاسل رسول الله -

ف: فاروق هذه الأمة - الفاروق بين الحق والباطل - الفتى -

ق: قائد الغر المحجلين - قاضي دين رسول الله - القائم بأمر الله - قاضي عداة رسول الله - قاصم عداة رسول الله - قاتل الناكثين - قبلة العارفين - قسيم الجنة والنار - قائد المسلمين إلى الجنة - قائد الأمة إلى الجنة - قائد المؤمنين إلى الجنة - قاتل الفجرة - قاتل الكفرة -

---

(١) يرويه حبشي بن جنادة، والرواة عنه تسعة وثلاثون من محدثي إخواننا، و٢ أبو ذر، ٣ وأبو رافع عنه عشرة و٤ جابر و٥ بريدة عنه خمسة عشر ٦ وعمران عنه إحدى وأربعون. و٧ زيد عنه ستة و٨ هبيرة عنه ثمانية و٩ حسن بن علي عنه ثلاثة و١٠ عمر بن الخطاب عنه ثلاثة و١١ البراء بن عازب عنه تسعة وعشرون و١٢ أم سلمة و١٣ ابن عباس (ملحقات إحقاق الحق ٥: ٢٧٤ - ٣١٧).

وفي (١٦: ١٣٧ - ١٦٧) استدراكات عما روي عن هؤلاء إضافة إلى حديث علي عليه السلام ورافع وأنس وأسامة، وقد رواه عنهم مئات من المحدثين والمصنفين.

(٢) المصدر ١٢: ٨٤ - ٨٦.

(٣) ٧: ١٤٥ و٢٠: ٣٧٠.

ك: كبير الناس - الكلمة التي ألزمها الله المتقين - كلمة التقوى -

ل: لحم رسول الله - لسان الله الصادق -

م: منجز وعد الله - موضع سر رسول الله - مولى البرية - مولى من كان رسول الله مولاه - المؤدي عن رسول الله - منار الإيمان - مفاتيح خزائن رحمة الله - مستودَع مواريث الأنبياء - مصباح الدجى - منار الهدى - المتقدم إلى كل شديدة وكريهة - المثل الأعلى - المهدي - المهتدي - المجتبى للإمامة - الملك في الآخرة - محيي سنة رسول الله - ممسوس في ذات الله - مقيم الحجة - مفرج الكرب عن وجه رسول الله - المخشوش في ذات الله - المبلغ من الله ورسوله - منزلة علي من النبي منزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعده وفيه ثلاثة وعشرون حديثاً - مختار الله مع النبي -

ن: نور جميع من أطاع الله - نور أولياء الله - النبأ العظيم - الناس من شجر شتى والنبي وعلي من شجرة واحدة -

و: ولي المتقين - وزير رسول الله - وصي رسول الله - وارث علم رسول الله - ولي المؤمنين «كل مؤمن» بعد رسول الله - وارث النبي - وارث علم النبيين - وزير رسول الله «في السماء والأرض - ولي الله - ولي رسول الله في الدنيا والآخرة - ولي المؤمنين بعد رسول الله - ولي كل مؤمن ومؤمنة «كل مسلم ومسلمة» - ملجأ كل ضعيف - مأمن كل خائف -

هـ: الهادي -

ي: يعسوب الدين - يعسوب المؤمنين - يعسوب المسلمين - يعسوب قريش - يد الله المبسوطة على عباده بالمغفرة والرحمة - هذا، وحق لذلك الشاهد منه، الجامع لمجاميع الصفات الحسنى أن يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني» كلمة تخصه بعد الرسول ﷺ كما يرويها عنه عليه السلام التسعة عشر

من محدثي إخواننا»[١] وقد يعترف بذلك مثل عمرو ومعاوية من قوله: لامرأته: ويلك ما تدرين ماذا ذهب من علمه وفضله وسوابقه»[٢].

وفي كلام آخر لمعاوية: «كان النبي ﷺ يغرُّ علياً بالعلم، أي: يلقمه إياه»[٣] فقد كان حقاً على الخليفة عمر أن يقول له يوم الغدير: «أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وكما يرويه عنه ستة وعشرون من محدثي إخواننا»[٤].

---

(١) كما في ملحقات إحقاق الحق (٥: ٦١٠ - ٦١٤) رواه جماعة من أعلام القوم في كتبهم ومنهم: ابن عبد البر في الاستيعاب (ج ١) قال: أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة ولا أحد من العلماء وابن أبي الحديد في شرح النهج (٢: ١٧٥) و(٣: ٢١٧) نقل كلام ابن عبد البر وقال: روى شيء أبو جعفر الاسكافي في كتاب نقض العثمانية عن علي بن الجعد عن ابن شبرمة والزرندي في نظم در السمطين (٩٦). قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر إلا علي بن أبي طالب روى قوله وزاد: في رواية: «لا يقولها إلا كذاب أو مجنون».

وابن عبد البر الأندلسي في جامع بيان العلم وفضله (٥٨) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٣٣٨) والخطيب الخوارزمي في المناقب (٥٤) والجزري في أسد الغابة (٤: ٢٢) والطبري في الرياض النضرة (٢: ١٩٨) وابن الجوزي في التذكرة وفي ذخائر العقبى (٨٣) وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة (٧٦) ومحمد خواجة البخاري في فصل الخطاب على ما في ينابيع المودة (٣٧٢) والسيوطي في تاريخ الخلفاء (٦٦) والمناوي في شرح الجامع الصغير (٢٤٧) والبدخشي في مفتاح النجا (٥٦) ومحمد بن طولون في الشذرات الذهبية (٥٠) والقندوزي في ينابيع المودة (٢٨٦) والأمر تسري في أرجح المطالب (١٠٧) والمغربي في فتح العلي (٤٠).

(٢) كما رواه عنه في المناقب (٢٧٢) لما جاء معاوية خبر وفاة علي عليه السلام وهو قائل مع امرأته في يوم صائف قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإذا فقدوا من العلم والفضل والخير، قالت له امرأته: تسترجع عليه اليوم؟ قال: ويلك..

(٣) رواه جماعة منهم ابن الأثير الجزري في النهاية (٣: ١٧٦) والمؤدب الهروي في الغريبين (٥٩٠) والمحدث الصديقي الفتني في مجمع بحار الأنوار (٣: ١٦) والأمر تسري في أرجح المطالب (١٠٧).

(٤) كما في ملحقات إحقاق الحق (٦: ٣٦١ - ٣٦٨) ممن رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٨: ٢٩٠) من قول عمر يوم الغدير لعلي عليه السلام: بخ بخٍ لك يا بن أبي طالب أصبحت =

أجل ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ لأن منزلته عليه السلام منه صلى الله عليه وآله وسلم هي منزلته صلى الله عليه وآله وسلم من الله كما يرويه الخليفة أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [١].

وهكذا يصبح «علامة النفاق بغض علي عليه السلام وكما يروى عنه في ثلاثة وأربعين مصدراً، ستة وعشرون عن أبي سعيد الخدري، واثنا عشر يروون عن جابر وخمسة عن أبي ذر»[٢] «إنا كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً عليه السلام».

وهكذا يجدر بالخليفة عمر أن يقول فيه عليه السلام: «لولا علي لهلك عمر»[٣]

= مولاي ومولى كلّ مسلم.. وابن المغازلي في المناقب والنيسابوري في فضائل الصحابة والثعلبي في تفسيره على ما في مناقب عبدالله الشافعي (١٠٤) مخطوط، والسمعاني النيسابوري في فضائل الصحابة (مخطوط) والبيهقي كما في كتاب محمد بن يوسف الشافعي (مخطوط) والخطيب الخوارزمي في المناقب (٩٣) والبيهقي في «الاعتقاد» (١٨٢) والطبري في ذخائر العقبى (٦٧) والحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) والزرندي في نظم درر السمطين (١٠٩) والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٦٥) والمقريزي في الخطط والآثار المقريزية (٢٣٠) وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة (٢٣) والسيوطي في الحاوي للفتاوى والكرخي في نفحات اللاهوت (٢٧) والصديقي في مجمع بحار الأنوار (٣: ٤٦٥) والسمهودي في وفاء الوفاء (٢: ١٧٣) والبدخشي في مفتاح النجا (٥٧) والدمشقي في ذخائر المواريث (١: ٥٧) والقندوزي في ينابيع المودة (٢٠٦) والدهلوي في تجهيز الجيش (١٣٥) والساعاتي في بدائع المنن (٢: ٥٠٣) وبهجت أفندي في تاريخ آل محمد (٨٥).

(١) المصدر (٢١٧ - ٢١٨) كما في ذخائر العقبى (٦٤) روي عن ابن عباس قال: جاء أبو بكر وعمر يزوران قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أن قال -: قال أبو بكر: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: علي مني بمنزلتي من ربي، أخر السمان في كتاب الموافقة، وقلندر الهندي في روض الأزهر (٩٧) مثله والأمر تسري في أرجح المطالب (٤٦٨) مثله.

(٢) المصدر (٧: ٢٣٧ - ٢٤٠).

(٣) في ملحقات إحقاق الحق (٨: ١٨٢ - ٢١٣) يذكره ابن قتيبة الدينوري في تأويل مختلف الحديث (٢٠٢) وابن مردويه في تظلم الزهراء (مخطوط) والبلخي على ما في التلخيص (١٧) والكركي في نفحات اللاهوت (٦٤) والسعدي الآبي في شرح أرجوزته (٢٩٤) مخطوط والقندوزي في ينابيع المودة (٧٠) والمغربي في فتح الملك العلي (٣٥) وبهجت أفندي في تاريخ آل محمد (١٣٥) وابن أبي الحديد في شرح النهج (٦) والقوشجي في شرح التجريد، وأحمد العجلي في ذخيرة الآمل، والفرغاني في شرح القصيدة التائبة لابن فارض، =

- «نعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن»[١] - «عجزت النساء أن يلدن بمثل علي»[٢] - «لولا علي لافتضحنا»[٣] - «يا بن أبي طالب ما زلت كاشف كل شبهة وموضح كل حكم»[٤] «اللّهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن إلى

= والتفتازاني في المطول على شرح تلخيص المفتاح (١٣٦) والعجلي في ذخيرة المآل والشامي الشافعي في مطالب السؤول، والخوارزمي في المناقب (٤٨) وسلطان المشايخ في الملفوظات والأمالي العرفانية.

(١) المصدر رواه جماعة منهم ابن عبد البر في الاستيعاب المطبوع بذيل الإصابة (٣: ٣٩) والدينوري في مختلف الحديث (٢٠٢) والهروي في الغريبين، وابن الجوزي في صفة الصفوة (١: ١٢١) وابن مردويه على ما في تظلم الزهراء، والگنجي في كفاية المطالب (٩٥) والجوزي في أسد الغابة (٤: ٢٢) وابن الجوزي في مختصر الغريبين، والطبري في ذخائر العقبى (٨٢) والحمويني في فرائد السمطين، والدمشقي في تاريخ الإسلام (٢: ١٩٩) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٣٣٩) والمالقي في فتح الأندلس (٢٣) وأبو ذرعة في طرح التثريب في شرح التقريب (١: ٨٦) والعسقلاني في تهذيب التهذيب (١: ٣٣٧) والهيثمي في الصواعق (٧٦) وپارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في ينابيع المودة (٣٧٣) والعسقلاني في الإصابة والسيوطي في تاريخ الخلفاء (٦٦ و١٧١) والفتني في مجمع بحار الأنوار (٢: ٣٩٦) والقندوزي في ينابيع المودة (٢١١) والمناوي في فيض القدير في شرح الجامع الصغير، والعجلي في ذخيرة المآل وابن قيّم في أعلام الموقعين (١: ١٥) والبدخشي في مفتاح النجاة والنبهاني في الشرف المؤبد (٥٩) والصبان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار، والشبلنجي في نور الأبصار (٧٤) والقلندر في روض الأزهر (٣٦٥) والمصري في طبقات المالكية (٢: ٧١) والمغربي في فتح العلي (٣٥) والمناوي في شرح الجامع الصغير (٢٤٧) والأمر تسري في أرجح المطالب (١٢١) وابن الصباغ في الفصول المهمة (١٧) والبلخي في التلخيص.

(٢) المصدر رواه جماعة منهم الخوارزمي في المناقب (٤٨) والشافعي في مطالب السؤول (١٣٠) وخواجه پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في ينابيع المودة (٣٧٣) والحمويني في فرائد السمطين والميبدي في شرح الديوان (١٨٣) والقندوزي في ينابيع المودة والأمر تسري في أرجح المطالب.

(٣) المصدر رواه جماعة منهم الزمخشري في ربيع الأبرار (٥٤٨) والأمر تسري في أرجح المطالب (١٢٢).

(٤) المصدر رواه جماعة منهم المتقي الهندي في كنز العمال (٥: ٤٩٧).

جنبي»[١] - «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»[٢] «اللَّهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب»[٣] و«لا أبقاني الله بعدك يا علي»[٤].

يقولها جلالة الخليفة عند المعضلات التي كان يحلها له علي عليه السلام!.

ذلك علي عليه السلام شاهد منه، ثم فاطمته الزهراء شاهدة منه كما تدل على محتدها آية التطهير والمباهلة وما أشبه، وبالتالي المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مواصفاتها العالية الغالية، ما تجعلها قرينة صالحة لعلي عليه السلام:

منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فاطمة سيدة نساء العالمين»[٥] «فاطمة أفضل النساء

---

(١) المصدر رواه جماعة منهم الطبري في ذخائر العقبى (٨٢) والحمويني في فرائد السمطين، والزرندي في نظم درر السمطين.

(٢) المصدر رواه جماعة منهم الحاكم النيسابوري في المستدرك (١ : ٤٥٧) والطبري في ذخائر العقبى (٨٢) والذهبي في تلخيص المستدرك المطبوع بذيله (١ : ٤٥٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (٥ : ٩٣) والإسحاقي في أخبار الأول (٣١).

(٣) المصدر رواه جماعة منهم الخطيب الخوارزمي في مقتل الحسين (٤٥) وفي المناقب (٥٨) والبلخي في التلخيص (١٦) والگنجي في كفاية الطالب (٧٢) والحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) والزرندي في نظم درر السمطين (١٣٢) وابن الصباغ في الفصول المهمة (١٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٥٧) وابن الجوزي في تذكرة الخواص (١٥٧) والشبلنجي في نور الأبصار (٧٢) والقندوزي في ينابيع المودة (٧٥).

(٤) المصدر رواه جماعة منهم الخطيب الخوارزمي في المناقب (٦٠) والطبري في ذخائر العقبى (٨٢) والحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) والآبي في شرح الأرجوزة، والمناوي في شرح الجامع الصغير (٢٤٨) وسبط ابن الجوزي في التذكرة (١٥٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (١ : ١٥٧) والأمر تسري في أرجح المطالب (١٢٢) والسمهودي في جواهر العقدين في فضل الشرفين والقسطلاني في توضيح الدلائل على ما في فلك النجاة (٤٠٩).
أقول: وهذه تصريحاته وعشرات أمثالها قالها في مختلف المآزق والتفصيل راجع إلى المصدر وأشباهه كالغدير والعبقات.

(٥) في ملحقات إحقاق الحق رواه جماعة من الأعلام منهم الطيالسي في المسند (١٩٦) عن عائشة قالت: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه الذي مات فيه ما يغادر منا واحدة إذ جاءت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فلما رآها قال: مرحباً بابنتي فأقعدها عن يمينه أو عن يساره ثم سارّها بشيء فبكت، فقلت لها أنا من بين نسائه: خصك =

من الأولين والآخرين» (٢) «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» (٣)، «فاطمة

= رسول الله ﷺ من بيننا بالسرار وأنت تبكين؟ ثم سارّها بشيءٍ فضحكت، قالت: فقلت لها: أقسمت عليك بحقي أو بما لي عليك من الحق لما أخبرتيني؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه، قالت: فلما توفي النبي ﷺ سألتها فقالت: أما الآن فنعم، أما بكائي فإن رسول الله ﷺ قال لي: إن جبرئيل عليه السلام كان يعرض علي القرآن كلّ عام مرة فعرضه عليّ العام مرتين ولا أرى إلا أجلي قد اقترب فبكيت، فقال لي: اتقي الله واصبري فإني أنا لك نعم السلف ثم قال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت» نقل مثلها عنها ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨: ٢٦) والنسائي في الخصائص (٣٤) والحاكم النيسابوري في المستدرك (٣: ١٥٦) والنبهاني البيروتي في جواهر البحار (١: ٣٦٠) وابن عبد البر الأندلسي في الاستيعاب (٢: ٧٥٠) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢: ٣٩) والموفق بن أحمد في مقتل الحسين والبغوي في مصابيح السنة والجزري في أسد الغابة (٥: ٥٢٢) والذهبي في تاريخ الإسلام (٢: ٩٤) والعسقلاني في الإصابة (٤: ٣٦٧) والسيوطي في الخصائص (٢: ٢٦٥) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣: ٩٥) وفي منتخب كنز العمال (٥: ٩٧) والنقشبندي الخالدي في صلح الإخوان (١١٦) ومسلم في صحيحه والهندي الحنفي في الروض الأزهر (١٠٣) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين والقندوزي في ينابيع المودة (٢٦٠) والبدخشي في مفتاح النجا (١٢).
ورووه عن عمران بن الحصين وجابر بن سمرة وابن عباس وأبي بريدة الأسلمي وأبي هريرة وأنس، ونرى هكذا الحديث الثاني والثالث والرابع.
المصدر رواه جماعة من الأعلام منهم الحاكم النيسابوري في المستدرك (٣: ١٥٣) عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ لفاطمة: إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك والطبراني في المعجم الكبير (١٤) والخطيب الخوارزمي في مقتل الحسين (٥١) واليافعي في التدوين (٣: ٤٢) وابن الأثير في أسد الغابة (٥: ٥٢٢) والطبري في ذخائر العقبى (٣٩) وابن الجوزي في التذكرة (٣٢٠) والگنجي في كفاية الطالب (٢١٩) والذهبي في ميزان الاعتدال (٢: ٧٢) والسمهودي في نظم درر السمطين (١٧٧) والعسقلاني في الإصابة (١٧٧) والسيوطي في الخصائص (٢: ٢٦٥) وفي الثغور الباسمة (١٥) والدمشقي في أخبار الدول (٨٧) - والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣) والدشتكي في روضة الأحباب (٦٦٥) والمناوي في كنوز الحقائق (٣٢) والشافعي في المناقب (٢٠٧) والعسقلاني في تهذيب التهذيب (١٢: ٤٤١) والنقشبندي في صلح الإخوان (١٣٤) والقندوزي في ينابيع المودة (١٧٣ و١٩٨) والبدخشي في مفتاح النجا (١٠١) والصبان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (١٩) والحضرمي في رشفة الصادي (٦١) والنبهاني في الشرف المؤيد (٥٣).
وهكذا نجد الأحاديث (٦ - ٢٦) متواترة بشأنها وللاطلاع المفصل يراجع المصدر.

سيدة نساء هذه الأمة» (٤)، «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها» (٥)، «نزل جبرئيل لإبلاغ سلام الله إلى فاطمة» (٦)، «إشراق الجنان من نور ضحك فاطمة وعلي عليهما السلام» (٧)، «أول من يدخل الجنة فاطمة» (٨)، «تبعث فاطمة يوم القيامة أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» (٩) «تحشر فاطمة متعلقة بقائمة العرش وتطلب بثأر ولدها» (١٠) «فاطمة أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم» (١١) «فاطمة أحب وعلي أعز» (١٢) «هي روحي التي بين جنبي» (١٣) «منوط لحمها بدمي ولحمي» (١٤) «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما ينصبها» (١٥) «فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها» (١٦) «فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها» (١٧) «فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها» (١٨) «فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني» (١٩) «فاطمة بضعة مني وهي قلبي وروحي التي بين جنبي» (٢٠) «من أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخطها فقد أسخطني» (٢١) «فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها» (٢٢) «فاطمة بضعة منى يسوؤني ما ساءها» (٢٣)، «فاطمة بضعة مني يسعفني ما يسعفها» (٢٤) و«إنها كانت أشبه الناس وجهاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» (٢٥) «كانت مشية فاطمة مشية رسول الله» (٢٦).

هذه شطر من ميّزات الصديقة الطاهرة عليها السلام أنها - ككل - خير نساء العالمين من الأولين والآخرين، وأخيراً هي «أعظم نساء المسلمين رزية»[1].

ذلك، ولقد نجد ذكر علي عليه السلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مروياً في زهاء ألفين من مؤلفات إخواننا قرابة ثلاثمائة مرة توازي الثلاثمائة السالفة من

(١) رواه جماعة من الأعلام كالعسقلاني في فتح الباري (٨: ١١١) عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة: إن جبرئيل أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المسلمين أعظم رزية منك فلا تكوني أدنى امرأة منهن صبراً» ورواه مثله النبهاني في الأنوار المحمدية (٥٨٢) والقندوزي في ينابيع المودة (١٩٨) والهيتمي في مجمع الزوائد (٩: ٢٣).

مواصفاته، وإليكم سرداً منها اختصاراً بحذف عناوينها المسرودة في ملحقات إحقاق الحق:

«أنا وعلي أبوا هذه الأمة - علي أبو تراب - علي أمير المؤمنين - علي إمام الأولياء - علي أول من آمن - علي أول من أسلم - علي أوّل شافع - علي أول من صدق رسول الله ﷺ - علي أول من صلى - علي أوّل من يصافحني - علي أول من يرد علي الحوض - علي أول من يلقاني - علي أول من وحد الله - علي أول من يقرع باب الجنة - علي أول من تنشق عنه الأرض بعد رسول الله ﷺ - نعم الأخ أخوك علي - علي أخي في الدنيا والآخرة - علي أسد الله - علي أصلي وجعفر فرعي - علي إمام الغر المحجلين - علي إمام البررة - علي إمام المتقين - علي إمام المسلمين - علي إمام الخلق - علي أميني على مفاتيح. . - علي باب الله الذي لا يؤتى إلا منه - علي أبصرهم بالقضية - علي حجة الله - علي مقيم الحجة - علي أعظمهم حلماً - علي أوفرهم حلماً - علي أحلم الناس حلماً - علي باب علمي - علي باب الدين. .

ومن خرج منه كان كافراً - أنا مدينة الجنة وعلي بابها - أنا مدينة الحكمة وعلي بابها - أنا دار الحكمة وعلي بابها - أنا مدينة العلم وعلي بابها - أنا دار العلم وعلي بابها - أنا مدينة الفقه وعلي بابها - علي باب حطة من دخله كان مؤمناً ومن خرج عنه كان كافراً - إن الله عزّ وجلّ يباهي بعلي - ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين - لمبارزة علي يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي - لعلي من الثواب ما لو قسم على أهل الأرض لوسعهم - حب علي حب الله - علي أحب الخلق - أحب الأعمال حب علي - ما ثبت حب علي في قلب مؤمن إلا ثبت الله قدمه - أول ثلمة في الإسلام مخالفة علي - حب علي عبادة - من أحب علياً أعطاه الله بكل عرق في بدنه مدينة في الجنة - قل لمن أحب علياً أن يتهيأ لدخول الجنة -

أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لعلي - إنه يترحم على محبي علي كما يترحم على الأنبياء - من أحب علياً أحبني. من أبغض علياً أبغضني - يا محمد إن الله يأمرك أن تحب علياً وتحب من يحب علياً - حب علي إيمان - حب علي براءة من النفاق - حب علي يأكل الذنوب - لو اجتمع الناس على حب علي لما خلق الله النار - أمر رسول الله ﷺ أن يمتنحوا أولادهم بحب علي - أحبوا علياً بحبي وأكرموه بكرامتي - إن الله يحب علياً ما لا يحب الملائكة ولا النبيين ولا المرسلين - عنوان صحيفة المؤمن حب علي - حب علي حسنة لا تضر معها السيئة - لن يقبل الله فرضاً إلا بحب علي - جناح هذه الأمة علي - علي خاتم الأوصياء - علي حبيب الله - حب علي جواز على الصراط وبراءَة من النار - السعيد كل السعيد من أحب علياً - إن علياً وحزبه هم المفلحون - علي حبل الله - إن حافظي علي ليفخران على سائر الملائكة - حق علي كحق الوالد - اللَّهم بحق علي اغفر للخاطئين من أمتي - يا رب بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين. . - إن لعلي حقاً لا يعلمه إلّا الله وأنا - قسمت الحكمة عشرة أجزاء. . وتسعة لعلي - من خرج على علي فهو كافر - علي خير أمتي - علي خير أهلي - علي خير إخوتي - علي خير البشر - علي خير البرية - علي خير الأمة - علي خير الخلف - علي خير الخلق - علي خير من طلعت عليه الشمس وغربت بعدي - علي خير الرجال - علي خير الناس - علي خير الأوصياء - شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفرعها على أهل الجنة - علي ديان هذه الأمة - علي وذريته يختمون الأوصياء إلى يوم الدين - علي إمام أمتي - علي حجتي على أمتي - علي إمام أوليائي - علي أعلم الناس بالله - علي عبقري أصحاب رسول الله ﷺ - عادى الله من عادى علياً - علي عمود الإسلام - علي عيبة علمي - علي مفرج كربتي - علي أسخاهم كفاً - سمّي علياً لأنه لم يسمّ أحد قبله باسمه - علي سيد الصادقين - علي سيد العابدين -

علي سيد الصديقين - علي سيد المؤمنين - علي رباني هذه الأمة - علي راية الهدى - علي رفيقي - علي ركن الإيمان - علي سيد الأولين والآخرين - علي سيد ولد آدم - لا فتى إلا علي - علي أشجع الناس قلباً - علي صاحب سري - علي عوني على مفاتيح الجنة - أنا وعلي من شجرة واحدة - علي مصباح الدجى - علي الصديق الأكبر - علي صفوة الله - علي أعلم الأمة بعدي - علي أعظم الناس منزلة - علي أعظم الناس عند الله مزية - علي أعظم الناس عند الله غناءً - علي أقوم الناس بأمر الله - علي أقسم الناس بالسوية - علي أكرم الناس أخاً - علي أكرم الناس درجة - علي أكرم الناس نفساً - علي أكرم الناس يقيناً - علي نظيري - علي منار الإيمان - علي نفسي - علي مستودع مواريث الأنبياء - علي وارثي - علي وزيري - علي وصيي - علي ولي الله - علي ولي كل مؤمن - تمام دين الله ولاية علي بعدي - علي مدينة هدى فمن دخلها نجى ومن تخلف عنها هلك - علي غاية الهدى - علي يعسوب الدين[(١)] -.

ذلك، وما أحسنه قول الرسول ﷺ في حقه: «لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة»[(٢)] وقوله ﷺ: «علي مني وأنا منه»[(٣)] و«علي مني بمنزلتي من ربي»[(٤)] و«علي وارثي»[(٥)]. . . . .

(١) ملحقات إحقاق الحق البالغ إلى ثلاثين مجلداً ضخمة، وقد طبع منها حتى الآن واحد وعشرون مجلداً، كلها تعني بيان منزلة الإمام علي عليه السلام في لسان الرسول ﷺ المذكورة في قرابة ألفين من مؤلفات إخواننا السنة، وهذا شطر قليل من الكثير الغزير.

(٢) ملحقات إحقاق الحق ٧: ٣٧٧ و١٥: ٥٨، ١٩١، ١٢٨ و٢٠: ٤٤٧ و٤: ١١٨.

(٣) المصدر ٤: ٣٧، ٢١٠ و٥: ٢٧٤، ٣١٧ و٦: ٤١٦، ٤٤٧، ٥٨٦، ٤٤٨ و١٦: ١٣٦، ١٦٧ و١٥: ٩٤ - ٩٨، ١٠٣ - ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨ - ١٠٩، ١١١، ١١٥ و٢٠: ٤١١ و٢١: ١٢٢ - ١٤٩.

(٤) المصدر ٧: ٢١٧ - ٢١٨ و١٧: ١٩٤ - ١٩٥.

(٥) المصدر ٤: ٦٩، ٧١ - ٧٥، ٧٩، ٩٩، ١٠٠، ١٦٠، ١٧٢، ١٧٨، ٢٢٨، ٢٧٧، ٣٥٧ و٥: ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٠، ٢٧٧، ٣٥٧ و١٥: ١٩١ - ١٩٥، و٧: ٤١٤ و٢٠، ٤٤٥ - ٤٤٦.

و«علي وزيري»[١] «يا أبا بكر هذا الذي تراه وزيري في السماء ووزيري في الأرض»[٢].

و«علي وصيي»[٣] «خاتم الوصيين - خاتم الأوصياء - وصي الله - خير الأوصياء - سيد الوصيين - سيد الأوصياء - أفضل الأوصياء -...[٤]. -

وقد جاءت ﴿بَيِّنَةٍ﴾ في القرآن لمصاديق عدة أصدقها القرآن: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٥] ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ...﴾[٦] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟... فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ...﴾[٧] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾[٨].

فقد «بعث الله محمداً ﷺ بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه، وليُقروا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلّى

---

(١) المصدر ٤ : ٢٧، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٦٩، ٧٩، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٧٨، ٢٨٥، ٣٢٦، ٣٣٧، و٥ : ٣٥، ٣٧، ٤١ - ٤٢، ٢٩٧ و٧: ٣٧٦ و١٥ : ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٥٤، و٢٠: ٢٦٢، ٥٤٠ - ٥٤١.

(٢) المصدر ٤ : ٢٧٨.

(٣) ملحقات إحقاق الحق ٤ : ١٩، ٦١ - ٦٢، ٧١، ٨٢، ٧١، ٨٥، ٩٩، ١٠٤، ١١٢، ١٦٠، ١٧٠، ١٩٢، ٢٢٧، ٢٨٥، ٢٩٧، ٣٢٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٠، ٣٨٥، و١٥ : ١٢٩ - ١٧٣، ٢٠٨ و٢٠: ٢٣٠، ٣٨٠ - ٣٨٣، ٤١١، ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٤) وكل من هذه الصيغ وارد عنه ﷺ بصورة متواترة، راجع فهرس ملحقات إحقاق الحق ٥٧٨ - ٥٨٢.

(٥) سورة طه، الآية: ١٣٣.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

(٧) سورة الأنعام، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٨) سورة محمد، الآيتان: ١٣، ١٤.

لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، وخوَّفهم من سطوته، وكيف مَحَق مَن محق بالمثُلات، واحتصد من احتصد بالنقمات»[(١)].

وقد عبر عن آيات القرآن بالبينات في عشرات من الآيات، مما يقرر أن القرآن هو أفضل البينات الربانية وأبينها، وهنا «من ربه» دون «الله» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» لمحة لامعة أن القرآن يحمل كافة البينات الربانية التي بالإمكان أن تنزل على الخلق.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وتراه إماماً على القرآن ورحمة على رسول القرآن ومحمد ﷺ هو إمام الأئمة الرسولية والرسالية على مدار الزمن، وقرآنه هو المهيمن على الكتابات الرسالية على مدار الزمن.

فحين يقال فلان إمام، يعني على أمته، فكتاب موسى إمام على أمة موسى عليه السلام ورحمة لهم، ومن رحمته ما فيه من بشارات بحق محمد ﷺ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ... وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾[(٢)].

ثم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعم المشركين إلى الكتابين، بل والأصل هنا هم الكتابيون لمكان ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ فليس شديد التنديد هنا إلَّا بهم، فهل التوراة بعدُ إمام للقرآن؟ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾! وليس الكفر بالمأموم الفرع بعد الإيمان بالإمام الأصل مما تُستحق به النار!.

فالأحزاب الدينية بمختلف مبادئها، والأحزاب الإلحادية والشركية على

---

(١) (الخطبة ١٤٧).

(٢) سورة الأحقاف، الآيات: ١٠-١٢.

اختلافها ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ منهم «به» - وهو عشير بينات ثلاث وحشيرها - فالنار موعده فلا تك في مرية منه: القرآن ورسالتك به، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ كله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مهما كان سائر الوحي أيضاً حقاً، ولكن أين حق يُنسخ حيث يتلوه حق آخر، ثم ويحرف، وهو شطر من الحق، أين هو من ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يُنسخ ولا يحرَّف وهو خالد إلى يوم الدين، جامعاً حق الوحي السالف كله وفيه مزيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المتين المبين مقصرين أو قاصرين.

ولا يعني نهيه ﷺ عن ريبة منه أنه ارتاب، كيف و«هو على بينة من ربه» وإنما هو تسلية له ﷺ وتسرية عما قد يخالج نفسه المقدسة من أعباء الرسالة أمام المكذبين، ثم وهو من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة».

ذلك، فلا مجال لتخيلات حداد الواهية، وتقولاته الساهية: أن هذه الآية تقرر إمامة التوراة للقرآن[١] وأنه نسخة عربية للتوراة، رغم أن هذه الآية ونظيرتها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾[٢] رغم أنهما تنديدان اثنان بالذين يكفرون بالقرآن ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ لهم ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ يدل في بشارات على صدق هذا القرآن ونبيه.

ثم الضمير في ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ لا يرجع إلا إلى المذكور قبله فيهما وهو الرسول ﷺ، فقد كان على بينة من ربه إذ جاء ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ قبل أن يأتي ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ بينةٌ سابقة على صدقه ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ للذين هم به يؤمنون،

---

(١) يقول الحداد في كتابه «القرآن والكتاب» عشرات المرات.

(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ١١، ١٢.

فقضية الإيمان بالتوراة الذي هو لهم إمام الائتمام بها في تصديق هذا الرسول ﷺ بقرآنه المبين وتبيانه المتين.

فهو محفوف في هندسة هذه الرسالة الأخيرة بمثلث من البينات حالياً وماضياً ومستقبلاً، فهل أنتم بعد هذه البينات ممّن ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؟ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ كمثل الحداد في دعاياته المتكررة في كتاباته أن: «التوراة إمام القرآن.. وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس...».

ذلك، وبالرغم من آيات بينات تقرر الرسول إماماً على كافة النبيين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

وأنه شهيد الشهداء يوم يقوم الأشهاد: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وأن دينه ظاهر على الدين كله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾[3].

ثم القرآن يعرِّف نفسه بالهيمنة الطليقة على سائر كتابات الوحي:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الفتح، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. . .﴾[١].

وبأنه مبشر به في زبر الأولين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)﴾[٢].

هذه وعشرات أمثالها. الصريحة في استقلال وحي القرآن، دونما استغلال سائر الوحي فيه، وأنه برسوله يفوق كل وحي وموحى إليه.

ذلك، والقرآن يشهد بنفسه أنه أرقى بكثير من سائر كتابات السماء الأصيلة، فضلاً عن التحريفات والتناقضات الكثيرة التي تسربت إليها بأيدي التحريف والتجديف، لحد وصلوها إلى مليون غلطاً[٣].

ذلك، فقد ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ منذ كان فطيماً حتى ابتعث، وإلى أن ارتحل إلى جوار رحمة ربه، بمثلث من البينات، رأس زاويتها القرآن، والأخريان نفسيته قبل الرسالة وبعدها.

ثم ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ في زاويتين، صغراها الإمام علي عليه السلام ما عاش زمنه وبعده، وكبراها القرآن حيث ظل شاهداً من الله لرسالته الخالدة.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٤٧، ٤٨.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢-١٩٧.

(٣) يقول «ياركز» في ج ٥ من تفسيره، إن في التوراة والإنجيل ثلاثين ألف غلطاً، والقسيس ميل أوصلها إلى نيف ومائة ألف غلط وكما يقول كريسباج، ويقول «شولز» إنها لا تحصى، وفي دائرة المعارف البريطانية والفرنسية أنها زهاء مليون غلطاً، وقد اعترف بهذه الأغلاط والاختلافات علماء مثل: اكهارن - كيسر - هيس - ديوت - ويز - فرش (راجع كتابنا) المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية تجد فيه قولاً فصلاً بهذا الصدد.

«ومن قبل» من قبله كتاب موسى «كأصل» إماماً ورحمة، وكفرع كتاب عيسى وسائر كتابات الوحي.

إذاً فضمير الغائب في «منه» قد يرجع إلى الله فقط وهو في شاهد القرآن فإنه ليس إلا من الله، أم إلى الله كأصل وإليه كفرع، وهو في شاهد الإمام علي عليه السلام والأئمة من ولده المعصومين، فطالما الثقل الأكبر مستمر بنفسه، فالأصغر هو مستمر بصنيعه الذي هو كنفسه.

فقد انحصر ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ في القرآن وعلي، وانحسر عن جبرئيل ومن أشبه، والشاهدان هما المعنيان من ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ حيث يُعنى منه جنس الشاهد، وقد يلمح الإفراد إلى أصل ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو القرآن، وآيات شهادة الله في قرآنه تشهد لعناية شاهد القرآن من ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ فليس تفسير ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ بالإمام علي عليه السلام إلا تبنياً لمصداق ثان هو تجسيد للشاهد الأول، كما وأن الرسول بينة من ربه كما القرآن لأنه هو القرآن!.

وإنما تأتي متواتر الروايات شاهدة على أن علياً عليه السلام هو ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ دون القرآن، حيث الشهادة القرآنية ثابتة متفق عليها، فهنا تعني الروايات إلحاق مصداق مختلف فيه بمصداق متفق عليه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ رسولياً أو رسالياً، أن ينسب إليه تعالى رسالة أو وحياً أو حكماً بفرية، وأظلمهم هو الجامع بين هذه الثلاث، فرية على الله كذباً في ذلك المثلث، وهو مأخوذ بأخذة ربانية قاسية قاضية في الأولى والآخرة، فهنا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1] قضيةَ واجب الحفاظ على السفارة الربانية، وهناك

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ...﴾ وقد ينادى فيهما ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بحق الحق وبحق الخلق وبحق أنفسهم، فهم في ثالوث منحوس من الظلم وما أظلمه.

و﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ هنا هم شهداء الأعمال بما أشهدهم الله عليها، وأشهدُهُم هو إمامهم محمد ﷺ: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[١].

ثم والأمة من عترته عليهم السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[٢] - ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ... مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ...﴾[٣] والمجتبون الرساليون من ذرية إبراهيم هم المعصومون من عترة محمد ﷺ[٤].

ولأن ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هنا عامة طليقة فهل تشمل كافة الظالمين وإن كانت دركات اللعنة عليهم حسب دركاتهم في الظلم، كما أن درجات الرحمة حسب الدرجات في العدل؟.

كلا! فإن كل ظلم لا يخلِّف لعنة من الله، واللعنات القرآنية على الظالمين مختصة حسب القرائن بأهل النار منهم، وهنا الآية التالية تختصها بهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾:

﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ رسولياً ورسالياً وكتاباً ودعوة ودعاية وأية سبيل

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٤) نور الثقلين ٢: ٣٤٧ في المناقب لابن شهر آشوب عن الباقر عليه السلام في الآية قال: نحن الأشهاد.

من سبل الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ طلباً لاعوجاجها عن الله إلى الشيطان، فقد يبغون سبيل الله نفسها عوجاً أن يصوروها بصورة الباطل فيخيَّل إلى الجاهل أنه باطل، وأخرى يبغون السبيل كلها عوجاً، فضمير التأنيث راجع إلى سبيل الله في الأول، وإلى سبيل - فقط - في الثاني، ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ كأن ليس هناك كافر بالآخرة إلَّا إياهم، حيث الصادُّ عن سبيل الله وهو يبغيها عوجاً بين منكر لله، أم - لأقل تقدير - منكر بالآخرة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ﴿لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ اللهَ ورسلَ الله والمؤمنين بالله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مهما أرعدوا وأبرقوا ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يوالونهم في صدهم، ثم و﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قدر ما يضاعفون في صدهم عن سبيل الله، خروجاً لهم عنها وإخراجاً منها للسالكين فيها، وهم ﴿مَا كَانُوا۟﴾ يوم الدنيا ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ للحق إذ صمّوا عنه حتى صمّتَ آذان قلوبهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ الحق إذ تعاموا عنها ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾[(١)] و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[(٢)] فقد ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[(٣)] فأعميناهم بما عموا وصممناهم بما صموا.

وترى لماذا هنا الاختصاص بالأرض في سلبية الإعجاز؟ لأن العاجز من الإعجاز في الأرض التي يعيشها هو أعجز من الإعجاز في السماء: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[(٤)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧١.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٣.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٢.

ثم ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ قد تعني «ما» فيهما كلا النافية والموصولة أو الموصوفة، فقد يضاعف لهم العذاب لكونهم مستطيعي السمع والإبصار وهم لا يسمعون أو يبصرون، تركاً للتكليف المستطاع، كما ويضاعف لهم العذاب إذ تركوا السمع والأبصار لحد بطل سمعهم وإبصارهم بما تركوا و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[1] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[2] وقد يُعنى ثالث هو نفي استطاعة السمع والإبصار عن أوليائهم من دون الله، وأحسن الوجوه هو الجمع بين الجميع جمعاً بين صالحة المعاني.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[3] فقد ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حين خسروا سمعهم وأبصارهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ضلالاً يوم القيامة حيث يواجهون شركاءهم وهم لهم منكرون، فـ«لا جرم» دونما إفلات أو إلفات ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ فـــ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[4] - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾[5].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الملك، الآيتان: ١٠، ١١.
(٤) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.
(٥) سورة النمل، الآيتان: ٤، ٥.

الخبْت هو المطمئن من الأرض، فالإخبات هو قصده فـ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ تعني الاطمئنان بكامل التذلل لله بكل الطاقات، فكما أن إخبات البعير هو ضرب أنفه على الأرض، كذلك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لله، هم المخبتون إلى ربهم، ضار بين أنوفهم على أرض الذل، خروجاً عن كل كبر واستكبار إلى كامل الذل والصغار.

ذلك، فلا إخبات لهم في الحياة إلَّا إلى ربهم، فلربهم يُخبتون وإلى ربهم يطمئنون، حيث هم ذاكرون الله كثيراً بقالهم وحالهم وأعمالهم فهم مطمئنون في زعزعزة الحياة، فآمنون من بأساء وضرَّاء الممات إلى سرّاء الحياة بذكر الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١].

فالذين يعيشون مثلث الإيمان وعمل الإيمان والإخبات إلى الرحيم الرحمن هم من أصحاب الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

والإخبات هو التسليم[٢] بعد سليم الإيمان وعمل الإيمان، التسليم الطليق لله دون سواه، ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[٣] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

أجل فالمخبتون إلى ربهم هم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٤٧ عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: إن عندنا رجلاً يقال له كليب فلا يجيء عنكم شيءٌ إلا قال: أنا أسلم، فسميناه كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثم قال: أتدرون ما التسليم؟ فسكتنا، فقال: هو والله إلا خبات قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ...﴾ [هود: ٢٣].

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٤.

ٱللَّهِ﴾[١] «وإن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون، فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفزعوا لمحاسبة أنفهسم عن كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصّروا عنها، أو نهوا عنها ففرّطوا فيها، وحمّلوا ثقل أوزارهم ظهورَهم، فضعفُوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجاً، وتجاوبوا نحيباً، يعِجُّون إلى ربهم من مقام نَدَمٍ واعتراف، لرأيت أعلام هدًى، ومصابيح دجًى، قد حُفَّت بهم الملائكةُ، وتنزلت عليهم السكينة، وفُتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مَعَقد اطّلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم، وحمِد مقامهم، يتنسّمون بدعائه رَوح التجاوز، رهائن فاقة إلى فضله، وأُسارى ذِلة لعظمته، جَرَح طول الأسى قلوبَهم، وطولُ البكاءِ عيونَهم، لكل بابِ رغبةٍ إلى الله منهم يد قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح، ولا يخيب عليه الراغبون، فحاسب نفسك بنفسك فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك» (٢٢٠).

ذلك، ومن قضايا الإخبات إلى الرب ألا تحب الإطراء لنفسك، فحين يسمع إمام المتقين وأمير المؤمنين عليه السلام من يكثر الثناء عليه ذاكراً سمعه له وطاعته يقول عليه السلام: «إن من حق من عظُم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن تصغر عنده لعظُم ذلك كل ما سواه، وإن من أحق مَن كان كذلك

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

لِمَن عظُمت نعمة الله عليه، ولطُف إحسانه إليه، فإنه لم تعظُم نعمة الله على أحد إلَّا ازداد حق الله عليه عِظَماً - وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يُظن بهم حبُّ الفخر، ويوضَع أمرهم على الكِبر، وقد كرهت أن يكون جالَ في ظنكم أني أحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظَمة والكبرياء، وربما استحلى الناس الثناءَ بعد البلاءِ، فلا تثنوا علي بجميل ثناءٍ لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من البقية في حقوق لم أفرُغ من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها - فلا تُكلموني بما تُكلَّم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يُتحفَّظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يُعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفُّوا عن مقالة بحق، أو مشورَة بعدل، فإني لست في نفسي بفوقِ أن أخطئ، ولا آمن من فعلي، إلّا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صَلَحنا عليه، فأبدلَنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العَمى»[1].

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

صورة حسية تتجسم فيها مثل الفريقين: فريق الكفر والإيمان، فالأول كالأعمى والأصم حيث لا يستطيع الإبصار والسمع امتناعاً باختيار، والثاني كالبصير والسميع حيث يستطيعهما إمكاناً باختيار فيسمع ويبصر.

---

(١) (من الخطبة ٢٠٧).

فالسمع والبصر إنسانياً هما أدوات موصلة إلى العقل والقلب، فالذين يصدون عن أبصارهم وسمعهم آيات الله الآفاقية، هم يصبحون في أنفسهم صُمّاً عَمين، وهكذا يحشرون يوم القيامة كما حشروا الحياة الدنيا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾[1].

ذلك، وإن طول هذه الحملة المذكرة القارعة على الصُّمِّ العُمي، وتنوع الإشارات والتصريحات واللفتات والإيقاعات، إن هذا كله يوحي بما كانت تواجهه القلة المؤمنة، أمام الثلة الكافرة، في تلك الفترة الفتيرة من تاريخ الدعوات الرسالية، فتصوِّر لنا حاجة الموقف إلى حركة في معركة إيجابية، تقرر لكتلة الإيمان قراراً حاسماً جاسماً أمام كافة العرقلات بمختلف ألوانها.

فقد لا يتذوَّق هذا القرآن إلَّا من يخوض أمثال هذه المعارك، دون القاعدين الذين يدرسونه بمختلف الدراسات، إذ لا يملكون وجداناً صالحاً من حق القرآن وحقيقته في تلك القعدة الباردة.

فلا بد من خوض المعارك الواقعية حين نخوض متأملين في آي الذكر الحكيم، تجاوباً بين الحركة الدراسية والواقعية، تطبيقاً لهذا القرآن في الواقع المُعاش، دون انعزالية عن الواقعيات إلى تصورات مهما كانت صالحة، فإن ميدان الدعوة القرآنية ميدان نضال في معترك الحياة، دون إخلاد - فقط - إلى تصورات وتخيلات، ولا سيما التي لا واقع لها.



(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا

نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ
فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا
وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ
وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ
﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ
وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ
فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن
مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ
أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا
فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

خمس وعشرون آية تتحدث عن قصة نوح عليه السلام مع قومه بقول فصل لا يقل عن سورة نوح نفسه إلّا بثلاث آيات، ولكنها أكثر منها استعراضاً لأصول دعوته وحواره طول بلاغه حتى غرقهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾:

هذه الدعوة الأولى الرسالية بين أولي العزم من الرسل، بازغة كسائر الدعوات الرسالية بالأصول الثلاثة، فـ ﴿أَرْسَلْنَا . . . إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هي أصل الرسالة ومسؤوليتها، ثم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هي أصل التوحيد عبارة أخرى عن كلمة الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ومن ثم ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هي أصل المعاد.

وهنا ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ دليل أنهم كانوا معترفين بالله مشركين به ما سواه، وتوحيد العبودية للإله الأصل هو من القضايا التي قياساتها معها، حيث الإشراك بالله ظلم عظيم فطرياً وعقلياً وفي كافة الموازين الإنسانية بل والحيوانية، وحتى أدنى شعور لأدنى حشرة!.

وهنا ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ خلاصة وكلاسة من رسالته كلها، وعلّها خبر لـ «ورسالته إني - أو - قال: إني. . .» ثم بيّن نذارته بالقطاعات التالية.

ولأن عبادة الله بحاجة إلى شرعة لها من الله فقد كانت له شرعة فرعية متفرعة على هذه الأصول الثلاثة، مهما كانت محدودة بحدود الحاجات والإمكانات[1].

وهنا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ قد تعني إلى عذاب الأخرى عذاب الاستئصال في الأولى وكما تطلّبوه منه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣٤٨ في تفسير العياشي عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كانت شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها وأخذ ميثاقه على نوح عليه السلام والنبيين أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأمر بالصلاة والأمر والنهي والحرام والحلال ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرض مواريث فهذه شريعته.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٠.

وقد ذكر «نوح» عليه السلام بدعوته في (٤٣) موضعاً من الذكر الحكيم ضمن (٢٩) سورة مما يدل على هامة دعوته، وهنا كأهم ما يؤتى بذاكرة يذكر سبع مرات أكثر من كل سورة حتى سورة «نوح» حيث يذكر فيها ثلاث مرات، فهنا تفاصيل لا توجد في غيرها من مسارح ذكراه.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

هنا يقدِّم ﴿ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ ثالوث الأعذار علَّهم ينجون من كرور دعوته ووفور دعايته وهي: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ في البشرية، ولا بد أن يكون الرسول إلى البشر من صنف هو أعلى من البشر كالملائكة - كما يقوله البراهمة - متغافلين أن الملائكة ليسوا كأصل أفضل من البشر، وحتى لو كانوا أفضل منه، ففي البشر نفسه تفاضلات من الناحية الروحية كسائر التفاضلات، أوَ ليس المتحكم على جمع مفضلاً عليهم طوعاً أو كرهاً؟ أم لا يتفاضلون أبداً فيما بينهم أنفسهم بالقيم الزائفة وهم أمثال في البشرية؟. ولكنهم لما لم يجدوا في نوح مقياس الفضيلة الظاهرة أنكروا رسالته الربانية.

ثم ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ وهو الرأي البادي الأول، قضية بادي النظر، رغم أن بادي الرأي هو دون تأمل ونضج، لا يعتمد عليه، فقد أجابوا عن حجتهم هذه اللجة بـ ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾.

فلئن اتبعك أفاضلنا بادي الرأي لكُنَّا نفضلك علينا رغم أنك بشر مثلنا.

فمن ثم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ تتفضلون به علينا بالرسالة، لا فيك يا نوح ولا في أتباعك القلة الذليلة الرذيلة.

وهنا «ما نرى» في ثالوثها، سناد إلى عدم الرؤية البادية وهي الحسية

الخسيسة التي يتبناها الحسيون الناكرون لما وراء الحس، ثم ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ وهو الرأي دون غور وتأمل الذي مجاله وراء الحس أم والحس فيما يحتاج إلى تأمل، ثم ﴿نَظُنُّكُمْ﴾ سناداً إلى غير العلم في النكران.

وكيف تكذَّب رسالة الله بـ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ﴿نَظُنُّكُمْ﴾ وهو جهالة مثلثة مفلَّسة؟!.

ف ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ الأولى تتبنى ظاهرة البشرية، أننا لا نجدك إلَّا مثلنا فيها، فكيف تتفضل علينا ولا فضل لك علينا، متجاهلين الفضائل الروحية غير الحسية.

و﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ الثانية تتبنى ظاهرة الفقر الذي يعبرون عنه بالرذالة، وهو الفقر المادي الحسي، متجاهلين الثروة الروحية التي تدعو لاتباع الحق المبين.

و﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ الثالثة سلب لأي فضل وحتى الروحي إذ لا يُرى حسياً، ورؤية الفضائل الروحية هي رؤية عقلية روحية، وليس ﴿مِن فَضْلٍ﴾ تختص بالفضل الحسي لمكان ﴿فَضْلٍ﴾ النكرة في سياق النفي من هؤلاء الذين يعنون سلب أي فضل مهما كان روحياً فهم لا يعتبرونه فضلاً، مجاراة مع نوح عليه السلام ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[1].

ثم النتيجة ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ هي ظن يتبنى ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ في حقل سلب الرؤية الحسية ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2].

فلقد عُمِّيت على هؤلاء الأعمين أصل الفضيلة وهي الروحية، زاعمين

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.

أن الفضيلة هي فقط الفضيلة في الحياة الدنيا بزخرفاتها وقواتها الحيوانية، فحرموا أنفسهم من رحمة غالية ربانية.

ذلك رد العليَّة المستكبرين من قومه كما هو رد سائر المستكبرين طول الزمان وعرض المكان، اعتذاراً جاهلاً ماحلاً قاحلاً ليس ليقصد الجد، وإنما هو للفرار عن المسؤولية، والقرار على الأريحية والإباحية الطليقة، فحتى إذا أرادوا أن يعبدوا فهم عابدون ما أرادوا كما يشتهون ما لا يحملهم أوزار التكليف الذي يحدد شهواتهم ورغباتهم، وأوضاره.

ذلك، وفي استنكار رسالة البشر إلى البشر تغاض عن أهلية البشر لحمل الرسالة الربانية، رغم أن الله خلقهم في أحسن تقويم، ولكنهم يردون أنفسهم بأنفسهم إلى أسفل سافلين!.

هذا! وفي رسالة البشر إلى البشر تبجيل لهذا البشر أنه مكتف بنفسه في حمل الرسالة، وهذه أقرب إلى القبول، وأغرب عن الذُّبول والأفول، وأقوى حجة عند أرباب العقول.

ثم في تسمية الفقراء العزَّل المظلومين أراذل رذالة من الرأي، وثفالة من الوعي، فإنما الأراذل هم الذين رذَّلوهم وظلموهم وهضموهم حقوقهم، فهم - إذاً - أفاضل وليسوا أراذل، واتِّباعهم رسل الله هو بنفسه دليل على أن رسالات الله ناحية - كأساس - منحى الحفاظ على حقوق المظلومين المهضومين، فهم يعيشون تحت ظِلالهم، ويخرجون بذلك عن ضَلالهم.

ثم في دمج نوح بمن اتبعوه من «الأراذل» ترذيل له نفسه، فلو كان فضيلاً لما اتبعه رذيل، وأقل ما في الدور أننا ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يفضلكم علينا بفضيلة الرسالة، فالنتيجة: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة واتباعها، فلا رسولكم رسول ولا أنتم مؤمنون برسول.

وهنا الجواب الحاسم، القاصم ظهور المستكبرين، يأتي في صيغة الاستفهام الاستنكار:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

هنا لا يحتِّم - قضيةَ حائطة الحوار وأدبه الأريب - أنه على بينة من ربه، وإنما ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تقديماً لـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تحريضاً لتحرِّيهم عما يدعيه لكي يصدقوه على بينة أم يكذبوه على بينة، حثاً على إعمال الرأي في إمكانية كونه على بينة من ربه، ومن ثم واقعه، وقد كان واقعاً عمِّي عليهم بسوء تقصيرهم، وتفسيرهم لكيان نوح والذين آمنوا معه.

ثم ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ خاصة بين البشر وهي الرحمة الروحية المتميزة الرسالية بعصمتها وبلاغها، أترون الله بخيلاً أم عاجزاً لا يستطيع على إتياني رحمة من عنده؟.

فـ ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تعني بينة الرسالة الربانية الخاصة، البينة من حالي وفعالي وأعمالي وكما ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[1] حيث التربية الرسالية الربانية باهرة فينا، ظاهرة علينا، فهذه بينة البرهان، وأما المبرهن عليه فـ ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تبينهما أني ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ تلك البينة وهذه الرحمة إذ أنتم حاصرون الرحمة في المعطيات الحيوانية الظاهرة، حاسرون عن المعطيات الإنسانية الزاهرة.

فلقد أعماكم عن هذه وتلك أنفسكم الأمارة بالسوء، والشياطين المؤمَّرون عليكم بالسوء، فعميت أبصاركم - الفطرية والعقلية، بل والحسية - عن إبصار الحق المُرام، فلا تبصر إلَّا ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ رؤية للبينة فتصديقاً للرحمة ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ والكاره للحق ليس ليكره على قبول الحق ولا سيما إذا ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

(١) سورة يس، الآية: ١٦.

وَعُلُوًّا﴾[(١)] و﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[(٢)] إذ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[(٣)].

وبما أن الرحمة لا توصف بالعَمى، وإنما يوصف الناس بها عن تمييز مواقعها وإدراك مواضعها، فلما وصفوا بالعمى عنها حسن أن يوصف بذلك في القلب، كما يقال: أدخلت الخاتم في أصبعي والمِغفر في رأسي، وإنما الداخل هو الأصبع والرأس.

أم إنها تعني أخفِيَت عليكم كما يقال: عَمِيَ عليَّ خبرهم، وعمي عليَّ أثرهم، أي خفي عني الخبر والأثر.

فيا عظماه لذلك الاتجاه في الإجابة عن المعترض القاسي حيث يخاطبهم خطاب الحنون بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مرات في كل من القطاعات من حججه، وبكل سماحة ومودة، ثم ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ تطلباً لرأيهم على ذبالة وعيهم خروجاً عن الرؤية الحسية لفترة، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ شرطاً دون تثبيت رغم ثابتها، ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾: البينة والرحمة، فلم تروهما فيَّ، فهل لكم أن تنكروهما - إذاً - فتكذبوني، ثم ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ إلزاماً بغير حجة عميت عليكم ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ فلا دور للإلزام العقلي بينة ورحمة إذ عميت عليكم ثم لا دور للإلزام قلبياً ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

وهنا ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ تكسح ثالوث «ما نرى» والناتج عنها: ﴿... بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ تحريضاً على الرؤية العاقلة وراء الحس وهي الرؤية الإنسانية المتميزة عن الحسية الحيوانية، فقد وجههم إلى رؤية ﴿بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تتبين بالعقلية الإنسانية دون مجرد الحس.

وهكذا يتلطف نوح عليه السلام في توجيه أنظارهم وأبصارهم ولمس

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم التي عميِّت عليهم بما عمُّوها على أنفسهم، إعذاراً لنفسه في نكرانه بينة الله ورحمته، وحملاً للمسؤولية كلها على عواتقهم بذلك التوجيه الوجيه الدقيق الرقيق، الحقيق أن يكتب بالذهب.

فهذه طمأنة لصدق هذه الرسالة من ناحية البينة الصادقة والرحمة، ثم من ناحية ثانية:

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

هنا عدم سؤال المال إضافة إلى بينات الهدى هما طرفان طريفان وجناحان ظريفان للطائر القدسي الرسالي أثبتا رسالته دون أية ريبة.

فالداعية على غير بينة وإن لم يسأل أجراً على دعوته، وسائل الأجر عليها إثقالاً على المدعوين وإن كان على بينة من ربه ولن، هما لا يطمئن بهما في الادعاء والدعوة والدعاية، فإن الذي يسأل أجراً قد يدعو حسب مصلحية الأجر وقَدرَه، أم يهدف الحصول على المال بدعوته الرسالية، والذي لا يسأل أجراً ولكنه ليس على بينة قد لا يسأل جذباً للنفوس الساذجة، بل وهو يدفع لمن يتبعه أجراً كما هو دارج رائج بين دعاة الباطل.

ولكن الذي هو على بينة من ربِّه ولا يسأل أجراً، ليس ليكلف العقول ما لا حجة له، ولا يكلف أصحاب العقول مالاً وأجراً، فإنما يدعو دعوة خالصة مريحة مربحة عن أعباء الجاهليات والهمجيات.

لذلك نرى أن الدعاة الرساليين ككل يلحِّقون بينات رسالاتهم بعدم سؤال الأجر، مما يكمل حججهم على المكلفين دونما إبقاء لأية عاذرة عقلية ولا مالية.

ولو أن الدعوة الرسالية كانت مزوَّدة بسؤال الأجر لحرم عن قبولها

والإقبال إليها الفقراء، ولكانت حِملاً على الأغنياء ولا سيما على البخلاء، أن يؤتوا أجراً على ما لا يشتهون، ولكانت مظنة للطمع في الأموال.

ثم ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ رعاية للذين لم يؤمنوا ويشترطون في إمكانية إيمانهم طرد الذين آمنوا، ربطاً للإيمان بشريطة اللّاإيمان، فإن طرد المؤمنين يناحر الإيمان، فـ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ بأنفسهم هنا ويوم اللقاء، ولهم ما لهم لإيمان وعليهم ما عليهم لو كان خلاف الإيمان: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾[1] - ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

وهذه شيمة شنيعة للمستكبرين الرعناء اللعناء أنهم يشاقون الفقراء والضعفاء حتى في الإيمان المدعى، فلا يجمعهم معهم حتى الإيمان بالله - وهو الجانب الروحي الفضيل من الإنسان - لأنهم يرون المقياس هو الجانب المادي الرذيل!.

وكيف تجيب الرسالات الربانية إلى متطلَّبهم في طرد الفقراء، وهي ملاجئ لهم أمام هؤلاء الهاضمين حقوقهم، ولو كانت الرسالات - على حد زعم الاشتراكية البلوشية - حفاظات على الثروات، فلماذا كانت - على طول الخط - يلجأ إليها الفقراء ويطاردها الأغنياء؟!.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾:

ولو أنني أطرد المؤمنين لأنهم فقراء، لكم أنتم الكافرين لأنكم أغنياء، أم مغبة إيمانكم القاحل الماحل، فذلك ذنب رسالي لا يغفر، وإذاً فـ ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ حيث يعاقبني ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ناصع الحق وناصحه.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١١١-١١٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

وأنا - إذاً - خسرت خالص المؤمنين، وما ربحت إلا كالس وعد الكافرين، فإن آمنوا فإيمانهم هذا - شرط ذلك الطرد - مطرود في شرعة الله، وإن لم يؤمنوا - ولن - فقد خسرتُ المؤمنين بالفعل، ومعهم الكافرون الواعدون الإيمان كذباً!.

ذلك، فقد يعاقبني ربي تخلفاً عن صالح الدعوة، رغبة في كالح الإيمان، فهل من ناصر - إذاً - ينصرني من بأس الله ونكاله إن طردتهم، فما تزيدونني - إذاً - من بأس الله ونكاله إن طردتهم، فما تزيدونني - إذاً - غير تخسير، حيث إن داعية الحق إن أجاب إلى باطل لتحقيق الحق فيمن ليس ليقبله، طرداً لمن قبله مقبلاً إليه، كانت دعوته - إذاً - فالسة كالسة، متخلفة عن الدعوة الخالصة الرسالية عن بكرتها.

أجل، فلا دور لسائر المصلحيات المزعومة الموعودة من قبل الناكرين رسالات الله، إلا كوراً، وإنما المصلحية الصالحة هي خالص الدعوة الصارمة إلى الله، دون جعل البلد شطرين، وأخذ العصا من الجانبين، فإنه نفاق في الدعوة، وصفاق خاسر فيها!.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾:

هنا سلبيات أربع تسلب عنه ما يخيَّل إليهم إثباته للرسول، فإذا لم يجدوه فيه كذبوه، وهي إجابة صريحة عن الفضل المزعوم لهم للرسالة الإلهية حيث نفوه عنه عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾[1] إن الفضل فضلان، فضل رباني وهو مختص بالله تعالى، وفضل رسالي فأنا على بينة

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.

من ربي ورحمة منه، وبينهما فضل غيرهما يزعمونه شرطاً أصيلاً للرسالة، والسلبيات الأربعة، هي التالية، مما اختص إثباته بالله كالثلاثة الأولى، أم اختص بالملائكة:

١ - ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ حتى أملكها فأملِّكها الفقراء التابعين إياي ليخرجوا من رذالة الفقر على حد تعبيركم: «هؤلاء أراذلنا» فخزائن الله هي عنده لا يؤتيها لأحد من العالمين، ولا أملك منها شيئاً ولا تطلُّباً مُجاباً، ولا أدعي الثراء، أو القدرة على الإثراء.

٢ - ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ كيف ولا يعلمه إمام الرسل محمد ﷺ كما لا يملك خزائن الله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ...﴾[١] - ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

٣ - ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ كما تشتهون وتتعنتون فادعي صفة - هي بزعمكم - أعلى من صفة الإنسانية، لأرتفع في حسبانكم الباطل الجاهل إغراءً بالجهل، حيث الحق لا يُتذرع إليه بالباطل، والغاية لا تبرر الوسيلة، بل أنا فوق المَلَك برسالة ربي لو تشعرون.

٤ - ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ انتقاصاً لهم وإزراءً بازدراء إرضاءً لكبريائكم وعلوائكم أو مسايرة لتقديركم الغدير أرضياً، قيمكم - الهابطة - عَرَضياً، ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لهؤلاء الفقراء: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ كما تزعمون.

والازدراء هو صفة أصحاب هذه الأعين، منسوبة هنا إلى الأعين مبالغة بليغة إذ تستصغرهم بلمحات العين، حيث يقبحون في منظر عينك خلقة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

ويصغرون دمامة، كما يقال: اقتحمت فلاناً عيني واحتقره طرفي، إذا قبح في منظر عينه خلقةً، وصغر دمامة.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من نفاسة الإيمان كما يظهرون، أم من نحوسة النفاق لو أنهم يبطنون، فليس إلا ظاهرهم الباهر بالإيمان حيث يدعو إلى التكريم والاطمئنان، وإلى الرجاء أن يؤتيهم الله خيراً مما آتاهم على ضوء الإيمان.

وهنا ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ سلب طليق لكل خير عن هؤلاء الذين تزدري أعينهم، وهذه فكرة خاطئة استكبارية بشأن الفقراء، اعتباراً أن الله تعالى كما فضل الأغنياء بفضل القوة والسيادة والمال، فهكذا الحال في كل فضل من رسالة ربانية أماهيه من فضل، وقد يندد بهم كما في آية الأعراف من أصحاب الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] فهؤلاء الأغنياء المستكبرون الأغبياء يظنونهم يستحقون كل الخيرات لأنهم أوتوا من المال والقوة ما به يستكبرون! كلا يا أغبياء، ليست السيادة المادية تلازمها السيادة الروحية، بل هما متناحرتان اللّهم إلا في صاحب السلطة الزمنية على ضوء السلطة الروحية منه أم من روحي آخر! وتاريخ السلطات المادية الزمنية تشهد أنهم ليسوا إلا معارضين للسلطات الروحية فكيف - إذاً - يستحقونها على شؤمهم ولؤمهم!.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ لو أنني أقول عندي خزائن الله واعلم الغيب وإني ملك، وأقـــول ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ - ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بحق رسالة الله وعباد الله!.

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

ذلك، وأحسن تعريف بالملائكة بعد تعريف القرآن ونبي القرآن ما عرفهم به شاهدٌ منه في قوله عليه السلام: «ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته، وعِمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته، وملأ بهم فروج فِجاجها، وحشا بهم فُتوق أجوائها، وبينَ فَجَوات تلك الفروج زَجَل المسبحين منهم في حظائر القدس، وسُتُرات الحُجُب، وسرادقات المَجد، ووراء ذلك الرجيح الذي تستك منه الأسماعُ سُبُحاتُ نورٍ تردَعُ الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئَة على حدودها، وأنشأهم على صُوَر مختلفات، وأقدار متفاوتات أولي أجنحة تسبِّح جلال عزته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1] - جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحمَّلهم إلى المرسلين ودائِع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشُّبُهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته، وأمدَّهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضُع إخبات السكينة، وفتح لهم أبواباً ذُلُلاً إلى تماجيده، ونصب لهم مَناراً واضحة على أعلام توحيده، لم تُثقلهم مُوصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترمِ الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الإِحَن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وسكن من عظَمته وهيبة جلاله في إثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوسِ فتقترع برَينها على فِكرَهِم، منهم مَن هو في خلق الغَمام الدُّلَّخ، وفي عِظم الجبال الشُّمَّخ، وفي قَترة الظَّلام الأيهم، ومنهم مَن قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى، فهي كراياتٍ بيضٍ قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتَها ريحٌ هفَّافة تحبسها على حيثُ انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغَتْهم

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

أشغال عبادته، ووصلت حقائِق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى الوَلَه إليه، ولم تُجاوز رَغَباتُهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرويَّةَ من محبته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشِبحة حيفته، فَحَنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفذ طولُ الرغبة إليه مادة تضرُّعهم، ولا أطلَقَ عنهم عظيمَ الزلفة رِبقَ خشوعهم، ولم يتولوا الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استطانةُ الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دُؤوبِهم، ولم تَغِض رغباتُهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، ولم تَجُفَّ لطول المناجاة أسلاتُ ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطعَ بهَمسِ الجوار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مَقاوِمِ الطاعة مناكبُهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهُم، ولا تعدوا على عزيمة جدِّهم بلادةُ الغَفَلاتِ، ولا تنتضِلُ في هِمَمهم خدائع الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمَدَ غايةِ عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلّا إلى موادَّ من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فَيَنُوا في جِدِّهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاءُ منهم شَفَقَاتِ وَجَلهم، ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سواء التقاطُع، ولا تولّاهم على التحاسُد، ولا تشعَّبتهم مصارف الريب، ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زَيغ ولا عُدول، ولا ونًى ولا فُتور، وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلّا وعليه مَلَكٌ ساجد، أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة بربهم علماً، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظَماً»[١].

(١) (من خطبة الأشباح ٩٠).

هنا - وبعد ما اكتملت الحجج البالغة عليهم من كافة النواحي الناحية منحى إثبات الحق وإزهاق الباطل، ولم يجدوا عنها مفلتاً حيث قطعت عنهم كل أعذارهم الغادرة، ويئسوا من مناهضة حجته بحجة، فتورطوا في لجة غامرة محجوجين، عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم، فتركوا الحجة إلى التحدي:

﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾:

﴿. . . فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فوق الواجب، فصدعتنا دونما طائل واصب، وما نحن لك بمؤمنين مهما جادلتنا، و﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[1] ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[2] ثم وآخر ما قالوه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب ربك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في رسالتك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ متى شاء وكما شاء، ولست أنا الذي آتيكم به من عند نفسي ولا من عند ربي، و«إن أنا إلا رسول» فالمشية هي مشيته دون سواه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله حين يشاء أن يأتيكم بعذاب من عنده أم لا يأتيكم به، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله في حجة رسالته، ولا ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ إياي عن مواصلة الدعوة بالحجج البينة، ثم:

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾:

أنا مريد أن أنصحكم رسالياً دلالة إلى الحق المُرام، ولكن ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ ربانياً حملاً على الحق فـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.
(٢) سورة القمر، الآية: ٩.

أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[١] ولا سيما ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ بما غويتم ختماً على قلوبكم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] ف «الأمر إلى الله يهدي ويضل»[٣].

فقد يريد الله أن أنصح لكم دلالة إلى حق السبيل في شرعة الرسالة، ثم ويريد أن ينفع نصحي للذين يتحرون عن الحق حتى إذا وجدوه استقبلوه وقبلوه، وهو يريد إغواء الذين يحيدون عن الحق ويعارضونه، وعلى أية حال لست أنا بربكم حتى أنفعكم بنصحي إلّا دلالة أو أغويكم، وإنما ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو ربكم لا سواه في المسير والمصير وليس لي من الأمر شيء إلا أنّني نذير وبشير، والله على كل شيءٍ قدير.

وهنا في ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ لمحة إلى أن استحقاق عذاب الاستئصال هو من خلفيات إغواء الله كما ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[٤] - فإن أمر المترفين بما يأمر من طاعة ثقيلة لله، حملاً وجاه عباد الله، أمراً لهؤلاء الذين يعلم أنهم يفسقون، إنما يعني هذا الأمر - فيما يعني - إغواءهم بما غووا، وإزاغتهم بما زاغوا كما ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[٥] و﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٦].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٤٩ في تفسير العياشي عن ابن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في الآية قال:..
وفيه في قرب الإسناد للحميري بسند متصل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال في الآية: الأمر إلى الله يهدي من يشاء.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٦) سورة مريم، الآية: ٨٣.

إذاً فإغواء الله تعالى لا يعني إلّا تخييبه سبحانه لمستحقيه من رحمته، لكفرهم وذهابهم عن أمره: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[١] أي خيبة من الرحمة، وارتكاساً في النقمة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾:

أتراها آية معترضة لما افتري على محمد ﷺ؟ والدور كله في هذه الآيات لنوح ﷺ! أم هي نكاية على قوم نوح مستعرضة لمحمد ﷺ؟.

نقول: إنها تعليقة على فرية المفترين منذ نوح إلى خاتم النبيين، هي تحليقة على هذه الفرية الجاهلة على الرسل أنهم مفترون على الله ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ على ربي رغم بينة الرسالة ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ وليس عليكم، فأنتم معذورون في إيمانكم بحجة الرسالة البينة أمام الله، ثم ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ إن افتريته، أمام الله، حيث يأخذني بجرمي هنا وفي الأخرى، فهنا: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾[٢] حفاظاً على شرعته من الفرية، فحين لا يأخذني هنا، كان ذلك برهاناً آخر لا مرد له على صدقي، حاضراً أمامكم حاذراً إياكم، إضافة إلى سائر البراهين - مهما غاب عنكم أن يأخذني الله في الأخرى -: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٣] - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤] - ﴿أَمۡ

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٨.

يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١].

ذلك، فحين تثبت الرسالة الربانية بحججها فلا عاذرة لأحدٍ في تكذيبها أو تركها، إلّا أن يفتري على الله أنه جاهل بهذه الدعوى، أو عاجز عن ردها، أو ظالم بحق العباد إغراء بجهلهم فيها، أم يوجد في هذا المدعي ما يبطل دعواه بذلك الوجدان، كأن يناقض في قوله، أو يقول ما ليست لتقبله الفِطَر والعقول، أم تكذبه الحواس الصادقة، وهذا هو المعني من: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٢] إسقاطاً لربانية دعواه إلى سِقاط الدعاوي الباطلة الهباء.

ذلك، ودعوى الفرية في القرآن - بكل حقوله - هي دعوى خاوية غاوية، لا فحسب في آياته، بل وفي تأليفه، فإن فيه دوراً هاماً في القمة البيانية لكتاب الدعوة العالمية.

فاستناد هذا القرآن إلى الله يتطلب أن يكون كلّه مادة وتركيباً من الله، فلو كانت المفردات من الله والتركيب لغير الله لكان القرآن مزدوج الكيان، إلهياً في مفردات وبشرياً في تنظيمات!.

ثم القسط الأوفر أو الموازي في إعجاز القرآن كامن وراء ذلك النظم البديع الرائع، تناسقاً نغمياً مرناً في موسيقاه، وتناسباً معنوياً في محتواه، وتحديه الصارخ لا يعني - فقط - مفرداته، بل هو متحدّ بنظمه البديع، فكما يتحدى بسورة قصيرة كالكوثر، كذلك يتحدى بعشر سور مثله مفتريات، أم وبه أجمع، وقد تشمل «سورة» آية مستقلة المعنى!.

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

ومن ثم لو كان ذلك النظم مسنوداً إلى غير الوحي الكافل لمفرداته، لكانت عندنا مئات من القرائين المختلفة في ترتيب آياتها وسورها حسب مختلف الأنظار في الموازين الأدبية والمعنوية.

ولقد تواترت الروايات أن النبي ﷺ كان يأمر كُتّاب الوحي أن تجعل بعض الآيات في محالها التي بين أيدينا، لمكان اختلاف ترتيب التأليف عن ترتيب التنزيل.

وكما أن ترتيب الآيات كما هي الآن هو ترتيب قاصد بالوحي، كذلك ترتيب السورة كما هي الآن.

وقيل إن هذا الترتيب هو من عثمان أمن أشبه إنها غيلة على صيانة القرآن، فأين عثمان وأمثاله من هذه القوة الخارقة التي تفوق قوة النبي ﷺ في قراره الحاسم الجاسم الذي لا حِوَل عنه طول القرون الإسلامية؟!.

ذلك كله، إضافة إلى آيات تعني صيانة القرآن عن أي تدخل غير رباني في أيّ من شُؤونه، كآية القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وهل يعني الجمع إلّا جمع مفرداته آيات وسوراً؟.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ تحمل حجتين اثنتين، حجة لنوح عليه السلام عليهم حيث أخبرهم بها ولم يؤمن منهم أحد حتى غرقوا أجمعين، وكان لهم وإنْ لواحد منهم أن يؤمنوا في ظاهر الحال تكذيباً لما أوحي إلى نوح عليه السلام، وحجة ثانية هي لغرقهم أجمعين حتى لا يقول قائل: علَّهم كانوا يؤمنون فلماذا غرقوا؟.

ذلك، ولكن الأنسال الحاصلة بين هذا الوحي وغرقهم وهو طوال سنين، ما هو ذنبهم أولاء وهم قُصَّر أو صغار، أم وكبار منهم عقلاء علهم يؤمنون؟.

هنا ﴿لَن﴾ تحلق سلبية الإيمان على أنسالهم البالغين، وإن لم يكن هناك صغار وقصَّر حين الغرق، أم وقطع الله أنسالهم فلم ينسلوا في هذا البين[١]، أم أمات صغارهم والقصَّر منهم قبل الطوفان، أم لو شملهم الطوفان فليس هو عذاباً للقاصرين صغاراً ومجانين.

أجل، ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا مبرر لبقائهم، ثم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ إذ لا مكان ولا دور للابتئاس بفعلتهم الملعونة حين يُجزون بما كانوا يفعلون، وأنه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فالداعي الراجي إجابته لوقت ما يبتئس بما يفعله المدعوون من التكذيب والعناد، وأما إذا عرف مسيرهم ومصيرهم فلا دور لابتئاسه بما كانوا يفعلون.

أجل ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: لا تحسَّ بالبؤس والقلق، ولا تهتمَّ بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضارين من شيء حتى يغرقوا، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم ولا رجاء لهُداهم.

ثم وهذا الوحي كان بعدما دعى نوح على قومه أم قبله بسناد: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[٢] [٣].

---

(١) في عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده إلى عبد السلام بن صالح الهروي عن الرضا عليه السلام قال قلت له: يا بن رسول الله لأي علة أغرق الله تعالى الدنيا كلها في زمن نوح وفيهم الأطفال وفيهم من لا ذنب له؟ فقال: ما كان فيهم الأطفال لأن الله تعالى أعقم أصلاب قوم نوح وأرحام نسائهم أربعين عاماً فانقطع نسلهم فغرقوا ولا طفل فيهم وما كان الله تعالى ليهلك بعذابه من لا ذنب له وأما الباقون من قوم نوح عليه السلام فأغرقوا لتكذيبهم لنبي الله نوح وسائرهم أغرق يرضاهم بتكذيب المكذبين ومن غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهد، وفي تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام مثله.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) نور الثقلين ٢: ٣٥٠ في تفسير القمي عن صالح بن ميثم قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما كان =

فلقد كان دعاؤه عليهم بعد وحي الله وقبل الطوفان، دعاءً على ضوء الوحي دونما تخرُّص بالغيب، فالأخبار الناطقة بأن في ذلك الدعاء يداً شيطانية هي بنفسها من يد شيطانية! إذ لم يدع نوح إلَّا بإذن الله ويعد ما أخبره الله ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ من ثم وليس الله ليجيب نوحاً إلى دعوة فيها يد شيطانية!.

وترى ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ﴾ تحيل إيمانهم في المستقبل؟ فهم غير مكلفين - إذاً - بالإيمان! أم وعليهم أن يؤمنوا أنه لن يؤمنوا لأنه وحي رسالي واجب التصديق؟ فهو جمع بين نقيضي واجب الإيمان والتصديق باستحالته!.

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ﴾ يواجه نوحاً والذين معه إخباراً عن حال هؤلاء الكفار، وهم مكلفون بتصديق أنهم لن يؤمنوا، مع تكليفهم أن يؤمنوا، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار.

فعلمُ الله بأنهم لن يؤمنوا كاشف قاطع أنهم لن يختاروا الإيمان، فليس ذلك العلم سبباً لعدم إيمانهم تسييراً، إنما هو كاشف عنه، ولو أنهم أم واحداً منهم آمن كان يعلم الله من ذي قبل أنه سوف يؤمن.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[1].

وذلك أمر صارح بصناعة الفلك، لا فقط تشريعياً، بل و﴿بِأَعۡيُنِنَا

= علم نوح حين دعى على قومه أنهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً؟ فقال: أما سمعت قول الله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. وفي نقل آخر بزيادة: فعند ذلك دعى عليهم بهذا الدعاء.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾ فالمهندس في صناعة هذا الفلك هو الله، والعامل هو رسول الله، فما ظنك إذاً بالزمن الذي يشغله، والهيكل القويم الذي يحمله؟ إنه فُلك رباني ما أحكمه بُنية وما أقصره زمناً، وما أيسره صنعاً!.

ف ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بجمعية الصفات - تعني أعين العلم والقدرة والرحمة، ثم ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ في مواده وحجمه وشكله وقوامه وكل كيانه، وصنع الفلك بأعين الله ووحيه لِخضِمِّ الطوفان العام، نجاةً لنوح والمؤمنين معه، إنه دون ريب صنع منقطع النظير، فلا غرق أو انكسار لذلك الفلك حتى قضاء أمر الله.

أجل ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ ونحن نرعاك ونحفظك، إذ ليست له سبحانه عين تلحظ أو لسان يلفظ، وكما يقال: أنا بعين الله، سِر وعين الله ترعاك، ومن كلامهم للظاعن المشيّع والحميم المودَّع، صَحِبتك عين الله، أي: رعاية الله وحفظه.

وكيف هنا في صنع الفلك ﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ وفي موسى ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[1]؟ قد يعني إفراد ﴿عَيۡنِيٓ﴾ في موسى عين الرحمة التربوية الرسالية، وهنا في «أعيننا» عيون الرحمات التي تصنع فلك النجاة من كافة الجهات هندسة ومادة وحجماً وثقلاً ومقاومة للأمواج.

أجل ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا...﴾ وكما ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[2].

وقد يقال في زمن صنعه إنه خمسمائة عام، ولكن كيف والله يقول «ووحينا»[3] وأعين الله ووحيه ليسا ليبطئآ هكذا، لا سيما حسب وحيه ﴿أَنَّهُۥ

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٥٣ في روضة الكافي عن المفضل بن عمر قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته حتى فرغ منها؟ قال: في دورين، قلت: وكم الدوران؟ قال: ثمانين سنة، قلت: إن العامة يقولون: عملها في خمسمائة عام، فقال: كلا كيف =

لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلماذا - إذاً - ذلك التأجيل الأجيل، رغم أن قضية ﴿لَن﴾ و﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] هي التعجيل.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ... وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ﴾ حيث كفروا وكذبوا، فقد تقرر مسيرهم ومصيرهم وانتهى أمرنا فيهم كما دعوت وأجبناك، فخطابي فيهم أياً كان محظور، سواء أكان دعاء الهداية أو المغفرة أو النجاة من الغرق.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

نوح عليه السلام أخذ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فور أمر الله، ولكن أين؟ هل هو على شاطئ البحر؟ ولم يكن يسكن على شاطئ! ولا أنه يصنع ذلك الفلك لبحر! بل هو للطوفان الذي يجعل الكرة الأرضية بحراً، فلذلك، وأن صناعة الفلك - وإن كانت على شاطئ البحر - ليست لها صلة بالعذاب الموعود فـ ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾: «ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري»[2].

= كان؟ والله يقول: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أقول: أصل الاستناد في ذلك الاستغراب بـ «وحينا» صحيح ولكن الدورين وهما (٨٠) عاماً حكمه حكم الخمسمائة في الإبطاء، فقد يقال: صحيح أن ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: ٣٧] دليل السرعة في هندسة الفلك ولكن «اصنع» بالنسبة لنوح عليه السلام يبطئه، والأصح هنا السكوت عما سكت الله عنه إلا ما يلمحه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ [هُود: ٣٦] و﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ...﴾ [نُوح: ٢٧] حيث يقربان زمن صنعه لأقرب زمن بالإمكان صناعة ذلك الفلك العظيم بزيادة أنها ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: ٣٧] وقد يكون أربعين عاماً التي أعقم الله أصلاب رجالهم وأرحام نسائهم كما في خبر العياشي السالف عن الإمام الرضا عليه السلام تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام.

وفي البحار ١١ : ٣٢٤ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صنعها في ثلاثين سنة ثم أمر أن يحمل فيها من كلّ زوجين...

(١) سورة نوح، الآية: ٢٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٢٧ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كان نوح عليه السلام مكث في قومه =

وقد «جعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد غرَّاساً، حتى إذا طال النخل وكان جِباراً طِوالاً قطعه ثم نحته فقالوا: قد قعد نجاراً، ثم ألفه فجعله سفينة فمروا عليه يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد ملاحاً في فلاة من الأرض، حتى فرغ منها»[١].

فقد أخذوا يقولون ويتقولون مِلء أفواههم ساخرين منه منذ بزوغ دعوته حتى غرقهم، فقبل أن يصنع الفلك كانوا يسخرون منه، كيف يرسل ذلك الرجل الفقير ومعه أراذلنا بادي الرأي، ومنذ أخذ في صناعة الفلك سخروا منه أنه تحول نجاراً يصنع فلكاً لكي يفلت منا ولكن لماذا في الفلاة؟

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ حين تسخر منكم أمواج البحر الحيط الملتطم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ جزاءً وفاقاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين نتخلص من صناعة الفلك ويجيء أمر الله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في خضمّ الطوفان ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ منذ الغرق إلى يوم القيامة الكبرى، فـ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾[٢].

ذلك ﴿وَيَصْنَعُ﴾ مضارعة لحكاية الحال الماضية تصويراً لها كأنها حاضرة، ثم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ جمعاً حيث كان معه جمع المؤمنين في صنع الفلك، وهي طبيعة الحال في القلة المؤمنة أمام الثُّلة الكافرة.

والسخرية جزاءً لسخرية ليست من الجهالة، بل هي من العدالة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي

= ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كلّ مذهب ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة ويمرون عليه فيسألونه فيقول: اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر وكيف تجري؟! قال: سوف تعلمون.

(١) نور الثقلين ٢: ٣٥٥ في روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن نوحاً عليه السلام لما غرس النوى مر عليه قومه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: . .

(٢) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

﴿طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١). وهنا ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ موازنة عادلة بين السخريتين ولا يُظلمون فتيلاً.

وقد وردت في حجم الفلك وطوابقه مختلف الأثر، والقدر المعلوم منه أنه فلك يحمل نوحاً والذين معه من المؤمنين، كما ويحمل من كلّ زوجين اثنين من مختلف حيوان البر، فلا بد من سعة عظيمة لذلك الفلك حتى يكون هو ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(٢) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾:

فوران التنور هنا - أيّاً كان - هو من آيات ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾(٤) حيث الماء

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١١٩.

(٣) سورة يس، الآية: ٤١.

(٤) نور الثقلين ٢: ٣٥٥ تفسير القمي عن المفضل بن عمر قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] فأين كان موضعه وكيف كان؟ فقال: كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد، فقلت له: فإن ذلك موضع زاوية باب الفيل اليوم، ثم قلت له: وكان بدو خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم إن الله عز وجل أحب أن يري قوم نوح آية ثم إن الله تبارك وتعالى أرسل عليهم المطر يفيض فيضاً وفاض الفرات فيضاً والعيون كلهن فيضاً فغرقهم الله عز وجل وأنجى نوحاً ومن معه في السفينة وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاءت امرأة نوح عليه السلام وهو يعمل السفينة فقالت له: إن التنور قد خرج منه ماء فقام إليه مسرعاً حتى جعل الطبق عليه فختمه بخاتمه فقام الماء فلما فرغ نوح من السفينة جاء إلى خاتمه ففضه وكشف الطبق ففار الماء.

وفي الدر المنثور ٣: ٣٢٨ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة، وأخرج أبو الشيخ عن حبة العربي عنه عليه السلام ما في معناه ومن طريق الشعبي عنه عليه السلام قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إن مسجدكم هذا الرابع أربعة من مساجد المسلمين ولركعتان فيه أحب إلي من عشر =

ليس ليفور من التنور وفيه فوران النار، فهل هو بعد تنُّور الشمس؟[١] بطلوعها؟ وليس هي آية! وصالح التعبير عنه «طلعت الشمس» ثم ولا رباط بينه وبين ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾!.

وقد يعني ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ - فيما يعنيه - تنّور الغضب الرباني؟ ولكنه قبل مجيءِ الأمر لأنه من خلفياته فوران هذا التنور، ثم ولا تناسب التنور أصل الغضب ولا سيما بالنسبة لساحة الربوبية، أم قد تعني ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ إلى تنُّور النار تنور النور للشمس بفور طلوعها وفورانها بتكاثف حرارتها تقريراً لتوافق الأمرين[٢] كما وفار تنور الغضب الرباني تأويلاً للواو بالحالية كما وعنت العطف في الأولين، أم يعني فوارة بركانية كانت علامة لنوح كفوران تنور الخبز؟.

علّ الجمع هكذا أجمع وأجمل دون منافرة لأدب اللفظ وحدب المعنى، ثم ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ معرَّفة دليل أنه كان معروفاً عند نوح بفورته آيةً لمجيء أمر الله، فقد يقرب أنه تنوره الذي يُخبز فيه.

وهنا ﴿مِن كُلٍّ﴾ تعني من كل من حيوان البر التي لا تعيش في بحر، دون البحري أو الجوي حيث يعيشان في غير البر، ولا ذا الحياتين حيث بإمكانه العيشة في البحر، لأن هذه هي فلك النجاة فلا تناسب إلّا حيوان البر المحتاج في الطوفان إلى النجاة.

وقد يعني ﴿مِن كُلٍّ﴾ كلاً من مختلف دواب الأرض حفاظاً على

= فيما سواه إلا المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وأن من جانبه الأيمن مستقبل القبلة ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

(١) المصدر أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] قال: طلع الفجر، قيل: إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك. وفي نور الثقلين ٢: ٣٥٦ في تفسير العياشي عن الأعمش يرفعه إلى علي عليه السلام في الآية قال: أما هو تنور الخبز، ثم أوى بيده إلى الشمس فقال: طلوعها.

(٢) رواه الشريف المرتضى في أماليه (٢: ١٣٠) عن أمير المؤمنين عليه السلام.

أنسالها، ومن مختلف نباتها حفاظاً على بذورها، فـ ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ في الدواب تعني ذكراً وأنثى، وفي النبات تعني بذر الذكورة والأنوثة، ولكن بذور النبات والبعض من النبات نفسه تبقى في الماء صالحة للإنماء، إذاً فـ ﴿مِن كُلٍّ﴾ تعني - فقط - دواب البر ككل دون إبقاء، ولو أن الله كان يريد خلقها من جديد لما كان في حمل زوجين من كل معنى، فلا بد أن تعني ﴿مِن كُلٍّ﴾ كل الدواب البرية التي لا تعيش في بحر أو جوّ.

ثم ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قد تعني ﴿زَوْجَيْنِ﴾ ذكر وأنثى، ولكي لا تعم الجنسين وهما غير حاصرين في شخصين وصفهما بـ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر واحد وأنثى واحدة، حيث يكفيان للإنسال.

ثم و﴿ٱحْمِلْ﴾ أهلك إلَّا من سبق عليه القول، كامرأته حيث ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّـٰخِلِينَ﴾[١] ثم ﴿وَمَنْ ءَامَنَۚ﴾ من غير أهلك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ذلك، وأما ابنه الكافر وهو من أهله ولم يسبق عليه القول اللّهم إلَّا لمحة من امرأته السابق عليها القول لكفرها، وقد امتُحن نوح فيه حين سأل: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[٢] كما يأتي.

وكيف يتقدم هنا الدواب على المؤمنين، وإيمانهم يقدِّمهم على من سواهم وما سواهم؟ لأن الدواب لا تشعر بالخطر، ولا بد لمن يحملها إلى الفلك، ثم المؤمنون هم بأنفسهم يدخلون الفلك، بعدما أدخلوا هذه الدواب.

وهنا ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إيماناً معه بالله حيث هو المحور الأصيل

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٥.

في الإيمان، والقلة كأنها هي الضابطة في كتلة الإيمان على مدار الزمن، وكما في آيات عدة وروايات، منها ما يروى عن علي أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: «ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلون عدداً وقد بين الله ذلك من أمم الأنبياء وجعلهم مثلاً لمن تأخر مثل قوله في قوم نوح ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾:

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] ﴿وَقَالَ﴾ نوح ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ قولاً لكلّ من زوجين اثنين عملياً، ولمن آمن معه وأهله إلّا من سبق عليه القول أمراً، فلم يقل لامرأته وابنه ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ حيث الظالمون كانوا من المغرقين.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ جرياً بزمانه ومكانه حيث المثلث مقصود بهذه الصيغة السائغة للجمع بين أضلاعه، فبسم الله جريها وبسم الله زمان جريها ومكان جريها، وكذلك ﴿وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ إرساءً بزمانه ومكانه، وقد تتعلق كل من ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ و﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: اركبوا فيها بسم الله ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ فليست السفينة هي التي تنجيكم بمجراها ومرساها، إنما هو اسم الله المعبر عنه بـ ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾[3] فأعين الله هي التي تجريها وترسيها، ولكن عليكم أيضاً أن تركبوها بسم الله وتحفظوا عن الغرق باسم الله، فمنكم بعد الإيمان بالله بسم الله، ومن الله ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ تجاوباً بين محاولة العبد ورحمة الله!.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣٥٨ في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: . .

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٤.

ذلك، وحين يفكر المؤمن في طلب معرفة الله بالدليل والحجة فقد جلس في سفينة التفكر والتدبر وقد علت أمواج الظلمات والضلالات تلك الجبال، وصعدت إلى تلك القلال، فإذا ابتدأت سفينة الفكرة بالحركة فهنالك التوكل على الله، قولاً باللسان والقلب والجنان: بسم الله مجراها ومرساها، حتى تصل هذه السفينة إلى ساحل النجاة تخلصاً عن أمواج الضلالات.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ ذنوبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم إذ أنتم مؤمنون، ثم لا يغفر ولا يرحم هؤلاء المكذبين بالرسالات.

وقد تعني ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ - فيما عنت - أن قول نوح الربان لها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يجريها، وقوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يرسيها، وطبعاً بإذن الله، فكما أن صنع الفلك كان ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ كذلك مجراها ومرساها كانا باسم الله.

ذلك وكما قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا السفن أن يقولوا: بسم الله الملك الرحمن بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وما قدروا الله حق قدره...»[(١)].

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَهِىَ﴾ الفلك المشحون ﴿تَجْرِى بِهِمْ﴾ هؤلاء المؤمنين معه ومن كل

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣٣ - أخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسين بن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ... وفي نور الثقلين ٢: ٣٦٠ في الكافي عن علي بن أسباط قال قلت لأبي الحسن عليه السلام جعلت فداك ما ترى آخذ براً أو بحراً فإن طريقنا مخوف شديد الخطر؟ فقال: أخرج براً ولا عليك أن تأتي مسجد رسول الله ﷺ وتصلي ركعتين في غير وقت فريضة ثم تستخير الله مائة مرة ومرة ثم تنظر فإن عزم الله لك على البحر فقل الذي قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

زوجين اثنين ﴿فِي﴾ خضم ﴿مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ - وهي ﴿كَالْجِبَالِ﴾ المتحركة بهيبتها - قضيةَّ التطام هام عام للبحر المحيط على الأرض كلها ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾[1] ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الكافر ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عن الفلك وعلّه عن الكافرين أيضاً ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.

والهول هنا هولان اثنان، هول في صامتة الطبيعة الهائجة المائجة، وهول في النفس البشرية المارجة الفالجة، فهما يلتقيان.

وتراه ناداه ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ وكيف يركب معهم وقد أخذت الفلك تجري بهم في موج كالجبال؟.

علّه يناديه في اللحظات الأخيرة من رجاء النجاة وهي اللحظات الأولى من جريها ولمّا تعلو علواً لا يمكن معه ركوبها بمدِّ يدٍ أم طُنُب، أو بسَبْح له يمكنه للوصول إليها.

ولماذا يناديه وهو كافر ومع الكافرين، وليس في وعد النجاة إلّا أهله إلّا من سبق عليه القول ومن آمن، وسابق القول يشمل إلى امرأته ابنه قضيةَ الكفر المشترك بينهما، فلا هو مؤمن ينجو معهم، ولا هو من أهله الآهلين للنجاة حيث هم المؤمنون منهم دون الكافرين.

علّه كان يرجو إيمانه لمحة من الاستثناء الخاص ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ولم يسبق القول صراحاً إلا في امرأته كما في آية التحريم؟ ولكن ابنه مشمول لـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾! إلا أنه يبقى احتمال خروجه عن ذلك الظلم بلمحة ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾؟ ولكن سبق القول هنا ليس إلّا على ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حيث تعم الظلم من قومه إلى أهله والظالم فيهم امرأته وابنه، وليس اختصاص سبق القول في خصوص امرأته، سابقاً في قصة نوح

(١) سورة القمر، الآية: ١٤.

المحكية في القرآن كله، ولا نحتمل ذلك الاختصاص بوحي خاص لم يأت في القرآن، لأنه اختصاص غالط يغلِّط نوحاً في ابنه، ولكن امرأته مذكورة في ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[١].

أجل قد نتلمَّح من: ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أنه كان يفكر في أمره، عازلاً عن نوح والمؤمنين، وعن الكافرين، مما يؤيد كأنه متروٍّ في شكه، وكما تلمَّح إبراهيم عليه السلام من قول آزر: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[٢] فوعده الاستغفار واستغفر له ظناً منه أنه متروٍّ في ذلك المليِّ.

أم علّه كان منافقاً لا يبرز كفره لأبيه استجلاباً لصالح الرحمة الأبوية، وأن كونه مع الكافرين لا يعني كفره؟.

وقد يتأيد ذلك بـ ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ دون «من الكافرين» فالذي هو من الكافرين هو بطبيعة حاله يكون مع الكافرين.

وأما ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾؟ فقد لا تشمل ابنه لمكان ﴿قَوْمِكَ﴾ الظاهرة في غير الأقارب، إضافة إلى وعد النجاة لأهله إلّا من سبق عليه القول، وهو من أهله ولم يسبق عليه القول، إضافة إلى أنه قد يعني ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ في ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ أم بخروج امرأته خاصة لسبق القول عليها بخصوصها في آية ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾.

أو أنه رجى خروجه من الكفر دون تمام أم هو على أشراف الخروج، إذاً فـ ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ استنقاذ له من بينهم حتى يتخلص من كفرهم، ولكنه رغم زعمه ذاك يسمع نداء كفره الآيس من إيمانه في تلك الحالة الخطرة:

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

فيا حمقاه من ولد ويا عمقاه من ضلاله وكفره أنه يرى ذلك الموج العظيم الهضيم ولا يأوي إلى فُلك النجاة، فإنما «يرجو ليأوي إلى جبل يعصمه من الماء وكأن الموج يخاف جبله، فجاء الجواب الحاسم القاصم: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ ولا يرحم إلا من آمن، ثم ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ وعله من أنحسهم حيث طلب منه أن يركب دونهم فرفض فكان من المرفوضين.

وهنا يترك نوح ابنه إذ تبين له انه عدو لله، وإنما يسأل بعد غرقه استعلاماً عما حصل من وعد النجاة لأهله إلّا من سبق عليه القول.

ذلك، وحين تكون فلك نوح نجاة للمؤمنين معه بأمر الله، أفلا تكون العترة الطاهرة عليهم السلام مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سفن النجاة؟ وكما ورد في روايات[1].

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿وَقِيلَ﴾ والقائل بطبيعة الحال هو الله الذي قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[2].

وهنا روايات مختلقة تقول إن بعض المياه تمردت كماء الكبريت وماء

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣٦٠ في عيون الأخبار بإسناده إلى الرضا عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها زخ في النار، وفيه عن الخصال في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وتعدادها قال عليه السلام: وأما الثاني عشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يا علي مثلك في أمتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق.

(٢) سورة القمر، الآيات: ١١-١٤.

المُرِّ، وهي معروضة عرض الحائط إذ لا تخلُّف عن أمر الله في حقل التكوين والتدبير(١).

ولماذا ﴿وَقِيلَ﴾ مجهولاً؟ والقائل وهو الله معروف! علّه لكي لا يضخم تلك الإرادة من الله، فليس الله ليتكلف في ذلك القول تكوينياً كما لم يتكلف في قوله الأول ولا أي قول، إذاً فـ ﴿وَقِيلَ﴾ لمحة إلى أنه له تعالى هين، وإنما هو رهن إشارة خاطفة تتبعها رادفة.

وليس القول هنا لفظياً يخاطَب فيه الأرض والسماء، بل هو تكويني كما ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٢) و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٣) فهو أمر الإرادة التكوينية لمكان «أردناه» فلا يتخلف خلاف ما يروى(٤) لا التشريعية فإنه لها أمر ليفعل وقد يتخلف عن شرعته.

و﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ مما يدل على أن الأرض أظهرت ماءَها كلها على

---

(١) البحار ١١ : ٣١٧ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن نوحاً عليه السلام لما كان أيام الطوفان دعا المياه كلها فأجابته إلا ماء الكبريت وماء المر فلعنهما (فروع الكافي ٢: ١٨٨).
أقول: لم تكن دعوة نوح إلا دعوة الله تعالى إذ لا دعوة لنوح في الكون إلا بأمر الله، فكيف يتخلف عن أمره، ماء وغير ماء؟!.
وفيه ٣١٧ عن الحسن والحسين عليهما السلام أنهما قالا: إن الله تبارك وتعالى لما آسفه قوم نوح فتح السماء بماءٍ منهمر وأوحى إلى الأرض فاستعصت عليه عيون فلعنها وجعلها ملحاً أجاجاً.
أقول: وكيف يستعصي الله في أمره التكويني أي كائن؟ فما هذه إلّا من المختلَقات الزور!.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٤) نور الثقلين ٢: ٣٦٥ في تفسير العياشي إبراهيم بن أبي العلاء عن غير واحد عن أحدهما عليهما السلام قال: لما قال الله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] قال الأرض: إنما أمرت أن أبلع مائي أنا فقط ولم أومر أن أبلع ماء السماء، قال: «فبلعت الأرض ماءها وبقي ماء السماء فصير بحراً حول الدنيا» أقول: إذا عنى من «حول الدنيا» السماء المجاورة للأرض دون وجه الأرض فله وجه وإلا فلا وجه له حيث السماء ليست لتتخلف عن إقلاع مائها المخصوص بها.

ظهرها، وكما تدل ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾[1] فإنه التفجير الطليق للأرض كلها عيوناً جارية على وجهها.

ثم ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ دليل أن نصيباً من ذلك الماء كان يخص السماء وكما تدل ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[2] فقد غرقت الأرض كلها بكل مائها وبعض من ماء السماء، ثم ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ ماء منك ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: نقص حيث ابتلعت الأرض ماءها الخاص بباطنها، وأقلعت السماء مائها الخاص بها، فلم يبق إلا ماء الأرض الخاص بوجهها بحاراً وأنهاراً وسواقي وعيوناً كما كانت قبل الطوفان، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ الفلك ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ حيث مُرساها الأخير ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ غرقاً في الطوفان ثم حرقاً في النار.

وهكذا انطوى طومار هؤلاء المكذبين الكفار، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[3]!.

ويا لها من جملة مختصرة جميلة حاسمة تطوي ذلك الموقف الطويل الطويل طياً خاطفاً كأن لم يغن بالأمس، فقد انطوى طومار كل هؤلاء الملإ وامرأة نوح وابنه لفترة قصيرة يسيرة، فظلوا هامسين ناكصين، ثم غرقوا فلا تسمع لهم ولا همساً.

ويا لها من فصاحة وبلاغة قمة، بارزة لكل معارضة، حيث فشلت أمام القرآن كله، وأمام هذه الآية بخصوصها، فقد روي أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على ألباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفوا أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال

(١) سورة القمر، الآية: ١٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ١١.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا.

فهنا لا يذكر الله باسمه ولا باسم نوح والمؤمنين معه ولا قومه إلّا دعاءً: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حصراً في الموقف بعوامل الخلقة المأمورة، وحسراً عن طرح اسم الله، وكلٌّ واجدٌ موضعه من فاعل ومفعول، لأن كلاًّ معروف بموقفه، فلقد جمع عجاب من أسباب الإيجار والإعجاز ما اهتم بشأنها الرعيل الأعلى من رجال البلاغة، فغاصوا خِضمَّها، واستخرجوا ما استطاعوا من لآلئها، ولم تكن إلا قطرة من يمّ.

ومن ذلك خطاب الأرض والسماء ببلع الماء وقلعه، إنباءً عن نفاذ قدرته وسرعة مضي أمره وكان حصول أمره رهنَ لفظ الكلام دون معاناة ولا كلفة ولا لغوب ومشقة

ولطيفة أخرى هي أن ﴿ٱبْلَعِى﴾ أبلغ من: اذهبي بمائك، لأن في الابتلاع دليلاً على إذهاب الماء بسرعة إلى باطنها، وكذلك ﴿أَقْلِعِى﴾ فإنها أبلغ في الانجلاء، لأن في الإقلاع أيضاً معنى الإسراع إلى السماء، وذلك أدل على نفاذ القدرة وطواعية الأمور المقدرة من غير وقفة ولا لبثة.

ثم في المزاوجة بين «ابلعي وأقلعي» بلاغة عجيبة وفصاحة شريفة أدبية!.

فـ ﴿وَقِيلَ﴾ تكويناً وقولاً هما لله، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ غائضه هو الأرض بأمر الله، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أمر الله وفاعله هو الله ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ فاعله الفلك، و﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم الغارقون أجمعون.

ذلك، فلما ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

ترى أنه كان ابنه من صلبه؟ أم ابن امرأته من غيره؟ قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ

﴿أَهْلِى﴾ وقول الله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾[(١)] يدلان على أنه في الحق كان ابنه من صلبه، ولا يقال لابن الزوجة أنه ابن الزوج إلَّا بمجاز بعيد وقرينة صارحة تدل عليه وهي هنا منفية.

والقول ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ يعني أنه من امرأته وهي أهله[(٢)]، فهذه قرينة أنه كان ابنها لا ابنه، إنه مردودٌ بقول الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[(٣)] لو أريد أنه من امرأتي، فقد انقطع عنهما، فكيف يكون - إذاً - ابنه من أهله؟.

ثم امرأته وهي من أهله سبق عليها القول نفسها، فكيف يسأل نوح ربه عن ابنه كيف غرق وهو من أهله هذه المحكوم عليها نفسها بالغرق؟!.

فإنما ﴿ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ يعني أنه كان من أهله الموعودين بالنجاة في ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[(٤)] ولمَّا يتبين له عليه السلام أنه داخل في سابق القول، فقد يسأل استفهاماً دونما استفحام، أنك يا رب قد وعدتني نجاة أهلي إلّا من سبق عليه القول وهم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وظلوا ظالمين، كما وعدت غرق الظالمين، وابني هذا من أهلي وهو ظالم، فوضح لي يا رب ما عمي علي من أمره بين الوعدين.

ولمَّا يتبين لي أنه حقاً من الظالمين كما امرأتي، إذ لم يظهر منه كفر ما

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٢.

(٢) البحار ١١ : ٣٣٧ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ونادى نوح ابنه، فقال: ليس بابنه إنما هو ابنه من زوجته على لغة طي يقولون لابن المرأة ابنه (تفسير القمي ٣٠٤).
أقول: لم ينزل القرآن - فقط - على لغة طي، وحتى إذا نزل بها فغير فصيح ولا صحيح أن يعبر عن ابن المرأة بأنه ابنه مجازاً دون قرينة، بل والقرينة قاطعة أنه ابنه نفسه. وأغرب من ذلك ما فيه عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول نوح: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هُود: ٤٢] قال: ليس بابنه، قال قلت: إن نوحاً قال: يا بني قال: فإن نوحاً قال ذلك وهو لا يعلم» أقول: هلا يعلم أنه ليس ابنه من صلبه فعله من امرأته من الزنا أمّن نكاح وأنه دعيّ، وهذا لا ينسب إلى أحمق الناس وأغفلهم عن نسبه!.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.

حق مهما تخلف عن أمري بركوب السفينة، فإنه هو الذي دعا على الكافرين كلهم: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[(١)] والقائل: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)] فلو كان يرى أن ابنه منهم لما كان يدعوه لركوب السفينة، ولا يعرض ما عرضه بعد غرقه بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى...﴾ وقد نهاه الله أن يخاطبه في الذين ظلموا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[(٣)] فذلك العرض ولا سيما بعد الغرق قد لاح له أنه كالفرض استعلاماً لغريب الموقف.

ذلك ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: حق كلمه دونما استثناء لمكان التعريف للخبر الذي يستحق التنكير، فوعدك الحق كلاً وإنك تنجي أهلي ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[(٤)] ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ كما حكمت بغرق ابني وهو من أهلي، فوضِّح لي يا رب إن شئت كيف هذا وذاك حتى أخرج من جهلي، ومع كل هذه التفاصيل ليس في النص أنه سأل أو دعا، وإنما نادى نداء الوالد الحنون بولده، ربَّه الحنون بموعده في عباده، وإنما ينتج هاتان المقدمتان الحكم بنجاته، ولكنه لم يستنتج ذلك تأدباً، بل ويحكم عام حكم بخلافه: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فحكمك حق، وذلك العرض لا يعني إلا بيان الحال العضال.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ الآهلين للنجاة، لأنه كان من الظالمين، فقد كان

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١١٨.
(٣) سورة هود، الآية: ٣٧.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.

امرأتك من أهلك وسبق عليها القول لأنها كانت من الظالمين، وهكذا ابنك مهما كان من أهلك نسباً وولادة، ولكنه ليس من أهلك الرسالي حتى يكون معك في حقول الرحمة الرسالية، فالأهلية المنجية هي التي يتبناها العقيدة والعمل الصالح لبيت الرسالة، دون أهلية الصلب وسواها، غير الآهلة للحقل الرسالي، فـ ﴿أَهْلَكَ﴾ هم كل أهله آهلين وسواهم، ثم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ يستثني امرأته عن أهلية النجاة رغم أنها داخلة في أهلية السبب، فـ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ تعني أهلية النجاة، أو من أهلك الموعودين بالنجاة، بل هو من المستثنين عن النجاة لـ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فقد «نفاه الله عنه حين خالفه في دينه»[1].

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أنه ليس من أهلك الآهلين، فتسألني لماذا لم ينج من الغرق، ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ عن ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في سؤالك.

وقد يعني ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ - إضافة إلى ابنه - سؤالَه المترقب: لماذا أهلكته وهو ابني وقد استثنيت أهلي وهو منهم؟.

وهنا يتوضح لنا بنُصوع ونَصوح أن ليس قرابة النسب والسبب وما أشبه مما تضر أو تنفع، فإنما هما من حصائل الأهلية العقيدية والعملية فتنفع، أم ضدها فتنقع، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

أجل، إن للهالات النسبية والسببية - كما للحالات المساعدة في

---

(١) البحار ١١: ٣٢٠ عن الحسين بن موسى الوشاء عن الرضا عليه السلام قال قال لي: كيف تقرؤون: قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح؟ فقلت: من الناس من يقرأ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: كلا! لقد كان ابنه ولكن لما عصى الله نفاه عن أبيه، وبنقل آخر كما نقلناه: نفاه... وفيه ٣٢١ عن الرضا عليه السلام على ضوء الآية: فأخرجه الله عز وجل من أن يكون من أهله بمعصيته.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

مختلف الظروف - إنها لها تأثيراً في تضخيم الصالحات والطالحات، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[١].

وتراه بعدُ جهل وسأل ما ليس له به علم من كون ابنه من الظالمين فلم يكن من أهلِهِ الآهلين؟ النص هنا ساكت عن سؤاله، والآية التالية تنفي على حد قوله سؤاله:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

فسؤال ما ليس للسائل به علم سؤالان اثنان، سؤال محظور وهو سؤال الاعتراض: لِمَ أهلكت ابني وهو من أهلي، ولم يكن، فإنما طرح الموقف المجهول لديه ليقف على ما يجهله من قضية ضلال ابنه، ولما يتبين له أنه عدو لله دون سؤال، ثم ذيَّله بـ: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مما يصرح بكامل رضاه بحكمه تعالى في ابنه على أية حال له كما في كل الأحوال.

ثم وسؤال محبور أم هو لأقل تقدير غير محظور وهو الذي ينتجه ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى...﴾ وليس ذلك من طرح السؤال، بل هو أشبه بعرض الحال كما عرضها أيوب: رب ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٢].

وليس ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ إلّا حظراً عن مستقبل السؤال دون حاضره، أو ماضيه، كيلا يقع في فخ السؤال المحظور قضيةَ الرحمة الأبوية، ناسياً أنه تعالى ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وكما صدق بكل تصديق وعظ ربه حيث: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ وعوذاً بالله ألّا يعيذه ربه بعد دعائه عن هذا

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤١.

السؤال!، ثم ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ صداً عن هكذا سؤال غفر الدفع ولمّا يحصل، دون غفر الرفع بعدما حصل ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ حداً صالحاً بكل سؤال ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ موقف العبودية السليمة وكامل التسليم.

وأقصى ما يحتمل هنا أن سؤاله الاستعلام أيضاً كان غير محبور ولا مشكور، فإنه كان يعلم أنه تعالى ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وأن «ابنه من أهله» وقد استثنى أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[1] ومع الوصف أهلَكَ ابنه مع سائر الظالمين، وقضية الأدب الرسالي هي كامل السكوت في مثل ذلك الموقف الرهيف الرعيب.

ولكنه لمَّا يسأل - مهما كان في حضون السؤال - ذلك السؤال الاستعلام حتى أدركته العصمة الربانية فلم يسأل، وكل ما في الأمر أنه عرض المسرح بموقفه منه راجياً أن يوضِّح له ربه ليعلم بعد جهل، وهو عرض أديب أريب، ولكنه تعالى أراده ألّا يسأل ولا يطرح مسرح السؤال، وقد فعل فلم يسأل استعلاماً فضلاً عن اعتراض، وإنما عرض الموقف كما عرضه أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[2] عرضاً دون أي سؤال لا محبور ولا محظور.

ذلك، ففي مثلث العرض: الاستعلام والاستفهام والاستفحام، لم يكن من نوح عليه السلام حسب النص إلّا العرض، وقد كفاه ربه عن استعلامه بـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ونهاه عن مستقبل سؤال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ...﴾، ولو اعتبر العرض للسؤال - أيضاً - سؤالاً، فغاية ما فيه أنه رغم كونه من حسنات الأبرار، هو من سيئات المقربين، فلا تنافي كيان العصمة الرسالية.

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٢) سورة ص، الآية: ٤١.

فهل إن محمداً ﷺ الذي يؤمر بالسؤال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] إذا سأل ما يجهل يفعل محظوراً؟ فضلاً عن العرض للسؤال وهو أدب في حقل السؤال، فليس ذلك العرض من سيئات المقربين، فضلاً عن كونه سيئة في شرعة الله، مهما كان سؤاله عن أمره تعالى دون سؤال نوح عليه السلام.

ذلك، فلا دور لقيلة الجمعية المرسلين الأمريكية - بعد الاعتراض عليهم أن التوراة ينسب إلى نوح عليه السلام شرب الخمر الفادح - أن «هناك أيضاً معاصي ينسبها القرآن إلى نوح ومنها طلبه ما لا يجوز ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي. . .﴾[2] وزجره الله وهدَّده في سؤاله هذا وهو طلب منه المغفرة وهذا دليل على أنه أذنب. . .»؟.

فإن دليلهم عليل حيث النص لا يدل على سؤاله، بل هو عرض هو في معرض سؤاله ولمَّا يسأل، ثم ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تلحيقاً لهذا العرض ينبئ عن بالغ أدبه وتسليمه لربه.

فلم يكن هناك سؤال، أم ولا إرادة سؤال، ولأنه - وإن كان استعلاماً - قد ينافي سليم التسليم الرسالي لرب العالمين و- حسنات الأبرار سيئات المقربين - لذلك أدركته العصمة الربانية كيلا يقع في محظور ذلك السؤال - وإن لم يكن محظوراً ككلٍّ في شرعة الله - فنهاه ربه عنه فضلاً عما علاه من سؤال التأنيب! قائلاً: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ. . .﴾[3] وفيه انعطافة عطوفة من ربه عليه، نهياً عن أمثال هذا السؤال التي قد تشير إلى عدم التسليم لرب العالمين، فلم يسأل ولم يجهل.

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٥.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٦.

وليس النهي عن فعل دليلاً على واقعه فحظراً عن تكراره، حيث الأحكام الرسولية والرسالية أمراً ونهياً تترى على رسل الله ليحملوها لهم وإلى المرسل إليهم، فهي لهم أوامر ونواهي بدائية دون سبق لها لكي تدل الأوامر على تركهم المأمور به، أو تدل النواهي على اقترافهم للمحظور.

وهنا النهي موجَّه إلى مستقبل لذلك العرض ألّا يُلحِّقه بسؤال الاستعلام فلم يفعل، ثم ولا صراحة ولا لمحة أنه سأل ما ليس له به علم أي سؤال من ذي قبل ولا بعده، فقبله عرض وبعده: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ...﴾[1] والله يعيذ المستعيذ به الصادق ولا سيما رسله، وقد أمر الرسل على درجاتهم كما أمر رسول الهدى ﷺ على عصمته القمة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ...﴾[2] ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ...﴾[3] ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ وما أشبه من قول.

لذلك لم يؤنبه ربه لا من قبل ولا من بعد، اللّهم إلّا بخطابه الحنون المنون:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾:

هنا السلام والبركات ينزل على هؤلاء، وترى كما أن نوحاً والذين آمنوا معه يستحقونها، فهل - كذلك - تستحقها ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؟ كلّا! لمكان الاستئناف في ﴿أُمَمٞ﴾ رفعاً، فلا سلام عليهم ولا بركات ولا هم من أهل النجاة، ولم يكونوا وقتئذٍ معهم في الفلك - إلّا في الأصلاب والأرحام - حتى تشملهم سلام وبركات، أم هم معهم من أهل

(١) سورة هود، الآية: ٤٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٧.
(٣) سورة الناس، الآية: ١.

النجاة، بل هم الذين يقول الله عنهم: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(١) و﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾(٢).

ثم ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ تشمل إلى المؤمنين معه أمماً مؤمنة من أنسالهم، فلم يقل «أمم معك» ثم وهم أمة واحدة مؤمنة معه، بل ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ لتشمل معهم أمماً من أنسالهم مؤمنة، فـ «من» بالنسبة للأمة المؤمنة الحاضرة في الفلك بيانية، وهي لأنسال مؤمنة منهم تبعيضية، فلو كانت تبعيضية فقط لم تصلح لشمولهم أنفسهم فإنهم كلهم «أمة معك» لا ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ ولو كانت بيانية فقط لم تصلح لشمول أنسالهم المؤمنة فقط حيث الأكثرية الساحقة منهم أمم كافرة.

ذلك، ولكن الذين كانوا معه في الفلك لم يكونوا أمماً حتى تشملهم ممن معك بيانية، والصحيح أو الأصح أنها بيانية تبين «من معه» على مدار الزمن، فلا تعني «معه» معية زمانية ومكانية حتى تختص بهؤلاء الخصوص، بل هي معية رسالية تعم كافة الرساليين مرسلين ومرسلاً إليهم المؤمنين، ثم ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ليسوا ممن معك، فهم غيرهم على مدار الزمن، فـ ﴿أُمَمٌ﴾ هنا مبتدأٌ علَّ ظرفه «هناك» وخبره ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ...﴾.

إذاً فـ ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ هما على كل مؤمني التاريخ الرسالي منذ نوح إلى خاتم النبيين وإلى يوم الدين، ثم ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هم كل كفرة التاريخ الرسالي طول الزمان وعرض المكان.

و«سلام» هنا هو سلام في الإيمان أن يسلمهم الله عن اللَّاإيمان ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ هي بركات الإيمان معنوية ومادية، ثم التمتيع لأمم كافرة من

(١) سورة يس، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١١.

أنسالهم هو متعة الحياة المادية لفترة حياتهم الدنيوية ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

«تلك» الإنباءات هي ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ حيث لا يعلمها إلّا الله، لانقطاع التاريخ عنها، وعجزه على حضوره عن تلقي الواقع كله وعرضه، وإنما ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ لتكون على خبرة منها فأهبةٍ للتصبُّر على أذى قومك اللدّ ولظاهم ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوحي «فاصبر» على ما يقولون ويفعلون من تكذيب وعناد، فإن الحياة ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ لهذه الضيقة الملتوية، هي ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ فـ ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ تعم العاقبة الأولى لهذه الحياة والأخرى، ومن الأولى الحياة الزاهرة الباهرة زمن القائم المهدي من آل محمد ﷺ.

سفينة نوح عليه السلام وأهل بيت محمد ﷺ:

يروى عن النبي ﷺ متواترة قوله: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق - زخَّ في النار - زجَّ في النار»[1].

أضواء على قصة نوح:

١ - ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ترى وكيف يصبح الإنسان نفسه عملاً غير صالح؟ فهل ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[2] فعلاً لا مصدراً؟ وهو خلاف النص المتواتر المعتمد عليه! أم المرجع لـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ هو نداء نوح؟ وهو ليس عملاً،

---

(١) تجد حديث السفينة في ملحقات إحقاق الحق ٩: ٢٧٠ - ٢٩ و١٨: ٢٨٤، ٣١١ - ٣٢٢ و٩: ٢٨٩، ٢٩١ و١٨: ٣١٩ و٤: ١٤٩، ٤٨٢ و٥: ٨٦ و٦: ٤٤٧ و١٣: ٧٥ - ٧٦ و١٨: ٢٨٤، وفيه «نحن سفينة النجاة من تعلق بها نجى ومن حاد عنه هلك» ٩: ٢٠٣، ٢٥٤.
أقول: في هذه الصفات تجد مئات من روايات السفينة بألفاظ مختلفة تتحد في أنهم عليهم السلام سفن النجاة.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.

بل هو قول!، أم هو عمل غير صالح حيث عمل في ولادة غير صالح إذ كان من الزنا كما ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[(١)] في امرأة نوح وامرأة لوط، وخيانة المرأة الفاتكة هي أن تجيء بولد من غير بعلها؟ و«ابنه - و - ابني» يثبتان أنه كان ابنه، وولد الزنا لا ينسب إلى صاحب الفراش حيث يثبت أنه ولد الزنا، ونساء الأنبياء لسن بخائنات جنسياً مهما خُنَّهم عقيدياً وعملياً، حيث النكاح بالزانيات ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)] على طول الخط، ومع الغض عن أي برهان لفظي فالدعارة في بيت النبوة مزرءة ضارية بهذه الكرامة.

ثم وكون الإنسان ولد الزنا ليس مما يحرمه الإيمان والرحمة الربانية، كما وأن ولادته من الزنا ليس من عمله فكيف يحاسب به؟.

الحق ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ حيث كرَّس كل أعماله لغير صالح فصدق عليه المصدر كأنه تجسُّد عمل غير صالح، كما وأن السؤال حول قصته ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ لساحة الرسالة.

وهنا سلبية أهلية ابن نوح من صلبه عليه السلام عنه، مما يدل على أن الأهلية الصالحة هي صلاح العمل والعقيدة، وليست النسب ليحسب بفضله فضيلةً أم برذله رذيلة، اللَّهم إلَّا بانضمام فضيلة أو رذيلة مكتسبة فنور على نور أم ظلمة على ظلمة، فإن «لمحسننا كفلان من الأجر ولمسيئنا ضعفان من العذاب»[(٣)] كما قال الله تعالى بحق نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(٢) سورة النور، الآية: ٣.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٦٩ في العيون باب قول الرضا عليه السلام لأخيه زيد بن موسى حين افتخر على من في مجلسه بإسناده إلى الحسن بن موسى الوشا البغدادي قال: كنت بخراسان مع علي بن موسى الرضا عليه السلام في مجلس وزيد بن موسى حاضر قد أقبل على جماعة في المجلس يفتخر عليهم ويقول: نحن، وأبو الحسن عليه السلام مقبل على قوم يحدثهم فسمع مقالة زيد فالتفت إليه فقال: يا زيد أغرك قول ناقل الكوفة: إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله تعالى ذريتها على النار والله ما ذاك إلا للحسن والحسين عليهما السلام وولد بطنها خاصة، وأما أن يكون موسى بن =

كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ...﴾[١] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢]. ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[٣] وذلك قضيةُ الموقف، هنا انتساباً إلى بيت النبي الطاهر، وفي غيره حسب الملابسات المقتضية لمضاعفة العذاب أو الرحمة.

إذاً فـ ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[٤] لا تعني إلّا أهلية النسب أم هو استثناء منقطع، وهنا ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٥] تعني أهلية الحسب، لـ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ للنجاة مع أهلك الآهلين لها.

= جعفر عليه السلام يطيع الله ويصوم نهاره ويقوم ليله وتعصيه أنت ثم تجيئان يوم القيامة سواء، لأنت أعز على الله عزّ وجلّ منه، إن علي بن الحسين كان يقول: لمحسننا...

قال الحسن الوشا: ثم التفت إلي فقال: يا حسن كيف تقرأون هذه الآية ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هُود: ٤٦] ؟ فقلت: من الناس من يقرأ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ومنهم من يقرأ ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فمن قرأ أنه ﴿عَمِلَ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: كلا! لقد كان ابنه ولكن لما عصى الله عزّ وجلّ نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم يطع الله عزّ وجلّ فليس منا وأنت إذا أطعت الله فأنت منا أهل البيت» وفيه عن ياسر أنه خرج زيد بن موسى بن جعفر عليهما السلام أخو أبي الحسن عليه السلام بالمدينة وأحرق وقتل وكان يسمى زيد النار فبعث إليه المأمون فأسر وحمل إلى المأمون فقال المأمون: اذهبوا به إلى أبي الحسن عليه السلام قال ياسر: فلما أدخل إليه قال له أبو الحسن الرضا عليه السلام: يا زيد أغرك قول سفلة أهل الكوفة أن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار، وذلك للحسن والحسين عليهما السلام خاصة، إن كنت ترى أنك تعصي الله وتدخل الجنة وموسى بن جعفر أطاع الله ودخل الجنة فأنت إذاً أكرم على الله من موسى بن جعفر عليهما السلام، ما ينال أحد ما عند الله إلا بطاعته وزعمت أنك تناله بمعصيته فبئس ما زعمت، فقال له زيد: أنا أخوك وابن أبيك، فقال له أبو الحسن عليه السلام أنت أخي ما أطعت الله عزّ وجلّ، إن نوحاً عليه السلام قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: ٤٥] فقال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فأخرجه الله من أن يكون من أهله بمعصيته.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣١.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٥) سورة هود، الآية: ٤٦.

وعدم تلحيق ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ بـ «ولا ممن آمن بك» يعمم الأهلية لكافة الآهلين للنجاة، سواء أكانوا من أهله نسباً أم سواهم فـ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ لأنه كان مخالفاً له، وجعل من اتبعه من أهله»[١] وهذا إشارة إلى المستفاد من آية الأنبياء في ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَـٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾[٢]، فلو عنى من «أهله» هنا أهل نسبه لشمل زوجه وابنه الكافرين ولم يشمل المؤمنين معه!، ولا فحسب أنهم كلهم أهله، بل وهم كلهم ذريته كما ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾[٣] فهم - إذاً - ذرية الحَسب وليسوا - فقط - ذرية النَّسب وإن شملت المؤمنين منهم.

«فاعلم أنه ليس بين الله عزّ وجلّ وبين أحد قرابة»[٤]، بل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[٥] فحسب و﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٦] وليست الولادة خيِّرة وشرِّيرة هي من سعي المواليد.

ذلك، وقد يستشهد بـ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ نفياً لكون ابن نوح ابنه، حرمان الولد الكافر عن ميراث الوالدين المؤمنين، ولكنه ليس سلباً لأصل النسب، حقيقة ولا تنزيلاً طليقاً، وإلا لتسلب عن الكافر كافة أحكام

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٦٨ في مجمع البيان روى علي بن مهزيار عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا عليه السلام قال قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله تعالى قال لنوح: . .

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٦، ٧٧.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

(٤) المصدر في كتاب الغيبة للشيخ الطوسي بإسناده إلى إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الدار عليه السلام: أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمنا فاعلم. . . ومن أنكرني فليس مني وسبيله سبيل ابن نوح عليه السلام.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٦) سورة النجم، الآية: ٣٩.

النسب، إنما المقصود هنا سلب ميِّزة النسب الرسالي والإيماني، أنه لا يلحق والده في النجاة وهي قضية الإيمان.

أجل إن الوشيجة الآهلة لعريق الصلة بين أفراد هي - فقط - وشيجة الإيمان بالله والعمل الصالح، وليست وشيجة الدم والنسب، ولا الأرض والوطن، ولا القوم والعشيرة، ولا اللون واللغة، ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطبقة أماهيه من وشائج الأرض العريضة الحضيضة، إنما هي وشيجة الإيمان التي تجتاز فواصل الزمان والمكان وسائر الفواصل، فتوحِّد من خلالها بين مختلف الأفراد.

فحين يقول نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[1] قاصداً وشيجة النسب يرد عليه ربه ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ولماذا؟ لـ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ حيث انقطعت بينكما وشيجة الإيمان ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]!.

وهذا هو المعلَم الواضح البارز على مفترَق الطريق بين نظرة الدين الحق إلى الوشائج والروابط، وبين نظريات الجاهليات على مختلف مبادئها، ثم مَعْلم آخر في نفس الوشيجة الإيمانية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

٢ - هل إن طوفان نوح عليه السلام عم الأرض كلّها بمن عليها من الكفار؟ أم خص أرض دعوته التي كان يدعو فيها؟.

إن قضية الرسالة العالمية لنوح عليه السلام هي شمول دعوته كل سكنة الأرض طيلة دعوته كما وظاهر القرآن كالنص يؤيد شمولية هذه الدعوة

(١) سورة هود، الآية: ٤٥.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

والغرق، فقد انتسلت البشرية بعد الطوفان - فقط - ممن حمل مع نوح في الفلك: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[(١)].

ودعى نوح على كل سكنة الأرض إلّا الذين آمنوا معه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[(٢)] وقد استجابه الله كما دعي: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[(٣)].

ولا تعني الدعوة الرسولية أن يدعو الرسول بنفسه كافة المرسل إليهم، بل وبحمَلَة رسالته الذين يوحى إليهم أم هم الربانيون من أمته، ثم الأرض التي كانوا يسكنونها كانت هي المعمورة ووقتذاك، وعلّها رقعة صغيرة منها شملتها دعوة نوح عليه السلام بنفسه أم بحمَلَة رسالته، فقد عمَّ الطوفان وطمَّ هذه الرقعة بسائر الأرض، وقضي على كافة المتخلفين عن رسالته في الأرض كلها.

ذلك وقد يكفينا هذا التخمين الأمين لتصديق ذلك الحدث الكوني الهائل الذي جاءنا نبأه من مصدر الوحي الوثيق عن ذلك العهد السحيق الذي لا يعرف عنه التاريخ شيئاً حيث يلحقه ولا يقارنه أو يسبقه حتى يخبرنا عنه، وهنا وفي سواه أصدق تاريخ لمصدقي الوحي هو الوحي وسائر التاريخ أياً كان ومن أي كان وأيان ليس يعتمد عليه كوثيقة قطعية.

وقد يتأيد شمول هذا الطوفان الأرض كلها بما يلي:

* لو لم يشمل الأرض كلها فما هو الداعي أن يحمل فيها من كلّ زوجين اثنين، إذ كانت تكفيه حيوان سائر الأرض لو أنها غير مشمولة للطوفان.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢٦.
(٣) سورة القمر، الآيتان: ١١، ١٢.

* ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ دليل باهر لا مرد له على أن المعني منها هو كلُّ الأرض، حيث الأرض تعنيها كلها إلَّا إذا قامت قرينة على تحديدها، وهنا ﴿دَيَّارًا﴾ قرينة على إطلاقها، ثم «لن يلدوا» ليس يختص بكفار خصوص في أرض خاص.

* وجود أصداف وحيوانات بحرية حجرية في قلل الجبال هو من الدلائل الكونية على أن الطوفان طم الأرض بقللها كلها.

٣ - هل لسفينة نوح عليه السلام من آثار كما يشير إليها القرآن ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾[1] فقد ذكرنا على ضوء آية الحاقة هذه[2] ما تحقق أخيراً من لوح خشبي من سفينته عليه أسماء الخمسة الطاهرة عليهم السلام باللغة الآرامية وهي لغة نوح عليه السلام ومن عجيب أمره أن هذه الصفحات من الفرقان التي تحوي قصة هذه اللوحة كانت في مطبعة مسيحية بيروتية تحت الطباعة فاشتدت الحرب وأحرقت فيما أحرقت هذه المطبعة وأنا في مكة المكرمة لمَّا هاجرت إليها في خضم الحرب اللبنانية، ولما راجعت المطبعة بعد أشهر للاطلاع على الجزء (٢٩) هذا، وفتش صاحب المطبعة على يأسه البائس، فإذا هو بكامل هذا المجلد المصفوف تحت كل الأنقاض، فبقي حائراً متسائلاً فقلت له: إن الصورة الفتوغرافية من هذه اللوحة الخشبية هي من ضمن ذلك المجلّد، فتجلّد على تبلُّده وأسلم.

ذلك، وجماعة من العلماء الأمريكيين - بإشارة بعض رجال الهند الترك - عثروا في بعض قلل جبال آرارات شرقي تركيا بمرتفع/ ١٤٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنها قطعات متلاشية من سفينة عظيمة

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ١١، ١٢.
(٢) الفرقان ٢٩: ٩٠ - ٩٣ فراجع.

قديمة نزلت ورست هناك، وقد يوافقه المروي عن الصادق عليه السلام [(١)] وتبلغ قدمتها لـ/ ٢٥٠٠ قبل الميلاد.

وقد أعطى القياس أنها قطعات من سفينته يعادل حجمها ثلثي مركب (كوئين ماري) الإنجليزية التي طولها/ ١٠١٩ قدماً وعرضها ١١٨ قدماً وقد حملت الأخشاب إلى سان فرانسيسكو لتحقيق أمرها، وأنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح عليه السلام؟[(٢)].

وأين جبل الجودي؟ قد يكون هو آراراط كما في التوراة، ويؤيده اللوحة والقطعات الأخرى من السفينة التي عثر عليها فيه، وتؤيده اعترافات غربية وروايات[(٣)]:

بشارات حول «الجودي»:

إنه - حسب التحقيق - جبل «آرارات» وقد نقلنا عن مجلة «أنقاد نيزوپ» السوڤيتية وغيرها نبأ اللوحة الخشبية من أنقاض سفينة نوح التي استوت على الجودي، أن عليها أسماء الخمسة الطاهرة المحمدية عليهم السلام باللغة الآرامية، في هذا الفرقان[(٤)].

«آرارات» هي أرفع الجبال في أرمينستان، وقد انقطعت عنها سلسلتان

---

(١) البحار عن الحسن بن صالح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال سمعت أبي يحدث عطا قال: كان طول سفينة نوح عليه السلام ألفاً ومائتي ذراع وكان عرضها ثمانمائة ذراع وعمقها ثمانين ذراعاً... وقال الحسن كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع.

(٢) القسم الأخير نقلناه عن تفسير الميزان للمغفور له العلامة الطباطبائي حيث نقله هو أيضاً عن جريدة كيهان المنتشرة أول سبتامبر ١٩٦٢ الموافق لغرة ربيع الأول ١٣٨٢ القمرية عن لندن - آسوشيتدبرس.

(٣) البحار ١١ : ٣٣٨ عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث قال: هو جبل بالموصل.

(٤) الفرقان (٢٩: ٩٠ - ٩٣) وقد نقلتها مجلة «ويكلي ميرر» الأسبوعية اللندنية و«استار» اللندنية، وجريدة «سن لايت» الصادرة في مانجستر وجريدة «ويكلي ميلر اللندنية»، وجريدة «الهدى» القاهرية...

متجهتان إلى إيران، والسلسلة الأصلية تمضي من جنوبي (أرض روم) وتتصل بالمرتفعات الشمالية لآذربيجان، وسلسلة أخرى منها متجهة إلى الجنوب وهي واقعة بين آذربيجان الغربية وتركيا، ورأس الخط لهذه المرتفعات هو مقسم المياه الذي يربط القسم الشرقي من المياه إلى بحيرة أرومية، كما يرسل مياه الجانب الغربي إلى بحيرة (وان) في تركيا.

جبل «آرارات» موسومة بأسماء عدة، ففي اللغة التركية (اگريداغ): المنحَدَر، وبالفارسية (كوه نوح): جبل نوح، وفي العربية (الجودي) وبالأرمينية (ماسيس) أو (مازيك) و(ميزه زوزار) أي: جبل السفينة.

لآرارات مرتفعتان باسم: نوح الكبير ونوح الصغير، وارتفاع الأولى (٥١٥٦) متراً والثانية (٣٩١٤) متراً، وهما مستورتان دوماً من الثلج.

مرتفع النوح الكبير يسمى في المأخذ الإسلامي بـ (جبل الحارث) وهو على شاكلة قبة بمحيط قدره ١٥٠ - ٢٠٠ قدماً، والنوح الصغير يسمى بـ (جبل الحويرث).

منخفضات آرارات واقعة في تركيا، وهي تتشكل من مرتفعات وتلال بركانية صامتة لها منظر رعيب رغيب.

آرارات من حيث موقعه الجغرافي الخاص، الواقع في حدود البلاد الثلاثة: إيران - تركيا - السوفيت، إنه ذو أهمية حدودية سوق الجيشية.

«جملي كارري» السياح، الذي سافر إلى إيران في عام (١١٠٥) هجرية قمرية بزمن السلطان سليمان الصفوي، يكتب في عرض سفرته أنه رأى في تركيا - عند عبوره بها - أديرة عدة للرهبان بآرارات حيث كانوا مقيمين بها، وهكذا جماعة آخرون من السياحين العابرين يشيرون إلى هذه الأديرة.

«آرارات» الموسومة بـ «ميزة زوزار»: جبل السفن، شهيرة عند الأرامنة بهذا الاسم والمعنى، ومن آثارها العتيقة خشبة هي الآن في مودع الآثار

العتيقة «لوور» في باريس، التي يقول عنها خبراء الآثار العتيقة، إنها من أنقاض سفينة نوح عليه السلام.

لذلك نسمع (دوگلاس) الأمريكي، من كبار القضاة الأمريكيين أخذ يحقق عن مرتفعات آرارات، حتى اعترضته اعتراضات السوگيت فانصرف عن قصده.

ذلك، وتؤيده رواية التوراة تصريحاً بـ (آراراط) - على حد تعبيرها - (الملوك الأول ١٩ : ٣٧) و(أشعياء ٣٧: ٣٨).

وهي في الشهرة لحد يعبر عنها (أرميا ٥١ : ٢٧) بـ «ممالك آراراط قائلاً: «ارفعوا الراية في الأرض. اضربوا بالبوق في الشعوب قدّسوا عليها الأمم. نادوا عليها ممالك آراراط ومِنّي وأشكنار...».

ويقول الدكتور بوست الأمريكي في قاموس الكتاب المقدس (٣٠): إن الروايات تقول: إن سفينة نوح استوت على آراراط الذي يسميه الأعراب (الجودي) والأرمن (مسيس) والترك (اگريداغ) وإيران (جبل نوح) والأوروبيون (آراراط).

وأوّل من صعد إلى أعلى القمم لآرارات هو: ى. ى. ف. و.

يارو، في سبتامبر - أو - أكتوبر ١٨٢٩ م، الذي فتح الطريق إليه لمحققين آخرين.

ومن جهة أخرى تقول التوراة: مدفن نوح هو بلدة (مرند) من أتباع «آذربيجان الشرقية» وقد تتراءى القلة الجبلية من نوح الصغير من هذه البلدة.

وتصرح أيضاً أن سفينة نوح عليه السلام استوت على آراراط: الجودي.

ذلك وإليكم عرضاً من هؤلاء الذين صعدوا إلى قمة الجودي: آراراط: إن أقدم ما اطلعنا عليه هو عرض بهذا الصدد من تاجر - ونيزى - اسمه (جوزافا باربار) الذي سافر عام ١٤٧٨ م. ٨٨٠ هجرية قمرية إلى إيران

سفيراً إلى بلاط «أوزن حسن»: أمير آق قويونلوين - وقد تأثر عميقاً من السوابق التاريخية لـ (آرارات)، أنه يكتب «... تصل بعد ثلاثة أيام إلى القمة الجبلية الموسومة بـ «لورئو OEROL» ثم بعد ثلاثة أيام تصل إلى جبل استوت سفينة نوح عليه بعد الطوفان العظيم.

... هكذا مضيت ومضيت حتى وصلت في ٢٦ جونية إلى جبل نوح، وهو جبل رفيع شاهق، مستور طول أيام السنة من الثلج.

كان يقال كثيرون حاولوا الوصول إلى قمته، ففرقة منهم لم يرجعوا، ورجعت فرقة أخرى قائلة: لا سبيل للوصول إلى القمة[١].

من ثم «جان باتيست تاورينه» الفرنسي، الذي سافر ستَّ مرات إلى الشرق بين ١٦٣٢ - ١٦٦٨ م وزار إيران تسع مرات، وسفرته الأولى كانت زمن السلطان صفي خليفة السلطان عباس الصفوي.

يقول في كتابه حول (آرارات) ومهبط سفينة نوح عليه السلام: في خمسة ليوات - واحد المسافة آنذاك - يبتدىء فاصل (إيروان) الجنوب الشرقي لجبل (آرارات): آقري داغ، الذي صار شهرة الآفاق حيث استوت سفينة نوح عليه...

ففي اليوم الأول.. والثاني يتبين جبل آرارات: «آگري داغ» ناحية الجنوب، وبجنبه أديرة، والأرمن يسمون هذا الجبل (مزوشار) أي: الجبل الأبيض، وقد نزلت سفينة نوح عليه بعدما انطفى الطوفان، وهذا الجبل ينفرد عن سلسلة الجبال الأرمينية، وهو أرفع من هذه السلسلة تماماً.

ولما ينظر الأرمن إلى هذا الجبل من بعيد يسجدون ويقبِّلون الأرض، ثم ينظرون إلى السماء يدعون ويمسحون علامة الصليب على وجوههم.

(١) سفرنا مع ونيز ص ١٠٢، ترجمة الدكتور منوجهر أميري ١٣٤٩ هجرية شمسية.

ثم يستمر قائلاً: نخجوان هي حسب ما يعتقده الأرمن من أقدم البلاد في المعمورة، وهي واقعة بفاصل ثلاث ليوات من هذا الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح.

نخجوان - وهي لغة أرمينية - تعني مكان السفينة، فإن «نخ» هي السفينة، و«جُوان» مهبط، فهي مهبط السفينة.

وتعتقد الأرمن أن نوحاً عليه السلام سكن هذه البلدة بعد الطوفان، ودفن فيها، ودفنت زوجته في بلدة «مرند» بممرّ «تبريز» - وهي طبعاً زوجته المؤمنة - ومن ثم (شواليه شاردن) العالم الفرنسي الذي سافر إلى إيران سنة ١٦٦٥ م، زار (آرارات) وكتب عنه ما يلي:

منبع (أرس) جبل يقال إنه مهبط سفينة نوح، ولعل (أرس) مشتقة من (أرارات).

ويقول: جملي كارري - الذي سافر إلى إيران زمن السلطان سليمان الصفوي: إن طبيباً هولندياً يعالج راهباً في دير قرب قلة آرارات صعد إليها لمدة سبعة أيام، ينقل عن هذا الراهب: أن آثار سفينة نوح ظاهرة في منحدر الجبل، والأرمن يسمون هذا الجبل (ميزه زوزار) أي: جبل السفن...»[١].

وتقول «مدام ديولافوا» عن سفرتها سنة ١٨٨٢ م عابرة عن آرارات: بناءً على النقل التاريخي استوت سفينة نوح على قلة آرارات، ولو أن جماعة صمموا على الصعود إلى هذه القلة - على صعوبته - لوجدوا سفينة نوح عليه، هذه السفينة التي يُريها القسس بمنظارات قوية من دير بحيرة «سوانگاه» بقفقاز وعند ذلك سوف يتناسون كل صعوبات الطريق»[٢].

---

(١) سفرنا مج جملى كارری ١٠ - ١١.

(٢) سفرنا مج مدام ديولافوا (٢٣ و٢٥) المطبوعة بطهران ١٣٣٠ هجرية شمسية.

٥ - كم عاش نوح عليه السلام؟:

إنه عاش رسولاً حسب النص ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[(١)] ولا تتحمل السنة ولا العام غير المعروف من حدهما الزمني، والقول: علّه أسبوع وما أشبه حيث المصطلح في قديم الزمن هو ذلك التقدير للعام والسنة، إنه غولٌ، حيث القرآن لا يتَّبع غير المعروف من الصلاحات المتعودة زمن نزوله، فلو كان السنة أسبوعاً وما أشبه في زمن قبل القرآن - ولا دليل عليه - لم يصح في بلاغة عادية - فضلاً عن القمة القرآنية - أن يستعمل في القرآن المخاطب - منذ نزوله إلى يوم الدين - من يفهمون من السنة ما يفهمون.

ذلك، وإذا كانت مدة رسالته ألف سنة إلا خمسين عاماً فعمره أكثر منها بقدر يصلح لحمل الرسالة فهو ألف أو يزيد[(٢)]، وبذلك تثبت إمكانية هكذا

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

(٢) بحار الأنوار ١١: ٢٨٥ - ٢ عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: عاش نوح ألفي سنة وخمسمائة سنة منها ثمانمائة سنة وخمسون سنة قبل أن يبعث وألف سنة إلا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوهم ومائتا عام في عمل السفينة وخمسمائة عام بعدما نزل من السفينة ونضب الماء فمصر الأمصار وأسكن ولده البلدان ثم إن ملك الموت جاءه وهو في الشمس فقال: السلام عليك فرد عليه نوح عليه السلام وقال له: ما حاجتك يا ملك الموت؟ فقال: جئت لأقبض روحك، فقال له: تدعني أدخل من الشمس إلى الظل؟ فقال له: نعم، فتحول نوح عليه السلام ثم قال: يا ملك الموت فكان ما مر بي في الدنيا مثل تحولي من الشمس إلى الظل فامض لما أمرت به فقبض روحه.

وفيه عنه عليه السلام قال: عاش نوح بعد النزول من السفينة خمسين سنة ثم أتاه جبرئيل فقال يا نوح إنه قد انقضت نبوتك واستكملت أيامك فانظر الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة التي معك فادفعها إلى ابنك سام فإني لا أترك الأرض إلا وفيها عالم يعرف به طاعتي ويكون نجاة فيما بين قبض النبي وبعث الآخر ولم أترك الناس بغير حجة وداع إلى وهاد إلى سبيلي وعارف بأمري فإني قد قضيت أن أجعل لكل قوم هادياً أهدي به السعداء ويكون حجة على الأشقياء، قال: فدفع نوح الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة إلى ابنه سام فأما حام ويافث فلم يكن عندهما علم ينتفعان به، قال: وبشرهم نوح بهود عليه السلام وأمرهم باتباعه =

تعمير واقعياً، فلا استبعادَ إذاً لطول عمر صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف وهو أعظم من نوح عليه السلام محتداً، وأحصل حاصلاً من تأسيس دولته العالمية الكبرى.

٦ - وكم كان عدد الراكبين في السفينة؟:

إنهم مع نوح عليه السلام يقرب كونهم ثمانين لعديد من الأخبار في تعديديهم، والأخبار التي تحكي عن قرية الثمانين التي نزلوا فيها فسميت بما سميت لهؤلاء الثمانين[١].

٧ - وهل بقي شيء من الأرض عتيقاً من الغرق؟:

في روايات عدة أن البيت العتيق كان عتيقاً من الغرق ولذلك سمي عتيقاً[٢] وهذا يناسب محتد ذلك البيت العتيق عن أن يُملك لأحد، والعتيق عن الإختصاص بأمة دون أمة، والعتيق القديم الذي لم يسبقه أي بيت فـ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٣].

= وأمرهم أن يفتحوا الوصية كلّ عام فينظروا فيها فيكون ذلك عيداً لهم كما أمرهم آدم عليه السلام . . .

أقول: قد اختلفت الأخبار والآراء حول عمر نوح عليه السلام بين ألف وألف وأربعمائة وخمسين أو سبعين وألف وثلاثمائة وألفين وخمسمائة سنة، والخبر الأخير المقر حياته بعد النزول من السفينة خمسين هو في نقل آخر خمسمائة كما رواه الكافي عنه عليه السلام وكافة الروايات تقرر ألفين وخمسمائة.

(١) البحار ١١ : ٣٢٢ عن الهروي قال قال الرضا عليه السلام : لما هبط نوح عليه السلام إلى الأرض كان هو وولده ومن تبعه ثمانين فبنى حيث نزل قرية فسماها قرية الثمانين لأنهم كانوا ثمانين، أقول: علها قرية في لبنان. تسمى الآن تمنين وهي مخففة «ثمانين» حيث يبدلون الثاء تاءً وهي بجنوبي لبنان قرب عين قانا وجباع الحلاوة بلدة الشهيد الثاني وجماعة من العلماء العامليين المعروفين.

(٢) البحار ١١ : ٣٢٥ عن ذريح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تعالى أغرق الأرض كلها يوم نوح عليه السلام إلا البيت فمن يومئذٍ سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق، فقلت له: صعد إلى السماء؟ فقال: لم يصل الماء إليه وإنما رفع عنه.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

هذا، وقد جاءت قصة نوح هذه في التوراة في (١٢٨) آية بشاكل ناكل قاحل إلا في مقاطع توافق القرآن، يُعرف المنافق منه عن الموافق بمقارنات نحولها إلى القارئين[1]، وبيننا وبينكم علامات العجاب: -! - والحكم للعقلاء المتشرعين بشرعة الله.

---

(١) ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين: ١ «وحدث لما ابتدأ الناس يكنزون على الأرض وولد لهم بنات. ٢ إن أبناء الله -!؛ رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كلّ ما اختاروا. ٣ فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرون سنة. ٤ كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله -! - على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم - ٥ ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كلّ تصور أفكار قلبه إنما هو شرّير كلّ يوم. ٦ فحزن الرب -! - أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. ٧ فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء! لأني حزنت أني عملتهم. ٨ وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.
٩ هذه مواليد نوح. كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله، وسار نوح مع الله، ١٠ وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث. ١١ وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً. ١٢ ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت إذا كان كلّ بشر قد أفسد طريقه على الأرض - ١٣ فقال الله لنوح نهاية: كلّ بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. ١٤ فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. ١٥ وهكذا تصنعه ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه، ١٦ وتصنع كوّاً للفلك إلى حد ذراع من فوق. وتصنع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. ١٧ فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كلّ جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كلّ ما في الأرض يموت. ١٨ ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك -! - ونساء بنيك معك. ١٩ ومن كلّ حي من كلّ ذي جسد اثنين من كلّ تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك تكون ذكراً وأنثى.
٢٠ من الطيور كأجناسها -! - ومن البهائم كأجناسها ومن كلّ دبابات الأرض كأجناسها اثنين من كلّ تدخل إليك لاستبقائها. ٢١ وأنت فخذ لنفسك من كلّ طعام يؤكل واجمعه عندك. فيكون لك ولها طعاماً. ٢٢ ففعل نوح حسب ما أمره به الله. هكذا فعل.
وقال الرب لنوح (الإصحاح السابع من سفر التكوين) ١ ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك لأني إياك رأيت باراً لدي في هذا الجبل. ٢ من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى -! - ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى. =

فقد تعبر عن الذكور بأبناء الله! وأن الله حزن وتأسف في قلبه من خلق الناس! وأنه أدخل السفينة زوجته وأبناءَه - وهي ووَلَدٌ له كافران -! ثم ولا يذكر المؤمنين معه، وأدخل كذلك طيور السماء حيث الغرق يغرقها مع دواب الأرض، والطيور لا تغرق! ثم وبالنسبة للدواب والطيور قد تقول اثنين اثنين طاهرة ونجسة، وأخرى تختص الطاهرة بسبعة سبعة، وأنه لما صار الطوفان كان عمر نوح ستمائة سنة، وقد لبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون!.

هذا، وقد جاءت في أخبار الأمم وأساطيرهم[(١)] - كما في القرآن

= ٣ ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى -! - لاستبقاء نسلٍ على وجه الأرض ٤ لأني بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة -! - وامح عن وجه الأرض كلّ قائم عملته. ٥ ففعل نوح حسب كلّ ما أمره به الرب.
٦ ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على وجه الأرض -! - ٧ فدخل نوح وبنوه -! - وامرأته -! - ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ٨ ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض. ٩ دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً.
١٠ وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. ١١ في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كلّ ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء. ١٢ وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. ١٣ في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. ١٤ وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الذبابات التي على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كلّ عصفور كلّ ذي جناح. ١٥ ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كلّ جسد فيه روح وحياة. ١٦ والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كلّ ذي جسد كما أمره الله واغلق الرب عليه.
وفي الإصحاح الثامن ٤ واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال آراراط.. وهكذا تستمر إصحاح من التوراة في - ١٢٨ - آية في سرد قصة نوح بتكرارات وتضادات وتناقضات تؤكد مدى الدخيل فيها عن الأصيل!.

(١) ففي رواية الكلدانيين الذين وقع الطوفان مبدئياً في بلادهم، أن «برهوشع» و«يوسيفوس» رويا أن «زيزستروس» رأي في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى وتطغى جميع =

والتوراة - أنباء الطوفان، مهما اختلفت كلها عن القرآن في ملابساته، مما يؤيد أصل الطوفان العام، وإن كان في نبإ القرآن كفاية.



= البشر وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقاءه ففعل، وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان، وقد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين. وروى اليونان خبراً عن الطوفان أورده أفلاطون وهو أن كهنته المصريين قالوا لسولون الحكيم اليوناني: إن السماء أرسلت طوفاناً غير وجه الأرض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم.

وأورد «مانتيون» خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذي كان بعد ميناس الأول - وهذا أيضاً أقدم من التوراة - وروى عن قدماء اليونان خبر طوفان أنه عم الأرض كلها إلا «دوكاليون» وامرأته «بيرا» فقد نجوا.

وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل أهريمان إله الشر، وقالوا: إن هذا الطوفان فار أولاً من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا: إنه كان خاصاً بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان.

وهكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافي آخر.

وفي أوستا - كتاب المجوس - أن أهورا مزدا أوحى إلى «إيما» وهو بزعمهم جمشيد الملك - أنه سيقع طوفان يغرق الأرض وأمره أن يبني حائطاً مرتفعاً غايته يحفظ مَن في داخله من الغرق وأن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل ويدخل فيه من كلّ جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين ويبني في داخل السور بيوتاً وقباباً في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوى إليها الدواب والطيور. وهكذا في تاريخ الأدب الهندي...

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾

يذكر هود في القرآن كله سبع مرات في حين يذكر عاد وقومه أربع وعشرون مرة، وهم ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[1] وقد بشر به نوح عليه السلام من

(١) سورة النجم، الآية: ٥٠.

قبل[١] وصيغة الدعوة الرسالية وصبغها هنا هي صيغتها وصبغتها في كافة الرسالات، فإنها رسالة موحدة يحملها رسل الله على مدار الزمن الرسالي مهما اختلفت فيها طقوس، حيث الأصل واحد هو الدعوة إلى توحيد الله وشرعته، وبراهين الرسالات هي الآيات الرسالية ومنها الرسل أنفسهم.

هنا هود يدعو عاداً إلى توحيد العبادة ورفض الأنداد بـ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ إذ أنتم معترفون بالإله الأصل ولا برهان لكم فيما تدعون فـ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

ثم يزود دعوته التوحيدية التي هي مبرهنة بكافة البراهين الفطرية والعقلية والآفاقية، بأنها لا تدعو لسؤال أجر عليها ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وإياكم بالفطرة التوحيدية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ التوحيدَ الحق وحق التوحيد بقضية الفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية المعسكرة لإثباته دونما أية ريبة؟!.

وتزويد ثان بإرسال السماء عليهم مدراراً وقد كانوا في جدب تلمح له: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]، ثم وازدياد قوة إلى قوتهم مادية ومعنوية، مما يدل على أن ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[٣] إذاً

(١) بحار الأنوار ١١: ٣٦٣ عن الصادق عليه السلام قال: لما حضرت نوحاً الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: اعلموا ستكون بعدي غيبة تظهر فيها الطواغيت وأن الله عزّ وجلّ يفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه هو دله سمت وسكينة ووقار يشبهني في خُلقي وخُلقي وسيهلك الله أعداءكم عند ظهوره بالريح فلم يزالوا يترقبون هوداً عليه السلام وينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد فقست قلوب كثير منهم فأظهر الله تعالى ذكره نبيه هوداً عند اليأس منهم وتناهي البلاء بهم وأهلك الأعداء بالريح العقيم التي وصفها الله تعالى ذكره فقال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] ثم وقعت الغيبة به بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

ف ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الحق الناصح الناصح «مجرمين» ثمرات الحياة الإنسانية قبل إيناعها، والتوحيد الحق إيناع في أعلى القمم من الحيوية الإنسانية السامية.

ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادي، حيث تغافلوا وتجاهلوا عن بينة التوحيد الرسولية والرسالية فأنكروها غائلين قائلين: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

هنا ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ تعني آية بينة على الرسالة التوحيدية، والرسل بأنفسهم في قالاتهم وحالاتهم وفعالاتهم بينات ربانية وإن لم يأتوا بسائر البينات، وكما قال رسل المسيح عليه السلام جواباً عن شطحات المنكرين ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[1] توجيهاً وجيهاً لهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، الظاهرة في دعواتهم.

ثم ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ إذ لا حجة فيه، وهم منكرون حجج الرسالات كلها، رامين إياها بالسحر والكهانة على طول الخط، مجتثين جذورها باستبعاد أو استحالة رسالة بشر إلى بشر، وما إلى ذلك من حجج داحضة في لجج من لجاجات.

ثم يلخصون قيلتهم هذه بـ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ غضباً ناقماً عليك إذ ترفضهم ولا تفرضهم، وكأنه يؤمن بهم فيخالفهم في ألوهتهم، ف ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ بما رباني بالدعوة التوحيدية الباهرة، فالله شهيد لرسالاته برسله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[2] ثم ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ كما تشهدون من دعوتي ودعايتي المتواصلة التوحيدية: ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ ثم يتحداهم باعترائهم وألهتهم إياه بأي سوء ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ آلهة ومألوهين

(١) سورة يس، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وهذه المجاهرة بتلك البراءة استنهاض لهم بآلهتهم التي ألهتهم أن يعتروه ما أمكنهم، فلما رأوا أيديهم وإياهم فاضية. عن هذه الإرادة السيئة، فليعرفوا بطلان ﴿اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾! وليكن ذلك التحدي من عديد آيات رسالته البينات إذ فنَّد مدَّعاهم أن آلهتهم على شيءٍ مما يحددونه.

وذلـــك ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هنا ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ في أخذ كل ناصية للتدليل على شمول هذه الربوبية، ثم و﴿إِنَّ رَبِّى﴾ الثانية دون ﴿وَرَبِّكُم﴾ لمكان نكرانهم أنه على صراط مستقيم في ربوبيته، حيث اتخذوا له شركاء، إذاً ف ﴿رَبِّى﴾ أنا الرسول المربي برحمته وخاصة عنايته، إنَّه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدب في حياتها برياً وبحرياً وجوياً ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الله ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ وهي حياتها بكل ملابساتها، أخذاً بحيطة العلم والقدرة الربانية، دون تفلُّت لواحدة منها عن هذه الأخذة الربانية على أية حال، ولا تلفُّت لربي عنها أبداً، وذلك ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في ربوبيته الطليقة الحليقة على كل شيءٍ.

فالصراط المستقيم ثلاثة، ١ - صراط الرب بربوبيته، ٢ - وصراط الرسل برسالاتهم ٣ - وصراط المرسل إليهم بسلوكهم صراط الحق بدلالاتهم أولاء وتوفيق الله، وهنا دور ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دور التدليل على أنه آخذ بناصية كل دابة، ولكنها سلطة عادلة مستقيمة وليست مثل سائر السلطات قاصرة ومقصرة، فهو عادل حكيم لا ينحرف ولا ينجرف حيث الصراط المستقيم قضية ذاتية لربنا مهما كانت مختارة له دون إجبار.

ذلك، ولأن الحاجة هي السبب لأي ظلم وانحراف، سواءٌ أكانت

حاجة علمية أم كمالية أخرى فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، ولأنَّ ربي آخذ بناصية كل دابة بحيطة العلم والقدرة الطليقة. إذاً ف ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وكما أن قوة العدالة أو العصمة تمنعان أصحابها عن التخلف عن صراط الحق المستقيم، كذلك - وبأحرى - ربنا الذي هو الحق نفسه وهو العدالة والعصمة غير المحدودة نفسها، وهو الصراط المستقيم نفسه، ولأنه على صراط مستقيم في ربوبيته، لذلك يدلنا على صراط مستقيم في عبوديته، فلا صراط مستقيماً في أي حقل من الحقول، معرفية أو عملية إلَّا وهو يدل عليه ويوفق لَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾[1] فليس الله خالقاً فقط يذر خلقه على قصوراتهم وتقصيراتهم هذْراً لا يعبأ بهم، بل هو الحفيظ عليهم ما هم حافظون، حفيظاً برحمة رحمانية لكل الكائنات، وبرحمة معها رحيمية خاصة للخصوص من عباده الذين يسلكون سبيله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾[2] ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾[3].

أجل ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ فليست تستقل أية دابة عن أخذ الله، وهؤلاء الغلاظ الشداد من قومه، إن هم إلَّا دواباً من هذه الدواب التي هو آخذ بناصيتها ويقهرها بقوته، فما خوفي من هذه الدواب، وما احتفالي بها وهي لا تتسلط عليَّ - إن كانت لها سلطة - إلَّا بإذن ربي.

وهذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة الربانية في نفسه النفيسة لا تدع في قلبه أية مجالة للشك والارتياب في عاقبة أمره الناجحة مهما كانت إمراً، إذ لا تخرج على أية حال عن أمر الله، إذاً:

---

(١) سورة الفجر، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٣) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أنتم أولاء الأنكاد البعاد «فـ» قل ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فما لي غيره ولا لكم سواء، من حجة بالغة تبلغ العقول غير المدخولة وقد أديت واجبي، ثم لا أتحسر من تكذيبكم وتعذيبكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى﴾ مكانكم بعدما أخذكم بعذابه الموعود ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ في كفركم إن بقيتم، ولا في منعتكم من عذابه إن حاولتم ولا نقضاً لملكه على أية حال ﴿شَيْـًٔا﴾ فإن له الأمر كله وما أنتم بمعجزين ربي ولا إياي ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ بعلمه وقدرته وحكمته البالغة.

﴿حَفِيظٌ﴾ يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الضياع، و﴿حَفِيظٌ﴾ عليكم فلا تفلتون عن أخذته ولا تعجزونه هرباً.

وهنا ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ تحديد لخلافتهم أنفسهم عمن قبلهم بتهديد، فـ ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) نبهةٌ لهم في هذه الرسالة، ثم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ تهديد بخلافة أخرى بعدهم حين يستأصلون عن بكرتهم.

ذلك لأن الحياة الأرضية هي حياة الخلائق، حيث يخلف بعضهم بعضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ﴾(٢) و﴿خَلَٰٓئِفَ فِى الْأَرْضِ﴾(٣) وليس يعني أنهم خلفاء الله نفسه في الأرض، إذ لا خليفة يخلفه في سماءٍ أو أرض، وإنما هم خلائق خلائف يخلف بعضهم بعضاً في الحياة الأرضية، كلٌّ خلفٌ لآخر خَلفًا وغير خَلَف.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٤.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ باستئصالهم عن بكرتهم بـ ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[1] ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[2].

وهنا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ كما وفي الأخرى ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

وهنا مواصفة ﴿عَذَابٍ﴾ بـ ﴿غَلِيظٍ﴾ استعارة بالغة الحسن، حيث العذاب لا يوصف بالغليظ لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه، وإنما وصفه تعالى هنا بالغلظ إذ يوصف الأمر الهيِّن بالضؤولة والدقة كما يوصف الأمر الشاق بالغلظ والشدة، حملاً لذلك على عرف المراعاة للشيء الغليظ الكثيف، وقلة الحفل بالشيء الدقيق الضئيل، وكما يقال: عِرضُ فلان دقيق وقدره ضئيل.

ووجه آخر أن يعنى بعذاب غليظ هنا عذاب الآخرة حيث يقع بالآلات المستعظمة والأعيان المستفظعة، كمقامع الحديد والحجارة المحمّاة، ومما يؤيد أنه عذاب الآخرة ذكر ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بعد ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

﴿وَتِلْكَ﴾ البعيدون البعيدون ﴿عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ آفاقية وأنفسية وعموا عنها وصموا ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ مهما عاشوا رسولاً واحداً، فإن عصيان رسول واحد بيِّن الرسالة هو عصيان للرسالات كلها فقد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[3] ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٦-٨.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾[(١)] فهم كذبوا بهؤلاء النذر إذ كذبوا بنذير بهم والسند واحد و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[(٢)]، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾[(٣)] تاركين اتباع رسولهم وسائر رسل الله.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ بعذابهم البغيض الغليظ، والتعانهم على ألسن المؤمنين واحتساب سنتهم السوء عليهم ما بقيت إلى يوم الدين، فاللعنات اللفظية من اللَّاعنين، والعملية من الملعونين بما خلَّفوه من السنن السيئة هي كلها تلحقهم إلى يوم الدين.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ وترى أين هنا البرزخ؟ هذه الدنيا تشمله حيث تشملهم لعنات اللَّاعنين ومثل أعمال الملعونين بهم وهم في البرزخ، إذ ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[(٤)].

ثم لعنة ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ مستمرة مع الأبد حتى يذوقوا وبال أمرهم ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ حيث ستروه عن فِطَرهم وعقولهم فكفروا به ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ بعداً في كل الأبعاد منذ المبدإ حتى المعاد.

فليس ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ هو «كفروا بربهم» إلَّا كنتيجة، فالذي يكفر ربه عن نفسه احتجاباً عنه، هو الذي يكفر به نتيجة كفره إياه، كفراً هو من خلفيات كفر، كما الإيمان بالرب هو من نتائج عدم كفر الإنسان ربه، حيث تظل منافذ فطرته وعقليته مكشوفة غير مقفلة ولا مغلقة.

ذلك، وهؤلاء الذين أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة كانوا ذوي قوة وبسطة في الخلق وبطش شديد، لهم تقدم ورُقيٌّ في الحضارة، ولهم

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٣) سورة هود، الآية: ٥٩.
(٤) سورة يس، الآية: ١٢.

بلاد خصبة عامرة، وقصور عالية غامرة، وناهيك ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾[1].

فهم على قوتهم وحضارتهم أُتبعوا لعنة في الدارين بما كذبوا رسل الله، وأشركوا بالله، وهم أطغى الطغات على الله وعلى عباد الله.

﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾.



(١) سورة الفجر، الآيتان: ٧، ٨.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

«صالح» عليه السلام يذكر في القرآن (١٣) مرة بدعوته قومه ثمود المذكورين فيه (٢٦) مرة، وهم - كقوم نوح وهود وفرعون وملاءه من أنحس طغاة التاريخ الرسالي على مدار الزمن.

وهنا عرض لنعمة سابقة سابغة ربانية بعد الدعوة التوحيدية أنه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ إنشاء في التكوين واستعماراً فيه، وإنشاءً في التشريع.

فطالما أصبحت صيغة الاستعمار صيغة زائفة كما السياسة والاستثمار، حيث الساسة المستعمرون المستثمرون كانوا ولا يزالون يظلمون الناس فيما هم عاملون.

نرى هنا ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ من الصفات الربانية، وكما الاستثمار في الزخرف بمعناه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(١).

ولكن أين استعمار من استعمار، واستثمار من استثمار، وسياسة ربانية من سياسة شيطانية؟!.

فالاستعمار الرباني هو طلب العمران الإنساني في هذه الرقعة الأرضية، عمراناً للأرض نفسها لعمران الحياة الجسدانية فيها، وعمراناً للروح الإنسانية الساكنة الماكنة فيها وأين عمران من عمران؟.

لقد استعمرنا ربنا في الأرض التي أنشأنا منها استقراراً برياحة الحياة الأرضية، واسترواحاً لأرواحنا، حيث العقل السليم هو في البدن السليم، فالأصل في الاستعمار هو استعمار الأرواح، في الأبدان المستعمرة العامرة إذ هي أمكنة الأرواح ومجالاتها العملية الظاهرة في مجالات للحياة.

إن المستعمرين الطغاة الظالمين إنما يهدفون من استعمار الأرض عمران حياتهم الأرضية بتهديم العمال عن بكرتهم واستحمارهم ليحنوا ظهورهم لهم فيركبوهم، ولا يطعمونهم شِبعهم إلا سدَّ رمقهم ليواصلوا في هذه العمالة الظالمة، فهو - إذاً - استعمار لأنفسهم دون من يستعملونهم للعمار.

والله سبحانه خلق لنا الأرض قبل أن يخلقنا منها، ثم استعمرنا فيها بما خلق من معدات العمار فينا وفي أرضنا، وجعل استعمار الأرض من

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

العبادات ف ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[١]، خلقها وما فيها لصالحنا، فعمَّرنا فيها وأمَّرنا - بما أمرَنا - وقوَّانا باستعمارها العادل الكافل للحياة الأرضية الراقية مادياً ومعنوياً.

وهكذا يأمر القائد الإسلامي السامي - بأمر الله - أن تُستعمر الأرض وكما في عهد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر النخعي متصرف لواء مصر من قوله: «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرَك إلَّا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شِرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يُصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيءٌ خففت به المئونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك»[٢].

هذا، وقد تعني ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ إضافة إلى ما تعني من العمار، العمر، فهما معنيان، حيث العمر والعمار متلازمان، فقد أنشأكم من الأرض وجعل لكم فيها عمراً وعماراً، فبالعمر يحصل العمار، وبالعمار يطول العمر، فإن في عمار الأرض إصلاحها لصالح الحياة المعيشية الطويلة، رعاية لمتطلبات الحياة البدنية، والعقل السليم في البدن السليم.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ وتراه كانوا يرجونه ليكون من الدعاة إلى الإشراك بالله؟ أم مرجواً في السكوت عن الدعوة إلى الله؟.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) (الخطبة ٢٩٢).

بطبيعة الحال لم تكن في صالح ملامح الدعوة إلى الإشراك، بل هي الدعوة إلى الله، ولأنه قبل رسالته ما كان يجاهر بالدعوة إلى الله وفيه مؤهلاته اللَّامحة اللَّامعة من عشرته وخلقه، لذلك ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أن كنت بيننا وما كنت تدعونا إلى ما تدعو، فلتظل هكذا مرجواً فينا حفاظاً على حرمتك وظاهرة الوحدة بيننا.

ثم الظاهرة المعرفية الأدبية فيك كانت تدلنا على أنك نابغ نابع من عقلية بارعة، ندخرك ليوم تكون فيه رائداً وقائداً فينا تدعونا إلى ما يصلحنا ويحسن حالنا وماضينا أكثر مما هيه، وإذا أنت تدعونا إلى ما يذهب بسؤددنا ومحتدنا العريق في عبادة الآلهة.

وهذه من الدعايات المضللة في حقول الدعوات أن ينلَّد بالداعية خلاف ما يهوون أنك على ما كنَّا نعرف منك كنت فينا مرجواً لتقودنا في ملتنا، فإذا أصبحت تخالفنا في عزنا وكرامتنا! وتعارضنا في ملتنا.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ مع هذه السابقة السابغة ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من ذي قبل، ناسين حَسَبنا ونسبنا، حال ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ غارقين في خِضمِّه وهو «شك مريب» يريبنا ماضيك وحالك ومآلك، حيث تخالفنا في سنتنا العريقة.

ويْكأن سكوته لفترة بينهم قبل رسالته، دليل استمراره فيه بعد رسالته، ولكلّ حالٍ قالٌ كما لكل قالٍ حالٌ، فقضية الرسالة تبليغها دون أي فتور، ومهما كان المؤمن، عليه أن يكون داعية إلى الله بسند إيمانه، ولكنه حين يعيش بمفرده كاراً كهؤلاء فعليه أن يتقيهم حفاظاً على حياته، ولكي يبقى له مجال لدوره في رسالته، فلما أُرسل فقد مضى دور التقية، إذ لا تقية في دعوة الرسالة مهما كانت بقية وتقية لحياة الرسول، وهكذا ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ إذ كنت ساكتاً عما تدعو إليه لنا ولا علينا، وكانت لك لباقة ولياقة

القيادة الإشراكية لنبوغك، وقد تكفي هذه التحولة عما كنا نرجوه فيك أن نصبح ﴿لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

فلقد خاب رجاءنا فيك إلى معاكِس مكالِس وفالس خالص، أفترجونا بعدُ أن نصدقك رسولاً من الله؟! ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ بعدُ ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وإنها القاصمة الحاسمة لكل رجاءٍ فيك.

وهكذا يبلغ التحجر بالناس النسناس أن يعجبوا من الحق اليقين بمجرد أنه يخالف شهواتهم وعناياتهم الجاهلة التي تعوَّدوا عليها، وإنها لطبيعة واحدة ورواية فاردة مكرورة على مدار الزمن الرسالي.

وهنا يجيب صالح صالح الإجابة التي مضت عن جده نوح عليه السلام وهي إجابة الرسل صيغة واحدة وصبغة واحدة:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾:

إنَّ كوني فيكم مرجواً قبل هذا ليست بينة لكم عليّ، حيث السكوت عن دعوةٍ مَّا لفترة مَّا ليس بينة لواجب السكوت في كل الفترات والحالات، ثم ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ وأنا بنفسي وما زوَّدني ربي بينة من ربي ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ الوحي الرسالي، فهل أترك هذه الرحمة الغالية لكي أظلَّ مرجواً فيكم بما تشتهون، إذاً ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في بينته ورحمته ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بدعايتكم هذه ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أن أخسر رحمة ربي لكي أربح رجاءكم فيَّ لما تهوونه؟! رجاءً قاحلاً جاهلاً ماحلاً.

أجل وذلك تخسير على تخسير، خسارة الوحي والرسالة بعصياني وانعزالي عنها، وخسارة النقمة الربانية إن عصيته في رسالته المفروضة على حين أرفضها.

ذلك، وحيث تريدون بينة غيري وما أنا عليه من بينة فـ :

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ۝٦٤﴾:

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ أنتم النوق ﴿ءَايَةٗ﴾ وأين ناقة من هؤلاء النوق؟ فقد أشبهت ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ كما أشبه ثعبان موسى للثعابين الفرعونيين.

«هذه لكم آية» متطلَّبة بنوعها لإثبات الرسالة، فاغتنموها ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يكلفكم أكلاً من عندكم أنفسكم أو شرباً، إنما هي «ناقة الله تأكل في أرض الله» - ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ صنيعكم كما أنتم متعوِّدون، حيث تسيئون إلى رسل الله وآياته ورسالاته ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ لثالوث: نكرانكم رسالة الله، وآية بينة من الله، ومسكم ناقة الله.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ۝٦٥﴾:

وكيف ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وإنما عقرها واحد منهم؟ لمكان ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[1]؟ ذلك لأنهم نادوه لعقرها راضين عنه مشجِّعين إياه، فقد عاونوه على عقرها فهم إذاً كلهم عاقرون، وهذه معاونة على الإثم والعدوان، تَعدُّ المعاونين كلهم آثمين عادين مهما اختلفت دركاته بين الأصيل والفصيل.

فيا «أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بعذاب لما عمُّوه بالرضى فقال سبحانه:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾[2] فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»[3].

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.
(٣) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

فهذه ضابطة عامة مستفادة من ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أن سبب الجريمة ومباشرها مجرمان اثنان مهما اختلفت دركاتها حسب مختلف حركاتها، فلكلٍّ عقوبته جزاءً وفاقاً، طالما يستثنى عن القِوَد غير القاتل لنفس محترمة ما لم يكن مباشراً، فلا يقتص من غير المباشر اللَّهم إلَّا نصيباً من الدية المفروضة في مجالاتها، أم إذا كان هو أقوى من المباشر لحد يعتبر هو المباشر.

وهؤلاء العاقرون الناقة عقروها بما عقرها صاحبهم المنادي لهم لعقرها وهو «أُحيمر ثمود»[1] كما قال الله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[2] حيث أمرهم أن ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ولكنهم تعاونوا على إثم العقر وعدوانه نداء لصاحبهم بديلاً عن منعه عن عقرها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[3].

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ هي ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ و﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾:

و﴿أَمْرُنَا﴾ هذا هو ﴿صَٰعِقَةً﴾[4] «طاغية»: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟

---

(١) البحار ١١: ٣٧٦ عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة العشيرة نائمين في صور من النخل ودقعاء من التراب فوالله ما أهبَّنا إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحركنا برجله وقد تترّبنا من تلك الدقعاء فقال صلى الله عليه وآله وسلم ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أحمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع يده على قرنه - حتى يبل منها هذه - وأخذ بلحيته -.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٣.

﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾[(١)] وصيحة كما هنا، صاعقة طاغية، سائغة لهؤلاء الطائفة الصاعقة الطاغية.

فقد ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا... فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾[(٢)]. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[(٣)]! وهنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ هي رحمة الإيمان، ورحمة من الله لأهل الإيمان ثم ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ إذ كان عذاباً مخزياً، ثم خزي يوم القيامة فإنه أخزى، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فبقوته وعزته يعذب أهله ويرحم أهلها.

وهو «قوي لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من المخلوق لوقع التشبيه، ولا احتمل الزيادة، وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم وكان عاجزاً»[(٤)].

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾:

هذه صيحة مدمرة وصاعقة طاغية مدمدمة مزمجرة، أخذت ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أخذة قاسية قاضية ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ وهي قريتهم بدُورها وشرورها ﴿جَاثِمِينَ﴾ حسوماً جاسمين، واقعين على وجوههم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

ويْ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: إقامة، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[(٥)] فترى

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٥.
(٢) سورة الشمس، الآيات: ١١-١٤.
(٣) سورة الشمس، الآية: ١٥.
(٤) نور الثقلين ٢ : ٣٧٥ في أصول الكافي محمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي هاشم الجعفري قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فسأله رجل فقال: أخبرني عن الرب تبارك وتعالى له أسماء وصفات في كتابه وأسماؤه وصفاته هي هو؟ فقال أبو جعفر عليه السلام إن لهذا الكلام وجهين - إلى قوله - وكذلك سمينا ربنا قوياً لا بقوة البطش...
(٥) سورة الحاقة، الآية: ٨.

دُورهم غير دُورهم، ودَورهم غير دَورهم، إذ أصبحوا بدَورهم بوراً في دُورهم، لا أثر عنهم إلَّا حسرات تنادي بها أثرات.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ عن فِطَرهم وعقولهم، حيث كفروا وستروا عن أنفسهم آيات الله آفاقية وأنفسية، فكفروا به وكذبوه وكذبوا رسله ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ - «ألَا بعداً لعاد كما بعدت ثمود» بعداً عن ذكرى التاريخ إلَّا بسوء، وعن آثارهم إلَّا دائرة بائرة، وعن مستقبلهم إلَّا عذاب الله كما في ماضيهم.



﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾:

علَّ هذه «البشرى» هي بشرى إبراهيم وزوجه بإسحاق ومن وراءِ إسحاق يعقوب، لمكان ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ...﴾[١] ثم ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾[٢] فقد لا تعني بشرى العذاب لقوم لوط حيث يأتي خبرهم لمَّا أرسل الرسل إلى لوط، ثم البشرى بعيدة عن العذاب إلّا تهكماً للمعذبين، وهنا البشرى لإبراهيم ولوط عليهما السلام.

ذلك، وقد تعني هذه البشرى بضمنها بشرى العذاب فإنها بشارة لإبراهيم ولوط لقومه المجرمين، تعنيها عناية ضمنية، ولكن لا شاهد لها من هذه الآيات إلَّا احتمالاً صالحاً للعناية الضمنية، ثم وآيات الحجر تصرح ببشرى العذاب بعد بشرى الولادة فهما إذاً معنيَّان.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ وهو التحية السليمة الإسلامية التي أُمر بها المسلمون لله ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ وقد قدِّر هنا وهناك «عليك وعليكم» فإن قول ﴿سَلَامٌ﴾ هو الصيغة الصالحة التي تعني السلام على، فـ ﴿سَلَامٌ﴾ بمجردها دون عناية «عليك أو عليكم» لفظياً أو مقامياً لا جواب له، وقد قدِّر في ﴿سَلَامٌ﴾ من إبراهيم إضافة إلى «عليكم» زيادة مأمورة محبورة لمكان ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[٣].

---

(١) سورة هود، الآية: ٧١.
(٢) سورة هود، الآية: ٧٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٦.

ثم ولا يشترط في أصل الإجابة ونوعيتها معرفة المسلِّم عليك وكما لم يعرف إبراهيم هؤلاء الرسل بدايةَ مجيئهم حتى عرَّفوه أنفسهم فعرفهم، فللسلام إجابة من أيّ كان وأيان، مهما كان لها موقعها الأرقى حين يُعرف المسلِّم بمحتده الأرقى[(١)].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾: سمين مشويّ على حجارة الرضف المحماة، وهكذا يواجَه الضيف، وقبل أن يعرفوا أو يُعلم أنهم جائعون، فإن ذلك أدب الأريب، وإرب الأديب في إضافته أياً كان الضيف، أن يحضر له مائدة قدر الإمكانية غير المحرجة فورَ وِرده.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾:

وهنا ﴿أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ رغم أدب الضيف، إذ عليه أن تصل يده إلى مائدته مهما كان شبعاناً، احتراماً للمضيف، فإن في عدم وصول أيديهم إليها اختراماً له، فلم يقل «لا يأكلون» فقد تصل أيديهم إلى المائدة احتراماً دون

(١) البحار ١٢ : ١٦٨ عن النجاشي عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله بعث أربعة أملاك بإهلاك قوم لوط: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل فمروا بإبراهيم وهم متعممون فسلموا عليه ولم يعرفهم ورأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي وكان صاحب أضياف فشوى لهم عجلاً سميناً حتى أنضجه ثم قربه إليهم فلما وضعه بين أيديهم ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال له: أنت هو؟ قال: نعم، ومرت امرأته سارة ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هُود: ٧١] قالت ما قال الله وأجابوها بما في الكتاب فقال إبراهيم: فيمَ جئتم؟ قالوا: في هلاك قوم لوط، فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل: لا، قال: إن كانوا خمسين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا ثلاثين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرة؟ قال: لا، قال: فإن كانوا خمسة؟ قال: لا، قال: إن فيها لوطاً؟ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، ثم مضوا، وقال الحسن بن علي: لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هُود: ٧٤].

أكل ماكن أم يعتذرون، ولكي يعلنوا أنهم جاؤوا بخير، فحين لا يأكلون ولا تصل أيديهم إلى مائدته، فقد يلمح أنهم جاؤوا بشر، فلذلك ﴿نَكِرَهُمْ﴾ نكراناً بمظهر نكرانهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ إخفاءً ﴿مِنْهُمْ﴾ في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ ولكنما الخيفة الموجَسة ليست لتوجس عمن يخاف منه لظهور ملامحة منه ومن الموقف، فلمحة من ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ وأخرى من الحالة المتغيرة من الخيفة الموجسة، هما تكفيان لعرفان الخيفة.

فالذي لا يأكل الطعام أم لا تصل يده إليه عند الإضافة، إنه يريب إشعاراً بأنه ينوي خيانة أو عذراً حسب تقاليد أهل البدو، بل والمتحضرين، وأهل الريف البسطاء يتحرجون من خيانة الطعام، أن يخونوا من أكلوا معه وفي بيته، فإذا لم تصل اليد إلى طعامهم فقد يعني أنهم ينوون شراً، أم - لأقل تقدير - لا ينوون خيراً.

ذلك، ولم يكن الإيجاس إلَّا في البداية إذ صرَّح بخيفة في النهاية كما في الحجر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[١].

ذلك وقد يروى أنه قال لهم كلوا فقالوا: لا نأكل حتى تخبرنا ما ثمنه؟ فقال: إذا أكلتم فقولوا: باسم الله، وإذا فرغتم فقولوا: الحمد لله، فالتفت جبرئيل إلى أصحابه وكانوا أربعة رئيسهم جبرئيل فقال: حق لله أن يتخذ هذا خليلاً»[٢].

ذلك، وهنا ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ حيث ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾[٣].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٢.

(٢) البحار ١٢: ١٦٨ عن تفسير العياشي عن عبد الله بن عبد الله بن أبي هلال عن أبي عبد الله عليه السلام . . . أقول: وهذه رواية أخرى تذكر قبل هذه الجملة طول القصة المذكورة من ذي قبل.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ متعجبة من عظم الموقف في بشارتها، فصكت وجهها منها.

لذلك ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ برسالة العذاب كما يدل عليها ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾[١] وليس في المسرح صُراح خبر من العذاب.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

وتراها «ضحكت» ببشرى العذاب المستفادة من ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، أم بشرى الولادة؟ قد تلمح ﴿فَضَحِكَتْ﴾ المفرعة على ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[٢] أنها ضحكت مستبشرة ببشرى العذاب، كما ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ تؤخر بشرى الولادة، والضحك من التعجب حيث تعجبت من هذه البشرى عذاباً ورحمة[٣] وترى بعد «ضحكت» تعني حاضت؟ وقد يضحك الأدب الصالح من ذلك الضحك الكالح أن يعني الحيض! ثم لا رباط لحيضها ببشرى العذاب ولمّا تبشر بالولادة، فأية صلة بين بشرى العذاب وحيضها؟[٤].

فيا للضحكة الحائضة من فاضحة واضحة ليس ليصدقها إلا من لا يعرف عن أدب اللفظ والمعنى شيئاً ولا فيئاً.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٤.

(٢) سورة هود، الآية: ٧٠.

(٣) البحار ١٢: ١٤٩ قال أبو جعفر عليه السلام في سرد القصة «فضحكت» يعني: فتعجبت من قولهم.

(٤) البحار ١٢: ١٥٦ عن تفسير القمي دون إسناد إلى معصوم كما هوداً به كثيراً ما، في سرد القصة: وجاءت سارة في جماعة معها فقالت لهم: «ما لكم تمتنعون من طعام خليل الله؟ فقالوا لإبراهيم: لا توجل - أي: لا تخف ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هُود: ٧٠] ففزعت سارة وضحكت أي: حاضت وقد كان ارتفع حيضها منذ دهر طويل فقال الله عز وجل: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هُود: ٧١].. وفي معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: فضحكت: قال: حاضت.

ذلك، ولكن بشرى الولادة كانت قبل بشرى العذاب كما تبينها آيات الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

فقد كانت بشرى الولادة قبل بشرى العذاب، وقد ضحكت امرأة إبراهيم قبلهما حيث تأخرت بشرى الولادة عن ضحكها ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ فلم يكن ضحكها - إذاً - إلا لمجيء المرسلين الحاملين بطبيعة الحال بشرى، والمترقَّبة القريبة منها بشرى العذاب، كما المستبعدة الغريبة هي بشرى الولادة:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿قَالَتْ﴾ «بعد ما بشرناها...» وهذه القولة هي طبيعة الحال من عجائز أمثالها لا سيما مع شيخوخة البعولة «قالت أألد وأنا عجوز» ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؟ فكيف يأتي ولد من والدين عجوزين لا يأتي منهما ولد بطبيعة الحال، وهو عجيب - لو خلي وطبعه - حقاً فالمرأة ينقطع طمثها عادة في حالة من سنيِّها معينَّة معنية بطبيعتها، فلا تحمل، ولكن لا عجب من قدرة الله وعنايته عجاباً يُستبعد معه وعده المحتوم.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الذي نحمله بشارة بذلك الميلاد، وليس

(١) سورة الحجر، الآيات: ٥١-٦٠.

يعجز عن تحقيق أمره مهما عجزت العادة الجارية المستمرة في الإيلاد، وليس ذلك فوق ولادة المسيح دون والد ولا يساميها! فالعادة تجري بأمر لا يعني أنها سنة لا تتبدل، وخارق العادة سنة متميزة خاصة في عامة السنة، وكلاهما مما سنَّه الله.

ثم و﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ الرسالي، رحمة وبركة مميزة خارجة عن المتعودة الجارية، فكما الرسالة رحمة متميزة، كذلك مثل هذه الولادة متميزة عن سائر الولادات. ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ في رحمته وبركاته ﴿مَّجِيدٌ﴾ في عطياته.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾:

هنا ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ إذ بشر بعذابهم من ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[1] وقد تعني هذه المجادلة غير المجادلة، استرحام الاستعفاء عن هؤلاء المجرمين، علَّهم يتوبون ويثوبون إلى ربهم ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ في خُلقه ﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثير الرجوع إلى ربه ﴿مُّنِيبٌ﴾ إليه عما ربما يخطأ كمثل هذه المجادلة الملتجأة غير الملجِئة.

فالحليم الذي يحتمل أسباب الغضب وموجباته فيصبر ويتأنى ولا يثور، وهو يحتمل أن شفاعته عند ربه تفيد، والأوَّاه: الذي يتضرع في دعائه واستدعائه، يستدعي ربه متضرعاً علّه يجيبه، والمنيب: المسرع إلى ربه مختجلاً مما قصرُ أو قصّر علَّه يعفو عنه، هذا الحليم الأوّاه المنيب أخذ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ ومثلث المواصفات الجميلة مما يدل على أن هذه المجادلة لم تكن مجالدة، وإنما هي استبقاءٌ إياهم إن أمكن.

(١) سورة هود، الآية: ٧٠.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾:

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الأمر، لـ ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ المحتوم بعذابهم، أمراً غير مردود، ثم ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ إذ ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(١) (٢).

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾:

هناك إبراهيم يوجس منهم خيفة حيث رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وهنا لوط ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ حيث يخاف عليهم قومه الهاتكين الفاتكين حيث يهرعون إليه ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: شديد البلاء(٣).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٧.

(٢) البحار ١٢ : ١٦٣ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما جاءت الملائكة في هلاك قوم لوط مضوا حتى أتوا لوطاً وهو في زراعة له قرب المدينة فسلموا عليه فلما رآهم رأى هيئته حسنة وعليهم ثياب بيض وعمائم بيض فقال لهم: المنزل؟ قالوا: نعم، فتقدمهم ومشوا خلفه فندم على عرضه عليهم المنزل فالتفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله وكان جبرئيل قال الله له: لا تعذبهم حتى يشهد عليهم ثلاث شهادات، فقال جبرئيل: هذه واحدة، ثم مشى ساعة فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله فقال جبرئيل: هذه ثنتان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله، فقال جبرئيل: هذه ثلاث ثم دخل ودخلوا معه منزله فلما بصر بهم امرأته أبصرت هيئته حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون إليه حتى وقفوا بالباب فقال لوط: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨] ثم كابروه حتى دخلوا عليه قال: فصاح جبرئيل: يا لوط دعهم يدخلوا، قال: فدخلوا فأهوى جبرئيل إصبعيه وهو قوله: فطمسنا أعينهم ثم قال جبرئيل: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن بشر الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الناس كانوا أنذروا قوم لوط فجاءتهم الملائكة عشية فمروا بناديهم فقال قوم لوط بعضهم لبعض: لا تنفروهم ولم يروا قوماً قط أحسن من الملائكة فلما دخلوا على لوط عليه السلام راودوه عن ضيفه فلم يزل بهم حتى عرض عليهم بناته فأبوا فقالت الملائكة: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، قال: رسل ربي؟ قالوا: نعم، قال لوط: فالآن إذاً.

ولأن الذرع هو مقايسة الأطوال، من أصل الذراع: العضو، حيث كان يقاس به، فضيق الذرع هو عجزه عن القياس، كناية عن انسداد كل الحيل عليه في ذلك المضيَق العصيب، وكما قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[(١)].

فهؤلاء الرسل على جمالهم المنقطع النظير، وهم بهيئة الذكور، إنهم بطبيعة الحال يضاق بهم كل ذرع، حيث تضيق على لوط كل المجالات للحفاظ عليهم، إذ جرب قومه أنهم هارعون لا يسدهم صاد، ولا يصدهم ساد عما هم إليه يهرعون، إذا:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾:

الهرع هو السوق بعنف وتخويف، فـ ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ بمعنى يساقَون إليه بعنف وتخويف، وتجهيل الفاعل - وكأنه غيرهم - تبيين لخطر الموقف كأنهم يساقَون إليه دونما اختيار منهم، والفاعل بطبيعة الحال هو الشره الغالب والفرح المتألب وكأنهم ساقطون في أيديهم، منساقون إلى ما يهوون.

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ كلّها، هارعين إليها غارقين في أغوارها، وهذا هو الذي ساء لوطاً بضيوفه وضاق بهم ذرعاً، متوقعاً يومه العصيب.

لقد رأى لوط حمى حارقة من شهوة الجنس ووطأته في وجنات قومه الهارعين إليه، المندفعين إلى داره، يتهددونه في ضيفه بكرامته، فحاول في إيقاظ فِطَرهم، إيعاظاً لحاجتهم الطبيعية المشروعة، ولم تكن حاضرةَ اللحظة

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

الخطرة المستعجلة إلَّا بناتُ له غير مزوجات فعرضهن للزواج[١] بديلات عن ضيفه فـ : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من أولاء الذكور، تنازلاً في أصل الطهارة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن دنس اللواط المحرم في شرعة الله وشرعة الإنسان السليم، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ كمحظور ثان ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ بأي رشد وإن كان إنسانياً مهما لم يكن شرعياً.

أجل ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ بكل معاني الطهر، نفسياً وحسياً حيث يلبين الفطرة النظيفة، نظافة فطرية خُلُقية دينية وإنسانية.

ذلك، وقد يقال ﴿بَنَاتِي﴾ هنا تقصد أناث سدوم الخليّات، حيث الرسول في قوم هو أب لهم بل وأحرى منه، وقد يؤيده أن بناته عليه السلام ما كنّ كافيات لهؤلاء الجمع اللّهم إلّا اشتراكية وإباحية في الجنس وعوذاً بالله، ومن المعلوم المؤكد أن بناته لم يكنَّ بعديد هؤلاء حتى يكون عرضهن لهم مُنعة عما ينوون، ولذلك لم يردوا عليه فيما ردوا أن عديدهن لا يساوي عديدنا.

وعل الأرجح عناية الجمع في ذلك الجمع أن قصده من ﴿بَنَاتِي﴾ كافة البنات الخليات بمن فيهن بناته، وهنا تُقطع كافة الأعذار من البين كما قطعت ولم يبق إلا عذر غادر غير عاذر: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[٢].

فلا حاجة - إذاً - إلى نكران أن لم يكن له إلّا بنتان حسب التوراة، أم اللجوء إلى احتمالات أخرى، مثل أنه عرض بنتيه أو الثلاث أما زاد لتراوح الزواج بينهن! أو أن القصد إلى أزواجهم أنفسهم[٣]، فإن ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٧٩ عن الكافي عن علي بن إبراهيم بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول لوط عليه السلام : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] قال: عرض عليهم التزويج.

(٢) سورة هود، الآية: ٧٩.

(٣) البحار ١٢ : ١٥٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن عمرو رحمه الله في قول لوط: =

حَقٍّ﴾[(١)] تطارده، وعلّ تصديقهم لـ ﴿بَنَاتِي﴾ وهم لا يصدقونه أباً للأمة، يخصصهن بخاصة بناته، عرضاً لهن إلى زواج سليم، فإنها كل ما يملكه من قضاء شهوة الجنس ثم هناك حليلات أخرى يكفين بغية الحاجة للبقية الباقية.

ثم ترى في عرض بناته عليهم للزواج وهم يطلبون الأدبار، لمحة أو دلالة على سماح إتيان النساء من أدبارهن؟ قد يقال: نعم لنفس الطلب[(٢)]، ولكنه لا حيث المطلوب من النساء بطبيعة الحال المتعوَّدة هو الفروج دون الأدبار، فحتى إن كان القصد عرضهن للزواج لأدبارهن فليس هذا إلّا ترجيحاً للأخف حرمة على الأشد.

ولو أنها دلت على أصل الحل في أدبارهن فهو إذاً من شرعة إبراهيم، والظاهر من الكتاب والسنة حرمتها كحرمة اللواط وكما فصلناه على ضوء ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[(٣)] حيث الحرثية فيهن ليست إلّا من طريق القبل دون الدبر، ثم إنه قطع السبيل، وكما في اعتراض لوط على قومه فيه ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾[(٤)].

وهنا روايات عن الرسول ﷺ وعن الأئمة من آل الرسول ﷺ تحرم إتيانهن من أدبارهن[(٥)].

= ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [هُود: ٧٨] قال: عنى به أزواجهم وذلك أن النبي هو أبو أمته فدعاهم إلى الحلال ولم يكن يدعوهم إلى الحرام، فقال: «أزواجكم هن أطهر لكم..».

(١) سورة هود، الآية: ٧٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٨٧ في تهذيب الأحكام عن أبي الحسن عليه السلام سئل عن إتيان المرأة من خلفها قال: أحلته آية من كتاب الله عزّ وجلّ قول لوط: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هُود: ٧٨] وقد علم أنهم لا يريدون الفرج.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

(٥) في المستفيض عن النبي ﷺ في التي يؤتى من دبرها: هي اللوطية الصغرى. =

ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادي، فـ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] فلا تلمس العظة الحكيمة الفِطَر المنحرفة المريضة، والقلوب الخائنة المقلوبة الآسنة، والعقول المعقولة بطوع الهوى الآفنة، حيث:

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿مَا﴾ هنا قد تعني كلا الموصولة والنافية، فـ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ هو الفروج «وإنك تعلم ما نريد» من أدبار الذكور، فلم يبق في الدور مجال لنا في بناتك وغيرهن من إناث، أو ليس ﴿لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ إذ لا نشتهيهن، فالحق للإنسان هو فقط ما يريده لا ما يحمَّل عليه ولا يريده، ثم لا حق لنا فيما يخالف سنتنا حيث نأتي الرجال شهوة من دون النساء، ومن ثم لا حق لنا في بناتك وليست بيننا صلة الزواج، واحتمال أخير بناء على أن المعني من ﴿بَنَاتِى﴾ أزواجهم أنه ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ﴾ على الهزء منه ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ إذ لا نشتهيهن، وإنما لنا حق اللواط إذ نشتهيه.

وتراه وهو يأمرهم بتقوى الله يعرض بناته للسفاح؟ وأيّة طهارة فيه حتى يكنَّ هنَّ أطهر مما هم يريدون! أم تراه يعرض لهم النكاح المحظور فإنهم كفار وبناته مسلمات؟ ولم تثبت حرمة المسلمة على الكافر في شرعة إبراهيم، كيف وقد كانت حلاً له بداية الإسلام، فقد زوج النبي ﷺ بنتاً له من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة، ثم نسخ بعدها.

ولئن كان محرماً في شرعة إبراهيم فهو أخف حرمة من اللواط، وفي دوران الأمر بينهما وحتى الزنا يرجح سائر المحرمات الجنسية على اللواط:

= وفي البحار ١٢: ١٦٧ عن تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت قال: سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام أيؤتى النساء في أدبارهن؟ فقال: سفلت سفلك الله ما سمعت الله يقول: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿لَوْ﴾ هنا للترجي المتحسر والتحسر المترجي ﴿أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أصدكم عما تنوون ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يصدكم عما تريدون، و«كم» هنا قد تعم الملائكة الضيوف إلى هؤلاء الهارعين.

وهنا ﴿ءَاوِيَ﴾ متعدية قد تعني أن يؤوي ضيوفه الكرام إلى ركن شديد، لا - فقط - يأوي هو إلى ركن شديد، حيث المهمة الحاضرة هنا هي الحفاظ عليهم إذ القصد السوء موجَّه إليهم، دون الحفاظ على نفسه إذ لم يقصدوه في نفسه.

وتراه كيف يأوه لفقد قوة له أو مأوى ركين شديد؟ والله تعالى وتقدس له ركن شديد هو مأواه في رسالته وعلى أية حال!.

علّه يعني من ﴿قُوَّةً﴾ قوته المعطاة من الله، ولم تكن له تلك القوة الظاهرة الظافرة، ثم يعني من ﴿رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ الله، حيث الانقطاع التام إلى الله والتوكل على الله ليسا إلا بعد تقديم كافة القوات التي هباها الله للمنقطع إليه، المتوكل عليه، وما أحسنه

المروي عن رسول الله ﷺ: «رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله تعالى...»[1].

وقد تعني ﴿رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ - بين قوته في نفسه وقوة الله - عشيرتَه الغُيَّب عنه وكما يروى عن علي عليه السلام أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته، إنه إن كف يده عنهم كف يداً واحدة وكفوا عنه أيدٍ كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم، حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلّا بحسبه وسأتلو عليكم بذلك آية من كتاب الله تعالى فتلا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٤ - أخرج جماعة عن أبي هريرة في قوله: أو آوي إلى ركن شديد قال قال رسول الله ﷺ: ..

بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ عشيرة فوالذي لا إله إلّا هو ما بعث الله نبياً بعد لوط إلّا في ثروة من قومه»[١].

فلقد أسقط لوط في أيديه وأحس ضعفه وضغطه، وهو غريب بين قومه، نازح إليهم من بعيد لا عشيرة له تحميه[٢]، فانفرجت شفتاه بما انفجرت فقال ما قال، موجهاً قالته إلى الملائكة الشباب الصباح الوجوه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أخلصكم بها عن هذه الحالة العصيبة، وإلى هؤلاء الهارعين ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لأصدكم عما تنوون ولحُلت بينكم وبين ما هممتم من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء، والحذف هنا أبلغ لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء وغليظ النكال، ويصرف وهمه إلى ضروب العقاب ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات.

ذلك، فليس مخرج قول لوط هذا على ما ظنه من لا معرفة له وقدح فيه بأنه لم يأو إلى الله سبحانه، لأن لوطاً إنما أراد فيما أراد الأعوان من قومه والأركان المستند إليهم من قبيلته في الله وهو يعلم أن له معونة الله سبحانه أشد الأركان وأعز الأعوان، إلا أن من تمام إزاحة العلة في التكليف حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وقرب المعاضد والمرافد.

ثم القصد من ﴿ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو الله تعالى شأنه العزيز فإنه هو مأواه على أية حال، ولكنه أراده مأوًى في خاصة حالته المزرية وماسة حاجته المردية، فقد آوى إليه فنجاه بما نجاه.

---

(١) المصدر أخرج أبو الشيخ عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه خطب فقال: . . أقول: وذيل الخطبة «فوالذي. .» مروي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بطرق عدة ومنها ما فسر فيه ﴿رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: ٨٠] بـ «الله».

(٢) البحار ١٢ : ١٥٢ عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لوط؟ فقال: إن قوم لوط كانوا أهل قرية لا يتنظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة نجلاء أشحاء على الطعام وإن لوطاً لبث فيهم ثلاثين سنة وإنما كان نازلاً عليهم ولم يكن منهم ولا عشيرة له فيهم ولا قوم. . .

فحين وصلت حالته إلى هذه المزرية الضارعة، الضائقة الفائقة الضيق(١) وآوى إلى ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه، كشف الرسل له عن ذلك الركن الحاضر فـ :

﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

لـ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ إليك فهم - إذاً - ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ بسوءٍ من الوصول إلينا بما ينوون، فهم ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ بأي إذًى أو لظىً وإساءة وفضيحة.

وترى كيف لن يصلوا إليك؟ أنه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾(٢) إذاً فـ ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ حيث لا يرونك ولا ضيفك، ولأنهم رسل ربك وليسوا ذكراناً من العالمين حتى يصلوا إليهم وصولهم إلى هؤلاء(٣).

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٨٧ في العلل بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأمر أن ينادي الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس إنه بلغني عنكم كذا وكذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، قالوا: ومن يا أمير المؤمنين؟ قال: أولهم إبراهيم - إلى أن قال -: ولي بابن خالته لوط أسوة أن قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: ٨٠] فإن قلتم إن لوطاً كانت له بهم قوة فقد كفرتم وإن قلتم لم يكن له بهم قوة فالوصي أعذر.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٧.

(٣) البحار ١٢ : ١٦٦ عن أبي جعفر عليه السلام قال - فيما ذكر من قصة لوط المفصلة -: وقد تدافعوا على الباب فكسروا باب لوط عليه السلام وطرحوا لوطاً فقال له جبرئيل: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هُود: ٨١] فأخذ كفاً من بطحاء فضرب به وجوههم وقال: شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط: يا رسل ربي بم أمركم فيهم، قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: وما حاجتك؟ قال: تأخذونهم الساعة، قالوا: يا لوط إن =

ف ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ تبشيراً بإهلاكهم عن بكرتهم، تقليصاً لهم بأسرهم، وتخليصاً لك عن أسرك بينهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ كلهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ مظلماً ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ وراءه ﴿مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ حيث تلتفت راجعة إلى قومك فلا تمنعها، بل وألفتها ف «إنه» الشأن الشائن هنا هو أنه «يصيبها ما أصابهم» من الكفر والنكران، فمصيبها ما يصيبهم من عذاب الرحيم الرحمان و﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟.

فالسرى هو السير ليلاً، فقطع من الليل علّه الليل الأليل وهو أظلمه، ثم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ تعم الالتفات حين السرى أم ضمنه، فقد تعني عدم التربص والتريث والتعويق إلى عدم اللفتة إلى الوراء، ثم ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تفريج بهيج عن كرب لوط عليه السلام المكروب المنكوب إنعاشاً لنفسه النفيسة عن هذه الحالة التعيسة البئيسة، تقريباً لموعد هلاكهم مع مطلع الصبح ثم يفعل الله بهم ما فعل بركنه الشديد الركين المكين كما آوى إليه من ذي قبل.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ من الوعد إلى تحقيقه ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وهو إلى عالي المدينة وسافلها، عالي أهلها حيث سفلوا عن علوائهم بالعذاب المهين، كما جعلت أعالي المدينة حيث مساكن أهليها الأعالي، جعلت أسافلها، ثم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ نضدها الله لإمطار هؤلاء الأوغاد الأنكاد وأمثالهم ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معلمة لهم ﴿وَمَا هِيَ مِنَ

= موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يؤخذ، فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك، قال أبو جعفر عليه السلام: رحم الله لوطاً لو يدري من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حين يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة قال الله عزّ وجلّ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] أي من ظالمي أمتك إن عملوا عمل قوم لوط.

ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أمثالهم «ببعيد» وحقيقة التسويم هي العلامات التي يعلم بها الفُرسان والأفراس في الحرب للتمييز بين الشعارات، والتفريق بين الجماعات، وهكذا كانت فرسان العذاب لقوم لوط إذ كانت معلمة معلنة تختص بقبيل الظالمين حضوراً ومستقبلين.

أجل، ولا تختص هذه الممطرة المزمجرة المدمرة بهؤلاء الأنكاد البعاد، بل هي تعم كل الظالمين أمثالهم، فهي - إذاً - قريبة غير غريبة، وتحت الطلب العادل، فعند الحاجة تُطلَق فتصيب أهليها.

فيا لسدوم الصدوم من صدام صدَّام مع رسول الحق، فصادمها عذاب من الله الحق، وليعلم الظالمون أنهم منكوبون لوقتٍ مَّا مقرر في حكمة الله ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، أياً كانوا وأيان، وإن كانوا من الأمة المسلمة الأخيرة مهما اختلفت شكلية العذاب.



﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

يذكر شعيب إحدى عشرة مرة في أربع سور، وينقص ﴿مَدْيَنَ﴾ عن شعيب مرة واحدة، وفي هذه العشر أربع منها خالية عن قصة شعيب أم ذكراه، حيث يذكر فيها موسى باتجاهه إليها.

ومهما كانت صيغة الدعوة الأصلية لشعيب صيغتها لمن تقدمه من المرسلين، ولكن الصيغة الفرعية تختلف عنها قضية ملابسات مدين إذ كانوا متورطين في نقص المكيال وبخس الناس أشياءهم وعثيهم في الأرض مفسدين.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾:

وترى كيف ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ وهم مشركون عقيدياً وناقصون في المكيال والميزان وعاثون في الأرض مفسدين عملياً؟.

﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ من العقلية الإنسانية فكيف - إذاً - تعبدون من دون الله وتذرون ربكم وراءكم ظهرياً، تجاهلاً عن العقلية والفطرة الإنسانية اللتين تحكمان بتوحيد العبودية كما تحكمان بتوحيد الربوبية.

ثم و﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ شرطَ إصلاح العقيدة والعملية، كما و﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ قابلية لذلك الإصلاح وفاعليةَ، فالأول بيان حقيقة واقعية، والثاني حقيقة مشروطة، والثالث تشويق وترغيب ألّا تنظروا إلى ما أنتم عليه من ضلال، فإني أراكم بخير في تقبل الحق المرام.

كما و﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ في الحالة الاقتصادية ورخص الأثمان فلا حاجة لكم ولا رجاحة في بخس المكيال والميزان، فالبخس في المكيال والميزان وأنتم بخير وغنىً هو أنحس البخس وأنجسه!.

إذاً ف ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ سناد إلى حجة تقضي على هذا التخلف العقيدي والعملي لهم.

ثم ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ في تمردكم عن الخير المُرام، وكفركم بما عندكم من خير المال ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ هنا استئصالاً وفي الأخرى وهي أخوف وأنكى.

ومن عذاب يوم محيط هو الثورة القاضية من الناس المبخَسين في أشيائهم، سواء بصورة الشيوعية في ثورتها القاسية، أم بصورة الاستنصار الإيماني من هؤلاء المبخَسين، وكما قال الله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1] فحين يخلِّف ترك الإنفاق في سبيل الله وعدم الإحسان إلى عباد الله، تهلكة مهلكة، فبأحرى أن تبخسوا الناس أشياءهم أن يلقيكم إلى تهلكة هي أهلك منها وأحلك.

وهذا المثلث المعني من ﴿يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ دركات مختلفة في مراحل العذاب، متفقة في حيطة العذاب حيث لا مخلص عنه ولا مناص بأي مخلص أو خلاص، لمكان الكفر المعمَّد المعمق العريق حيث يخلف عريق الحريق.

وإنما وصف اليوم بالمحيط وعذابه هو المحيط، لأنه يوم القيامة بنفسه وعذابه يحيط مستحقيه فإنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾:

ثالوث من عمل منحوس كانوا فيه متورطين، ورأس زاويته نقص المكيال والميزان الذي يخلِّف إفساداً في الأرض، فإن لانحراف الاقتصاد عن قسطه دوراً عظيماً في سائر الإفساد في الأرض، ولقسطه قسط عظيم من الإصلاح في الأرض.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

وترى ما هو موقع الأمر بإيفاء المكيال والميزان بعد النهي عن نقصهما؟

لأن الإيفاء هو الإيتاء على سبيل الكمال والتمام، فقد يعني إعطاء قدر زائد عن الحق حائطة في هذه الزائدة، وبركة في المعاملة ودركةً عن المخاملة، ولكنها ليست مفروضة حيث المرفوض هنا من ذي قبل هو نقص المكيال والميزان، فالعوان بين النقص والإيفاء في المكيال والميزان هو العوان بين المحظور والمحبور، ولذلك أصبح مسكوتاً عنه حيث هو المعروف في ذلك المضمار ككثير من أضرابه.

ووجه آخر أن هذا الأمر تأكيد لترك المنهي عنه كما في سائر الأمر والنهي المؤكدين بذلك التكرار في مختلف الصيغ، كما أمر الله بالسعي إلى صلاة الجمعة ثم نهى عن البيع وقتها، تأكيداً أكيداً للسعي إليها.

والجمع بينهما هو أجمع وأجمل، تأكيداً لأصل المحظور، وبياناً للمحبور، والعوان بينهما عوان ولكلّ حكمُه.

ذلك، والإيفاء في الكيل والميزان بزيادتهما عن الحق المُرام، وهو معاكسة صالحة للبخس في المكيال والميزان، يجبر كسره، فهو من أسباب الغفران فيصبح لفترة مقدرة قدر البخس - من معدات الغفران.

فواجب الإيفاء الزيادة هو جبر للنقص والبخس السابق، وراجحُه هو المحبور على أية حال.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ وأشياءهم دون أموالهم مما يشي بعناية كل أشيائهم القابلة للبخس، وهي كل نواميسهم الحيوية الخمسة: نفساً وعقلاً وديناً وعرضاً ومالاً، فالبخس في هذه الخمسة بخس في الحياة نحس، وإفساد في أرض الحياة يحلِّق على كافة الجنبات.

والعيث والعِثيُّ متقاربان إلّا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد

المحسوس، والعِثيُّ في غير المحسوس، وكل يستعمل في الآخر قليلاً، وقد يعني ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ كلا العيث والعِثي، لجواز عنايتهما منه، وأن أشياء الناس لا تختص بالمحسوس، كما وأن الإفساد غير مخصوص بالمحسوس، بل وهو أنكى وأشجى من المحسوس، فأين بخس العقلية والعقيدة من بخس المال.

وهنا «لا تعثوا مفسدين» فهي مؤكد عن تقصُّد الإفساد وهو السعي فيه، وعبارته الأخرى «لا تفسدوا في الأرض مفسدين» فالإفساد غير المتقَصد، أو الأحياني منه دون أن يصبح عليه متعوِّدة، إنه خارج عن هذا الخطر مهما كان في أصله محظوراً، حيث القصد هنا هو أفسد الإفساد المعبر عنه في آية الإفساد بـ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾[1].

وهنا تقارن التناسب بين ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] حيث تشملان النواميس الخمسة في البخس والإفساد، فليس فقط السعي في الإفساد في الأرض محظوراً، بل والإفساد بأي بخس في أي من الأشياء على أية حال محظور.

ولأن الأصل في الفساد والإفساد العقيدي هو الإشراك بالله، ثم من الأصل فيهما جماعياً هو البخس في المكيال والميزان كما في قوم صالح حيث تعودوا عليه، لذلك هما يتقدمان على كل فساد وإفساد في الأرض كرأسي الزواية فيهما.

أجل، وللانحراف والظلم الاقتصادي موقعه العظيم العميم في سائر الإفساد في الأرض حيث يُهلك الحرث والنسل، ولأن صالح الاقتصاد هو الحاجة الحاضرة للجميع، فقد يؤثر صالحه وطالحه ويعكسان على المجتمع براً وفاجراً.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨٣.

فالقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة، أم هي قضية الشريعة وكل الصلات بين المكلفين بها، التي تنبثق من أصل العقيدة التوحيدية، فنقص الناس في المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءَهم بسرقة أو اغتصاب أم أية حيلة معاملية وسواها، إنها تنافي قضية صالح العقيدة، حيث المفروض أن تنعكس العقيدة على الأعمال فلا تظل صورة خيالية لا خبر عنها في الواقع المُرام.

فالأصل الذي تتبناه الحياة السعيدة بكل حقولها الصالحة هو صالح العقيدة، وليس ما يهرفه أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق والعقيدة للعلاقات الاقتصادية، أو الجنسية أماهيه من علاقات غير عقيدية.

هذه تصرفات شرِّيرة مهما خيل إلى أصحابها أنها خيِّرة حيث الأكل بالباطل لا يكلف سعياً وراء الحاجات والحاجيات، وحتى إذا كانت خيرة فـ :

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ :

أنتم تفتكرون أن بقية نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءَهم - حيث تبقى لكم بما تبغون - هي بقية خير، وهي فانية ماضية قاضية على حياتكم، ولكن ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ بالله، مهما كان إيماناً شركياً، فإنه فيما تعتقدون هو إله الآلهة التي تتخيرون، والبخس نحسٌ أياً كان ومن أيِّ كان، نحس فطرياً وعقلياً وإيمانياً، وإن في أدنى دركاته.

فهناك بقية الشيطان في نقصكم وبخسكم، بغيّةَ شقية لا تأتي بأي خير إلا تخيلاً عابراً.

وهنا ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ وهي الباقية من بيوعكم بحكم الله إن كنتم مؤمنين بالله، ومراعين أمانة الله في شرعته ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ عن الأخطاء والأخطار، فإن أنا إلَّا رسول ليس عليَّ هداكم، ولكن الله يهدي من يشاء، ولا أنا حفيظ عليكم حين يأتيكم عذاب الله، فلا حفيظ عليكم إلَّا الله ببقيته، حيث الإيمان به والعمل الصالح له

هما ضمانان لبقيته هنا وفي الأخرى ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[(١)]: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[(٢)] ذلك والبقية هي صفة لمحذوف هو الحالة أو الحياة المستمرة أو المنفعة، خيِّرة وشرِّيرة، ومن الأولى أولو بقية: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[(٣)] ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ...﴾[(٤)].

فـ ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ هم الذين يتولون بقية الحياة الخيِّرة السليمة بما ينهون عن الفساد في الأرض.

إذاً فمن ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ هنا هو شعيب الذي يستبقي بدعواته الخيرة خير الحياة هنا وفي الأخرى، استبقاءً بأمر الله لكن ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ فإن أصل البقية هو الله، ومنها المنفعة البقية من التجارة، فالبقية الشيطانية شقية غير نقية لا تخلف إلَّا فساداً أو كساداً لسلب الطمأنينة عن المشترين وبقية الله هي نقية تخلف ربحاً لمكان الطمأنينة في المشترين، ومن ثم هي خير في الأخرى، وتلك الشيطانية هي شر فيها مهما تظاهرت بالوفيرة.

فلـ ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ مصاديقها حسب ظروفها وملابساتها ومنها ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ في الدعوة المعصومة الرسالية وهي الحجة الأخيرة التي ليست بعدها حجة: القائم المهدي المنتظر من آل محمد عليه السلام [(٥)] كما أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - وبأحرى - هو بقية الله في حقل الرسل عليهم السلام.

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٦، ١١٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.
(٥) نور الثقلين ٢: ٣٩٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل عن أحمد بن إسحاق =

صحيح أن شعيباً بدعوته البقية هو بقية الله، وهكذا النبيون أجمع مع خلفائهم، ويأحرى محمد ﷺ بخلفائه عليهم السلام [1]، ولكن صاحب الأمر هو

= ابن سعد الأشعري قال: خرج أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام علينا وعلى عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين فقال عليه السلام: يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على الله عزّ وجلّ وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا، إنه سمي رسول الله ﷺ - إلى أن قال -: فنطق الغلام عليه السلام بلسان عربي فصيح فقال: أنا بقية الله في أرضه والمنتقم من أعدائه ولا تطلب أثراً بعد عني...

وفيه بإسناده إلى محمد بن مسلم الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يذكر فيه القائم عليه السلام يقول فيه: فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فأول ما ينطق به هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] ثم يقول: أنا بقية الله وحجته وخليفته عليكم فلا يسلم عليه مسلم إلا قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه، وفيه عن كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام وقد ذكر الحجج، هم بقية الله يعني المهدي عليه السلام الذي يأتي عند انقضاء هذه الفطرة فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وفيه عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام سأله رجل عن القائم عليه السلام كيف يسلم عليه؟ قال: يقولون: السلام عليك يا بقية الله ثم قرأ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١) نور الثقلين ٢: ٣٩١ في عيون أخبار الرضا عليه السلام في باب ذكر مولد الرضا عليه السلام عن علي بن ميثم عن أبيه قال: سمعت أمي تقول: سمعت نجمة أم الرضا عليهما السلام تقول: لما حملت بابني علي لم أشعر بثقل الحمل وكنت أسمع في منامي تسبيحاً وتهليلاً وتمجيداً من بطني فيفزعني ذلك ويهولني فإذا انتبهت لم أسمع شيئاً فلما وضعته وقع إلى الأرض واضعاً يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء يحرك شفتيه كأنه يتكلم، فدخل إليه أبوه موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: هنيئاً يا نجمة كرامة ربك، فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذن في أذنه الأيمن وأقام في الأيسر ودعا بماء الفرات فحنكه به ثم رده إلي وقال: خذيه فإنه بقية الله عزّ وجلّ في أرضه.

وفيه عن أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك وصار ببابه قال لأصحابه ومن كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد وبخت محمد بن علي ثم رأيتموني قد سكتُّ فليقبل عليه كلّ رجل منكم فليوبخه ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر عليه السلام قال بيده: السلام عليكم، فعمهم جميعاً بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقاً بتركه السلام عليه بالخلافة وجلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه ويقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين ودعا إلى نفسه وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم، ووبخه بما أراد أن يوبخه، فلما سكت أقبل عليه القوم رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم، فلما سكت القوم نهض عليه السلام قائماً ثم قال: يا أيها الناس =

بقية أخيرة عالمية، ففيه زوايا ثلاث من ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: زاوية مشتركة مع سائر ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ هي رمز الإبقاء لحياة سليمة صالحة إيمانية.

وأخريان تختصان به، أولاهما أنه البقية الأخيرة لحقل ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ وأخراهما أنه الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وهكذا بقية ربانية تحلق على المكلفين كلهم هي منقطع النظير بين كل بشير ونذير.

وفي التالي خطب للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حول بقية الله المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي».

«... ألا وفي غد - وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون - يأتي الوالي من غيرها عمالها على مساوىءِ أعمالها، وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها، وتلقي إليه سلماً مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة وتحيي ميِّت الكتاب والسنة»[1].

= أين تذهبون وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم وبنا يختم الله آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكاً مؤجلاً وليس بعد ملكنا ملك لأنا أهل العاقبة، يقول الله عز وجل: والعاقبة للمتقين، فأمر به إلى الحبس فلما صار إلى الحبس تكلم فلم يبق في الحبس رجل إلا ترشفه وحن إليه فجاء صاحب الحبس إلى هشام فقال له: يا أمير المؤمنين إني خائف عليك من أهل الشام أن يحولوا بينك وبين مجلسك هذا ثم أخبره بخبره فأمر به فحمل على البريد هو وأصحابه ليردوا إلى المدينة وأمر ألا يخرج لهم الأسواق وحال بينهم وبين الطعام والشراب فساروا ثلاثاً لا يجدون طعاماً ولا شراباً حتى انتهوا إلى مدين فأغلق باب المدينة دونهم فشكى أصحابه الجوع والعطش، قال: فصعد جبلاً يشرف عليهم فقال بأعلى صوته: يا أهل المدينة الظالم أهلها أنا بقية الله يقول الله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] قال: وكان فيهم شيخ كبير فأتاهم فقال لهم: يا قوم هذه والله دعوة شعيب النبي والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدقوني في هذه المرة وأطيعوني وكذبوني فيما تستأنفون فإني ناصح لكم، فبادروا فأخرجوا إلى محمد بن علي عليه السلام وأصحابه بالأسواق فبلغ هشام بن عبد الملك خبر الشيخ فبعث إليه فحمله فلم يدر ما صنع به.

(١) (الخطبة ١٣٦).

«فلا تستعجلوا ما هو كائن مُرصد، ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما أن أدركه ود أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غدٍ، يا قوم هذا إبَّان ورود كل موعود، ودنوٌّ من طلعة ما لا تعرفون، ألا وإن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين، ليُحلَّ فيها ربقاً، ويُعتق رقاً، ويصدع شعباً، ويشعب صدعاً، في سُترة عن الناس، لا يُبصر القائِف أثَره، ولو تابع نظره، ثم ليُشحذنَّ فيها قوم شحذَ القَيْن الفصل، تجلى بالتنزيل أبصارهم، ويرمى بالتفسير في مسامعهم، ويُغبقون كأس الحكمة بعد الصَّبوح.. قد لبس الحكمة جُنتها، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته يُسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذَنَبه، وألصق الأرض بجِرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه» (١٨٠).

أجل، إنه البقية المتميزة بين ﴿أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ لا في مقامه السامي، فإن محمداً ﷺ أسمى منه، وإنما في تحقيق البقية المحمدية وسائر البقيات النقيات الرسالية على مدار الزمن الرسالي.

هنا في حقل البقية ﴿اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(١)] ثم بقية منه هم الدعاة إلى الله، ثم الدعوة إلى الله، فـ ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ - هي في الأصل - البقية الربانية من الله، إبقاءً على من يتبع شرعة الله، ثم الذين يحملون شرعة الله برسالته ودعوته، ومن ثم البقية الباقية من الدعاة المعصومين عليهم السلام إلى الله، وهو بقية الله في الأرضين صاحب العصر وحجة الدهر القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام.

ففي حين يصدق على شعيب أنه من ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ ولكن ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.

﴿بِحَفِيظٍ﴾ يحوِّل الأصل في هذه البقية إلى الله، أنه البقية الحفيظة، وما الذين يحملون رسالاته إلا بقيات منه وبإذنه، وليسوا حفاظاً لا في تحقق الهدى ولا في تطبيق شرعة، اللّهم إلّا هدى دلالية معصومة بالله، ويمثل ذلك الأسلوب المَرِن الحذير، البشير النذير، يشعر المخاطبون بخطورة الموقف وثقل التبعة واقفين وجهاً لوجه أمام العاقبة التي ترقبهم بلا وسيط ولا حفيظ.

ذلك و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تخرج الناقصين في المكيال والميزان عن الإيمان حين يزعمون أن هذه البقية الباغية خير من البقية النقية الساغية!.

فكما أن المتعودين على الربا يقال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1] كذلك الناقصين في المكيال والميزان يقال لهم: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وإنما قالوا ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ لأنها أظهر مظاهر الإيمان، وأن شعيباً كان دائب الصلاة لأنها خير موضوع وقربان كل تقي، وهم كانوا دائبي الهزء به إذا مروا به وهو يصلي، فلما وعظهم ردوا عليه بما كان يفعله، قاصدين أنت شأنك وصلاتك فما يخصك بما نعتقد أو نعمل ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ . . .﴾[2].

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾:

ردٌّ مردود في كافة الحقول الإنسانية السليمة، واضح التهكم، بيِّن الهزء. سخرية الجاهل المطموس المركوس حين لا يجد أي رد عاقل ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ . . .﴾ فما هي الصلة بين صلاتك، وأن نترك نحن حريتنا في العقيدة والعمل وأن نترك ما يعبد آباءنا أو ﴿أَن نَّفْعَلَ فِي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٧.

أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ فأنت على شغلك وهو صلاتك ونحن على أشغالنا بسنتنا العريقة التي لسنا لنتحلل عنها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ يقولونها هازئين، أم ومتسائلين مستنكرين أن لست حليماً ولا رشيداً، أم أن هذه الدعوة لا تناسب الحلم والرشد.

فكما أننا لا نتدخَّل في صلاتك فلا تتدخل أنت كذلك في صلاتنا العقيدية والعملية أيها الحليم الرشيد! فليس من الرشد أن تأمرنا بما لا صلة له بصَلاتك وسائر عبادتك وأية صِلاتك، فقد ﴿كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾[1] بالحلم والرشد، فكيف تأمرنا بخلاف الرشد؟!.

ورغم أن هؤلاء الأغباش المجاهيل لم يجدوا بمحضرهم من الهزء في المفاصلة التامة إلَّا صَلاته وعبادتهم وتجارتهم الباخسة، نرى أن الصلاة الناشئة عن عقيدة التوحيد هي مع سائر الشؤون الحيوية لحمة واحدة، فالشعائر كلها ومعها المعاملات كلها هي ذات صلة عريقة قريبة بصالح العقيدة، فـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فهي الآمرة بكل عرف والناهية عن كلِّ نكر.

ذلك، وقد نرى الجاهلية المتحضرة هي أنكى من الغابرة في أمثال هذه المواجهات الجاهلة مع دعاة الحق، ولا فحسب في الجاهلية الملحدة أو المشركة. بل والجاهلية التي تسربت إلى أدمغة مجاهيل من المسلمين فترسبت فيها لحد خيِّل إليهم أن لكل من العقيدة وعمليات الحياة دورها الخاص، قد تجتمعان وقد تفترقان، فقد يتساءلون: ما للإسلام وسلوكنا الشخصي الذي يخصنا في صالح الحياة، وما أشبه من تساؤلات تُشابه ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ تعريضاً بضدهما حيث الحليم الرشيد لا يدعو لما لا

(١) سورة هود، الآية: ٦٢.

يخصه دون صلة بين اختصاصه واختصاص الآخرين! فليس من الرشد أن ينظر الإنسان إلى مجتمعه من منظره الشخصي، فإذا هو مسلوب الحرية بصَلاته أم أية صِلاته، يحاول أن يسلب - كذلك - حريات الآخرين!.

فلا حجة في صلاتك أن نترك نحن الجماهير حرياتنا العقيدية والعملية، فلأن أنفسنا هي أنفسنا وأموالنا هي أموالنا، فكلا التحديد والتهديد لما نعتقد أو نعمل خارجان عن الطريقة السليمة المألوفة بين بني نوع الإنسان.

ذلك لأنهم أجمع على مختلف دركاتهم لم يعرفوا صلة العقيدة الصالحة بصالح الحياة الإنسانية حاضرة في كل حقولها، فأول ما تُصلحه العقيدة الصالحة هو الحياة الحاضرة ومن وراء الأخرى التي هي من خلفياتها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

وهنا يتلطف شعيب كأن لم يسمع إلى هذه السخرية، حاسباً أنهم يتطلبون بينة يسندون إليها كسائر الدعاة إلى الله الذين يحاولون في حمل الناس إلى الحق دون صغْي لباطلهم العاطل، ولا إجابة عن سخرياتهم الهازئة:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كسائر بينات الرسل في المغزى والمعنى، والرسول بنفسه بينة تبين حق رسالته، ثم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ فلا أخالفكم في قضية الفطرة والعقلية السليمة أو الشرعة الربانية، ولا أخالفكم بصلاتي إلى ما أنهاكم عنه، فالفطرة والعقلية السليمة ورسالات الله كلها،

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

وصلاتي أنا، كلها عساكر من البراهين لصالح ما أنهاكم وآمركم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ دون تأمر عليكم لا يُعنى ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ في دعوة الحق وتحقيقه ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ فما أنا إلَّا رسول الله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على سواه ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ لا إلى سواه.

وهنا في ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ لمحة صارحة أن إرادة مخالفة الناهي لما ينهى عنه هي من المنكرات، فضلاً عن أصل المخالفة ولا سيما إذا كانت جاهرة، وهكذا الأمر في الأمر: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[٢] [٣].

فهذه نصوص ثلاثة تحظر عن مخالفة الآمر والناهي ما يأمر به أو ينهى عنه، وأنه خلاف العقل ومقت كبير.

ولماذا ﴿أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ دون «فيما أنهاكم عنه»؟ علّها المخالفة الناحية منحى النهي، أنني ما أريد مخالفة في نفسي ناشبة إلى ما أنهاكم عنه حتى تحتجوا علي بما أخالفكم، فإن الاقتراف الجاهر للحرام له تأثير عظيم سلبي في مادة النهي، حيث يحرض المنهي على الإصرار فيه[٤].

وهنا ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ تجعل نفس هذه الإرادة محظورة فضلاً عن فعلها خفية أو جهاراً، فقد يحظر على ذلك الثالوث، فيحظر عن النهي المخالف للإرادة والفعل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت: انتهى عن المواصلة؟ قال: نعم، قالت: فلعله في بعض نسائك، فقال: ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هُود: ٨٨].

(٤) المصدر أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي عليه السلام قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصني...

ووجه آخر أنني ما أريد أن أخالفكم فيما تحكم به فِطَركم وعقولكم قصداً فيها إلى ما أنهاكم عنه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ وليس إصلاح الفاسد تصرفاً معادياً مهما سلب حرية ليست بحَرِيَّة للإنسان العاقل، إذ ليست كلُّ حرية محبورة، حيث الحريات الجاهلة والشهوانية التي تصطدم كرامة الإنسان في شخصه وفي الآخرين، هذه الحرية محظورة يجب على الصالحين تحديدها.

والعقلية الصالحة الحنونة في الإنسان، المدني الاجتماعي بالطبع، تقتضي المحاولة في إصلاح الآخرين العائشين معه كما يصلح نفسه، فضلاً عما إذا كان رسول ربه في الإصلاح.

ولأن الحريات الطليقة لأفراد المجتمع متصادمة، فلا بد من تحديدها عن أي تصادم إلى تلاؤم يقوم به صالح المجتمع نفسه، وإنما يقود ذلك التحديد المصلحون الصالحون ولا سيما الرساليون، ومن أمارات ذلك الإصلاح أن يأمر المصلح بما هو مؤتمر به، وأن ينهى عما هو منته عنه.

فالحُرِّيَّة الحَريَّة بالإنسان في حياته الإنسانية هي المحددة بالفِطرة والعقلية السليمة المكمِّلتين بالحدود والقرارات الشرعية، حتى يصبح المجتمع الإنساني آمناً عن كافة الاضطرابات والاصطكاكات والتحرُّجات: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[1] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

فكما الحرية الإنسانية فطرية، يتوخاها الإنسان كأصل في حياته، كذلك تحديدها بالحدود الصالحة التي تُصلحها، ومثالاً لذلك المركبات المقصود

(١) سورة القصص، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

منها السير وسرعته، ولكنها - أيضاً - بحاجة إلى سُواق عقلاء يضبطون مسيراتها ومصيراتها عن الاصطدامات.

أجل، فالمصلح عليه أولاً أن يصلح نفسه ثم يصلح الآخرين بصلاحه ويكل سِلاحه الصالح في الدعوة، دون مخالفة أو إرادتها إلى ما يأمر به أو ينهى عنه.

ولأن إرادة المخالفة لما يُنهى عنه إفساد للمنهي والنهي، لذلك قابلها بـ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾.

وهنا لما يقول الإمام علي عليه السلام: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصني، قال: قل ربي الله ثم استقم - يقول - قلت: ربي الله وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب». قال صلى الله عليه وآله وسلم: ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً»[1].

وتوفيق الله هو جعل قال العبد وحاله وفعالِه وفقاً لمرضاته في محبور أو محظور، فعلاً لمحبور وتركاً لمحظور[2].

فحين خيل إلى قوم شعيب أنه ينهاهم عما لا صلة له بما هو شغله يرد عليهم صارخاً ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ بل أنا أوافقكم في

(١) يقال: خالفني فلان إلى كذا قصده وأنت مولٍ عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، وهذا الأخير هو المعنى من الآية كما بيناه.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٩٣ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه: فقلت قوله عزّ وجلّ: وما توفيقي إلا بالله، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]؟ فقال: إذا فعل العبد ما أمره الله عزّ وجلّ به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عزّ وجلّ وسمي العبد به موفقاً وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ذكره ومتى خلى بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه.

الانتهاء عما أنهاكم عنه، فكما أن صلاتي تنهاني عن الفحشاء والمنكر عقيدياً وعملياً، فأنا أنهاكم عن الفحشاء عقيدياً وعملياً.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾:

أنتم تشاقُّونني في صالح الدعوة، حيث تجعلونني في شق «صلاتي» وتجعلون أنفسكم في شق عبادتكم وفعلكم في أموالكم وكل شقاوتكم كما تشاؤون، قاطعي الصلة بين الشقين بكل مفاصلة، كما تجعلون شقاً بين رسالتي ككل وما أنتم عليه، ولكن: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ قطعاً قاطعاً لا مردَّ له لثمرة الحياة الإنسانية ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من جرَّائه ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ مثل ما أصابهم بما أجرموا شقاقاً قاطعاً.

وقد يعني نفي بعدهم عنهم زمانياً ومكانياً، فقد كان الفصل الزمني ثلاثة قرون، ثم المكان هو القرب بين مدين وسدوم.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

اطلبوا غفره عما مضى رفعاً، وعما يستقبل دفعاً، طلباً بقالٍ من حالٍ في أعمالٍ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ بعد كامل الاستغفار فـ ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بهذه الرحمة والليونة والوداد، ﴿رَحِيمٞ﴾ بكم ﴿وَدُودٞ﴾ لا يرد قاصديه، إذا قصدوه، ولا مستغفريه إذا استغفروه، فهنا ﴿رَبِّي﴾ اعتباراً بخبرته الرسالية أنه رحيم ودود، وهناك ﴿رَبَّكُمۡ﴾ اعتباراً بالمعرفة العامة بربوبيته، ثم الجمع بينهما جمع بينهم وبينه في ربوبيته تعالى، ولمحة إلى خاصة ربوبيته له رسولاً إليهم.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾:

هناك «لا نفقه» وجوه عدة، منها أن «على أذاننا وقر» فلا نصغي إليك حتى نفقه ما تقول، وأخرى أنَّ على قلوبنا أكنة أن نفقه ما تقول كما ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1] وثالثة أننا لا تُقنعنا حججك، فإنها داحضة لا تُثبت حقاً تدعيه، فلا نفهم مدعاك بدعواك، هذه وما أشبه من عاذرة غادرة من هؤلاء الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً.

ذلك والفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وليست حجتك وُصلة حاضرة لبغية غائبة ف ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾.

أجل ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ﴾ لأنك في شق صلاتك ونحن في شق آخر فلا تجاوب بيننا ولا تفاهم، ولأنك لا تقول صالحاً تقبله العقول.

إذاً ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ وهكذا تقول الجاهلية المتحضرة نسخة حاضرة عن الغابرة وعلى طول الخط، تقول أمام كافة الحجج الرسالية البالغة «لا نفهم» حطّاً لموقعها عن أن تُفهم، وأنها لُغز وأساطير لا يفهمها الفاهمون، وإعذارا لأنفسهم ألَّا حجة فيما لا يفهمه المكلفون.

أجل ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ فلا قوة لك في الحجة تُفهِم أو تُفحِم ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا تقوى علينا، ولا تعني ﴿ضَعِيفًا﴾ أنه أعمى كما قيل، فقد يكون الأعمى أقوى من البصير، وأن العمى ليست نسبية، وهنا ﴿فِينَا﴾ تختص ضعفه بذلك الظرف، فلا قوة لك في هذه اللجة تُفحم، فتحملنا على قبوله بتأمل أو تعمُّل، اللَّهم إلَّا رهطك، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ وهو أنحس عذاب وأتعسه ثم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ لا عزة الحجة ولا عزة القوة، فأنت بيننا ضعيف ضعيف لا دور لك إلَّا كور، وإنما العزيز المانع من رجمك هو رهطك بعزة المُنعة أم عزة الكرامة أماهيه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

فحين تفرغ النفوس من العقلية الصالحة وتغرق في الجاهلية الطالحة الكالحة، فإنها تقبع على الأرض بشهواتها ومصالحها الحيوانية، إذاً فلا ترى حرمة لدعوة كريمة، ولا تتحرَّج عن أي بطش بالداعية الصالحة، إلَّا أن تكون عصبة تعصبه وتؤويه، أم قوة مادية أخرى تحميه، وأما حرمة الحق وكرامته فلا وزن لها ولا ظل في هذه النفوس النحيسة الذليلة الفارغة الخاوية! «فوالله الذي لا إله إلَّا هو ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلَّا العشيرة»[1].

وهنا ينبري شعيب بالغيرة الرسولية على جلال ربه بدعوته الربانية السامية، متحللاً عن الاعتزاز برهطه ومن أشبه أو ما أشبه من قوة أرضية، إجابة أخيرة عن شطحاتهم فيها كل قوة وشهامة، إذراءً وإزراءً بما لَهم من قوة ذَرو الرياح:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾:

كلمة أخيرة حاسمة قاصمة تفصل بينه وبين هؤلاء الأنكاد، بعدما فشلت كافة المحاولات الرسولية حكمة وموعظة حسنة في هؤلاء البعاد، وهي كلمة القوة والغلبة بما قدر الله وقرر لرسله ورسالاته:

﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأنتم تعرفون رهطي وتعرفون الله ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أمام آلهتكم التي ألهتكم، وهو إله الآلهة كما تقولون ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ حيطة العلم والقدرة.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٨ - أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ [هُود: ٩١] قال: كان مكفوفاً فنسبوه إلى الضعف ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ [هُود: ٩١]، قال علي: فوالله الذي . . .

وهذا إزراء بإزراء، حيث انتقصوه ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ . . . إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[(١)] هزءًا به ألا حلم لك ولا رشد، أنكم لا عقلية لكم مهما كانت قليلة حيث تحسبون رهطي أعز عليكم من الله»!.

إذاً فـ ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ والمكانة هي الحالة التي يتمكن صاحبها فيها مما يريد، فأنتم المتمكنون اعملوا في رجمي أمَّا تريدون من القضاء عليَّ، بكل طاقاتكم وإمكانياتكم، اعملوا ضدي رجماً وسواه من رجوم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ كما تعملون، وأين عمل من عمل وأمل من أمل، عمل شيطاني وعمل رباني و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ - عين اليقين - ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ بيننا أنا أو أنتم ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ خلفيَّة ما تعملون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما أعمل، والذي سوف يصلكم من عذاب الله ويصلني من رحمته، وإن «انتظار الفرج من الفرج»[(٢)] كما انتظار الحرج من الحرج.

ويا لها من حجة أخيرة حاسمة تغمرهم في لجَّة، فلو لم يكن رسولاً من الله لاستراح في تهديدهم إلى رهطه الذين هم يحذرونهم، دون أن يرفضهم ويفرض ما يدعو إليه من توحيد الله وهم يرفضون.

فالعاقل يغتنم كل فرصة حاضرة في خِضِمِّ الأخطار، والغريق يتشبث

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٧

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٩٣ في تفسير العياشي عن محمد بن الفضل عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن انتظار الفرج من الفرج؟ قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: ٩٣].

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أحمد بن محمد بن أبي نصر قال قال الرضا عليه السلام: ما أحسن الصبر وانتظار الفرج أما سمعت قول الله عز وجل يقول: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: ٩٣].

وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعرَاف: ٧١] فعليكم بالصبر فإنما يجيء الفرج على اليأس فقد كان الذي من قبلكم أصبر منكم، وفيه عن المجمع روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: كان شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء.

بكل حشيش، فضلاً عما ينجيه دون تشبث، فحين يترك شعيب رهطه الذين هم المنعة الوحيدة عن أخطار قومه، وتشبث بعناية ربه ورحمته من ناحية، ومن عذابه عليهم من أخرى، فذلك الصمود برهان قاطع أخير لا مرد له أن صاحبه رسول من الله دون هوادة.

أجل، والمؤمن لا يتعصب بأية عصبة وقوة في الظروف المحرجة إلَّا بربه، مما يزيده إيماناً على إيمانه، ويزيد أعداءَه حجة على حجته، فعصبية المؤمن ليست لأي حول أو قوة أو مُنعة إلَّا حول ربه وقوته ومنعته، وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الإيماني والجاهلي في كل أزماته وبيئاته.

ذلك، وبعد هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[1] ومن ثم العذاب الموعود:

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٣.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ

مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا
لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ
أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا
تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن
قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا
مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ
وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ
فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞

۞ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ الذي أمرنا وعداً، وهو ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾[١] جاء تحقيقاً، ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مما يدل على أنه حصل على مؤمنين في حجاجه الطويل الطويل ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ رحيمية خاصة بالرساليين من عبادنا الصالحين ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ المدمرة المزمجرة التي خلّفت صاعقة العذاب الهون بما كانوا يعملون ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ على الأرض كما يجثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض ساقطاً بصيده، فقد صادت هؤلاء الطيرَ الوحش صيحةٌ من عذاب الله وجثمتهم ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ وسكنوا وقتاً ما، إذ ما بقيت لهم من باقية، «ألا بعداً لعاد كما بعدت ثمود» بعداً لهم بعيداً حيث طويت صفحتهم عن الوجود، وصحيفتهم عن التاريخ، اللّهم إلّا بكل لؤم وشؤم كما تكررت في هذه الإذاعة القرآنية.

هذا شعيب عليه السلام في دعوته الصالحة، وقد قال عنه أخوه الأكبر محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره وأوحى الله إليه يا شعيب ما هذا البكاء، أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: لا! ولكن اعتقدتُ حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي، فأوحى الله إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقاً فهنيئاً لك لقائي، يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي»[٢].

وموسى عليه السلام هو آخر نبي في هذا العرض المسلسل لأنبياء عدَّة، ولكنه

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٤٨ - أخرج الواحدي وابن عساكر عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .

وفي البحار ١٢: ٣٨٠ مثله عن الزهري بزيادة مرتين أخريين لبكائه وعماه فرد الله عليه بصره فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه. .

خاصر يكتفى فيه بإرساله إلى فرعون وملئه بآيات رسولية ورسالية ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ثـم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وقد يغني المضي في «أوردهم» دون «يودهم» أنه أوردهم النار في الحياة الدنيا من ذي قبل، فهم يردون النار التي أوردهموها من قبل ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

فقد جعل فرعون في هذه الاستعارة اللطيفة، في تقدمه قومه إلى النار، بمنزلة الفارط المتقدم للوارد إلى الوِرد، كما كان في الدنيا متقدمهم إلى الضلالة وقائدهم إلى الغواية، وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورد ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ فإنه ورد لا يجيز الغصة ولا ينقع الغلة.

وبينما نسمع هنا حكاية عن ماضٍ ووعداً عن مستقبل إذا المشهد ينقلب وكأن المستقبل ماض قد مضى، إذ قد مضى أصله، وهو متحقق الوقوع في المستقبل.

وهنا ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بعد ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ توصيف رصيف للآيات، بأن فيها سلطة مبينة، ثم تعميم بعد تخصيص حيث الآيات هي الآيات المعجزات، وسلطان مبين هو كل البينات التي تبيِّن الحق سواء أكانت هي الآيات المعجزات، أم سواها من حجج بالغة ربانية، فمن السلطان مبين ومنه غير مبين، فالسلطان الفاضي عن الحجة هو قاهر قاصر عن المحجة، والسلطان الفائض بالحجة هو سلطان على الفِطَر والعقول، وقد يجتمعان كما في سلطان ثعبان العصا فإنه برهان حسي مخيف، وأفضل منه سلطان القرآن حيث هو مجمع كل سلطان في كل الحقول، فطرياً وعقلياً وعلمياً وحسياً وما أشبه.

ثم الوِرد هو الماء الذي يرده الحيوان العطاش، وهو المورود لهم، والإنسان بطبيعة الحال له وِرد مورود بما يقدمه من أعمال، فإن كانت صالحة فنعم الوِرد المورود هنا وفي الأخرى، وإن كانت طالحة فبئس الوِرد المورود

فيهما، حيث «يسقون» الأولون ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾[1] ثم الآخرون لهم سقي الزقوم ﴿يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾[2]: و﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[3] حيث ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾[4].

ولأن الوِرد المورود هو في المصطلح ورد قطيع الغنم العطاش بما يوردها رُعاتها، فهنا اللمحة اللّامعة أن قوم فرعون كانوا كقطيع الغنم يقدمها راعيها الخائن الفرعوني فأوردها وِرد النار بديلاً عن الماء، فهو وِرد الممات بديلاً عن ورد الحياة.

ذلك، فأين ورد مورود من ورد مورود؟ وأين رحيق مختوم من ماء حميم محموم؟.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا «لعنة» حيث تلعنهم سنتهم الباقية الباغية بمن تبعهم إلى يوم القيامة، فإن من سنَّ سنة سيئة كان عليه وزره إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيءٌ.

ثم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بلعنة العذاب الحاضر، بعد لعنة اللّاعنين بما التعنوا به من الطالحين أم لعنوه من الصالحين، و﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ وهو العطية الربانية جزاءً لهم وفاقاً، بديلة عن العطية الموعودة للصالحين، فكلا الوِرد المورود والرِّفد المرفود هما من مخلَّفات المساعي الصالحة والطالحة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[5].

ذلك، ومن واجهة أخرى كما أن ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ هو وِرد

---

(١) سورة المطففين، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٧١، ٧٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.
(٤) سورة ، الآية: ١٩-٢١.
(٥) سورة النساء، الآية: ٤٩.

فرعون بما أضلهم، كذلك ﴿ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ هو رفده وعطيته بما وعدهم كما وعد السحرة جزيل العطاء، فهو ذا رفده لمن اتبعه، وذاك وِرده لمن أورده.

ذلك، ولأن حقيقة الرفد هي العطية وقد جعلت اللعنة بديلة من الرِّفد لهم عند انتقالهم من دار إلى دار على عادة المنتجع المسترفد، أو الرجل المتزود، جاز أن يسمى رِفداً بوجه المجاز وكما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] والبشارة هي بطبيعة الحال لا تكون إلَّا في الخير، ولكن لما جعل إخبارهم باستحقاق العذاب في موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب، جاز أن يسمى في ذلك بشارة، أم لو كانت لهم بشارة فهي اللعنة المتبعة يوم القيامة، فضلاً عن النذارة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾:

النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهكذا تكون كل الأنباء القرآنية والقصص المسرودة فيه، فإنه ليس كتاباً قصصياً يعني عرض الأحداث فقط، فإنما يعني الفوائد العظيمة الرسالية التي تضمها، فلذلك يعبر عنها تارة بالأنباء، وأخرى بالقصص، والقصد إلى قصّ تاريخي عن طوماره، ما فيه فائدة عظيمة جسيمة.

فـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإنباء الرسولي والرسالي هو ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المتخلفة عن رسالات الله ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ من غابر التاريخ دون سردٍ لكل محاصيله، فـ ﴿مِنْهَا﴾ هذه القرى المقصوصة عليك ﴿قَآئِمٌ﴾ بنفاد أهلها أم بقاء بعض منهم «و» منها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ حُصِدت مع أهليها، فقد تعم ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ القرى بأهليها، بل والقرى في الأصل هي الأهلون، وتطلق على أمكنتهم بمجاز الملابسة.

فالوصفان بالنسبة لأمكنتهم يعنيان: منها قائم البناء، خال من الأهل، ومنها منقوض الأبنية ملحق بالأرض تشبيهاً بالزرع المحصود.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

وهما بالنسبة لهم أنفسهم تشبيه للأحياء الباقين بالزرع النامي، وللأموات الهالكين بالزرع الذاوي، وذلك أحسن تمثيل وأوقع تشبيه.

أجل «وإن لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة، أين الفراعنة وأبناء الفراعنة، أين أصحاب مدائن الرسِّ الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين، أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدَّنوا المدائن»[١].

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ فيما عذبناهم ﴿وَلَكِن﴾ هم الذين ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إذ كذبوا بآياتنا فعُذِّبوا كما كَذَّبوا، فقد ظلموا هم أنفسهم دوننا، حيث العذاب المستحق هو العدل وتركه ظلم.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي﴾ ألهتهم حيث ﴿يَدْعُونَ﴾ ها ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ عن عذاب الله ﴿لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بذلك العذاب ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ هؤلاء الآلهة ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: وتقطيع عن رحمات الله، بدلاً من أن توصلهم إليها كما كانوا يزعمون ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[٢] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٣]!.

أجل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤] ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

---

(١) (من الخطبة ١٨١).

(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ١١٨.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٧٦.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ :

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الشديد الشديد ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ الذي رباك: هؤلاء الذين يكذبونك بما رباك ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ في دركات الظلم المستحق وَفقَها دركات العذاب ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ لا قِبَل به ولا مردَّ له، و«إن الله سبحانه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته...»[(١)].

ومن أظلم الظلم التكذيب بآيات الله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[(٢)] ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾[(٣)] ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾[(٤)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأنباء المقصوصة عليك، وذلك الأخذ الأليم الشديد ﴿لَأٓيَةٗ﴾ باهرة على صادق الحق مبدأً ومعاداً ورسالةً بينهما ﴿لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ فأما غير الخائف عذابها مهما كان موحداً معتقداً فيها، فليس في ذلك له آية، فإنما يصد أكثر الناس عن التبعثر خوفَ عذاب الآخرة، فإنهم عبيد يتبعدون خوفَ العذاب، ثم بغيةَ الأجر للأجراء وهم أقل، ثم طاعة الله وترك معصيته لأنه الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته وهم الأحرار وهم أقل من الأقل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم العظيم هو ﴿يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ فهو - إذاً - الآخرة

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٩ عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: إن الله... ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٠.

الأخيرة دون البرزخ، فإنه الآخرة الأولى بعد الدنيا ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ في الأولى بشهادة الفطرة والعقل والعدل الرباني وكتابات الوحي، وفي الأخرى هو مشهود لمجموع الناس، ومشهود بشهادات الشهود فإنه ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[١].

صحيح أن الحياة الدنيا هي يوم مجموع له ناس بقرون متتالية، ومثلها البرزخ، ولكن أين مجموع الآخرة منهما، حيث الجمع فيها يحلِّق على الكل دون إبقاء، لزمان واحد بمحشر واحد، ثم إن كلّاً مكشوف للآخرين كما هو مكشوف لنفسه، لا تخفى منهم خافية، فإنه يوم العرض الأكبر، على الله وعلى ملائكة الله ورسله، وعلى عباد الله بعضهم لبعض.

والبرزخ يوم عظيم في برزخه بين يوم الدنيا ويوم الدين «واعلم يا بن آدم أن من وراء هنا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يجمع الله فيه الأولين والآخرين»[٢].

إنه يوم مشهود لذلك الجمع، شاهدين بعضهم بعضاً وبعضهم لبعض أم على بعض، مكشوف لأهل الحشر كلهم دون أي ستار وغطاء على المحشورين وأعمالهم وأحوالهم، لا تخفى منهم خافية.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾: ذلك اليوم الآخر المجموع له الناس، المشهود للشهداء والناس ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ عندنا، المجهول بُعده وحدُّه عند من سوانا، فإنه من الغيب الطليق الذي لا يُظهر الله عليه الله أحداً.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٩٥ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليه السلام في الوعظ والزهد في الدين.

شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

وترى ما هو ذلك اليوم؟ هل هو يوم القيامة الكبرى كما عنته الآية السالفة؟ وتعلقت بها ﴿يَوْمَ﴾ ظرفاً بيانياً؟

وأين فيه السماوات والأرض وقد تفطرتا! ثم الخالدون في جنتها غير خارجين عنها وهنا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ قد تستثني عن خلودهم فيها!.

أم هو يوم البرزخ؟ لمكان السماوات والأرض، و﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ لأهل الجنة والنار حيث يخرجون من الجنة البرزخية إلى الحشر ثم إلى جنة الأخرى أو نارها؟ وليس يوماً واحداً كما تعنيه ﴿يَوْمَ﴾ فلكل ميت يومه فهو - إذاً - أيام! وليس مجموعاً له الناس وقد عنته الآية السالفة!.

قد يعنى ﴿يَوْمَ﴾ هنا يومي البرزخ والقيامة الكبرى، فإن لكلّ وجهه الوجيه: فأما القيامة، فالسماوات والأرض فيها هما غير التي انفطرت حيث تبنى في الأخرى سماوات وأرض أخرى[1] وكما يقول الله:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2] و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ﴾[3] إذاً ففي القيامة أرض وسماوات غير هذه حيث تبدّلان بهما، ثم لا ندري هل هما فقط لأهل الحشر؟ أم ولمن قد يخلقهم الله بعد القيامة الكبرى؟ فأما خلود الذين شقوا في النار إلّا ما شاء ربك؟.

فقد يعني خروج البعض من أهل النار حيث لا يستحقون الخلود ما

(١) الدر المنثور ٣: ٣٥٠ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ما دامت السماوات والأرض، قال: تبدل سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

دامت السماوات والأرض، فهم من الخارجين قبل خرابهما وكما في حديث الرسول ﷺ [(١)] ومنهم الباقون بعد خرابهما ما دامت النار، قبل انتهاء سماوات القيامة وأرضها، ولا نهاية لهما، وأما الأبدية اللانهائية للنار فهي فرية على العدل الحكيم، و﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [(٢)] فقد تؤكد ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ عدم الأبدية الطليقة لأهل النار، قضية مضي الفعل الدال على حتميته، فليس الاستثناء بالمشية هنا بياناً لطليق القدرة، بل الأصل فيه واقع العدالة.

وأمّا خلود الذين سُعدوا في الجنة ما دامت السماوات والأرض إلّا ما شاء ربك، فهو استثناء لما مضى من مكوث بعض أهل الجنة في النار قبل أن يخرجوا منها إلى الجنة[(٣)] وأما البرزخ، فـ ﴿يَوۡمَ﴾ هنا بحسابه منفصل عن ﴿يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ في الآية السالفة، ثم هو جنس اليوم لجنس الموتى فهو - إذاً - أيام، وهنا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ هما قبل القيامة الكبرى، فالنار والجنة إذاً هما البرزخيتان.

فالذين شقوا هم خالدون في ناره ما دامت السماوات والأرض، إلّا من توفّى عذابه المستحق فخرج من ناره، ثم يدخل الجنة البرزخية، ثم إلى جنة الأخرى.

وأما الذين سُعدوا فهم خالدون في جنته غير خارجين عنها إلّا خروجاً

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٥٠ - أخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة أنه تلا هذه الآية: فأما الذين شقوا.. فقال: حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال: يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال، أهل حروراء، وفيه أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ - إلى قوله - إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ قال رسول الله ﷺ: إن شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) المصدر أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: وأما الذين سعدوا... قال: هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة، يقول: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: ١٠٨] يقول: إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة.

لدخول الجنة الأخرى بفصل الساعة وعرصتها أم بدخول النار البرزخية في البداية، وهنا ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تعني أنهم مستمرون في جنة الله بلا انقطاع، حيث ينتقلون إلى جنة الأخرى بعد خروجهم عن الجنة البرزخية.

ذلك، ولكن ﴿يَوْمَ﴾ منصوبة، فظرفاً بيانياً لـ «يوم مجموع له الناس ويوم مشهود» قد ترجح أنه يوم القيامة الكبرى، مهما صحت عناية البرزخ منها ضمنياً دون دلالة مستقيمة لـ ﴿يَوْمَ﴾ عليه.

اللّهم إلّا أن يؤوّل ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أنه يجمع في نفسه كل الناس لوقت مّا وليس هكذا الدنيا، فهو كما ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[(١)] تحليقاً ليوم الموت على المجموع لا وجمعهم لوقت مَّا، وهكذا هو ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ بكل معاني الشهادة الماضية، ثم وقد تتعلق يومَ بـ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ كما يصح تعلقه بما قبل.

فقد تتحمل ﴿يَوْمَ﴾ كلا اليومين دون أي تحميل اللّهم إلا تحمُّل جميل، مهما كان الأظهر هو يوم القيامة الكبرى، فإن «الفاء» في ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تبعد تعلق ﴿يَوْمَ﴾ بهما.

وترى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تعني الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه[(٢)] فـ «على مَ نعمل؟ على شيءٍ قد فرغ منه؟ أو على شيء لم يفرغ منه؟ كما سأل الخليفة عمر رسول الله ﷺ وقد أجابه ﷺ: «بل على شيء فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ولكن كلٌّ ميسر لما خلق له»[(٣)]:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٢) قد رواه عنه ﷺ الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان ص ٢٤٠ بقوله: وروي عنه ﷺ: الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٩ - أخرج جماعة عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قلت يا رسول الله ﷺ فعلى مَ.. وعن صحيح البخاري عن عمران بن الحصين قال قلت يا رسول الله ﷺ: فيمَ يعمل العاملون؟ قال: كلّ ميسر لما خلق له، وفيه أيضاً عن =

كما ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[(١)] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(٢)].

أجل فرغ من شقاء من يشقى ومن سعادة من يسعد في علم الله دون تسيير، بل هو تيسير، فـ «كلٌّ ميسَّر لما خلق له» من شقاء وسعادة كما ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ فـ «الشقي من علم الله عزّ وجلّ وهو في بطن أمه أنه سيعمل عمل الأشقياء والسعيد من علم الله وهو في بطن أمه أنه سيعمل عمل السعداء»[(٣)].

هذا، وفي نظرة أخرى إلى هذه الآيات نجد فوارق بين الجنة والنار في البرزخ والأخرى: فالداخل في الجنة غير خارج عنها برزخاً وأخرى ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في كل منهما، لمكان ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ اللّهم إلا في الفاصل بين الجنتين وهو عرصات المحشر فالخروج عن الجنة أم فناؤها بأهليها لا يناسب عطاءً غير مجذوذ، ولا تعني ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هنا إلا الخروج عن الجنة البرزخية ثم الدخول إلى جنة الأخرى.

وأما الداخل في النار برزخاً وأخرى فقد لا يُخْلِدَ فيها، بخروجه عنها قبل فنائها، كالذين لا يستحقون خلودها[(٤)]، أم يخلَّد ولا يؤبد فيها حيث لا

= علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان في جنازة فأخذ عوداً فجعل ينكت في الأرض فقال: ما منكم أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار قالوا: ألا ننكل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له وقرأ: فأما ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥] وأما من بخل واستغنى فنيسره للعسرى.

(١) سورة عبس، الآية: ٢٠.

(٢) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٣) نور الثقلين ٢: ٣٩٦ – التوحيد بسند متصل عن محمد بن أبي عمير قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الشقي من شقى... فقال: الشقي من علم الله..

(٤) نور الثقلين ٢: ٣٩٩ عن تفسير العياشي سئل أبو جعفر الباقر عليه السلام عن قول الله – في أهل النار –: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧]؟ فقال: هذه في الذين يخرجون من النار، أقول: إنهم من المعنيين من الآية وليسوا كلهم وهذا تفسير بمصداق مجهول بياناً. =

يستحقه، أم يؤبد باستحقاقه الأبد ولكنه أبد محدَّد، وهذه الثلاث معنية بـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ لأهل النار، فثالثة المشيئة الربانية هي إفناء النار بمن فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من حكمة عادلة، وحيث لا يريد ظلماً بالعباد فليس فعّالاً له ولا فاعلاً، فلا يؤبِّد أهل النار فيها لغير حدّ محدود، إنما هو

= وفيه عن معاني الأخبار بسند متصل عن الحسن بن علي الناصر عن أبيه عن محمد بن علي الرضا عليه السلام عن أبيه - ثم ذكر آباءه إلى الحسين عليه السلام قال قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت فقال علي عليه السلام: على الخبير سقطتم، هو أحد أمور ثلاثة يرد عليها، إما بشارة بنعيم أبداً وإما بشارة بعذاب أبداً، وأما تخويف وتهويل وأمر مبهم لا يدري من أي الفريقين هو، فأما ولينا المطيع لأمرنا فهو المبشَّر بنعيم الأبد وأما عدونا المخالف علينا فهو المبشر بعذاب الأبد، وأما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤول إليه حاله يأتيه الخبر مبهماً محزناً ثم لن يسويه الله عزّ وجلّ بأعدائنا لكن يخرجه من النار بشفاعتنا فاعملوا وأطيعوا ولا تنكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله عزّ وجلّ فإن من المسرفين من لا يلحق شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة.

وفي تفسير البرهان عن ابن مسلم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجهنميين فقال: كان أبو جعفر عليه السلام يقول: يخرجون منها فينتهى بهم إلى عين عند باب الجنة تسمى عين الحيوان فينضح عليهم من مائها فينبتون كما ينبت الزرع تنبت لحومهم وجلودهم وشعورهم، ورواه بإسناده عن عمر بن أبان عنه عليه السلام مثله.

وفيه عنه بإسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن أناساً يخرجون من النار حتى إذا صاروا حمماً أدركتهم الشفاعة قال: فينطلق بهم إلى نهر يخرج من مرشح أهل الجنة فيغتسلون فيه فتنبت لحومهم ودماؤهم ويذهب عنهم قشف النار ويدخلون الجنة يقولون - أهل الجنة - الجهنميين فينادون بأجمعهم: اللهم اذهب عنا هذا الاسم، قال: فيذهب عنهم، ثم قال: يا أبا بصير إن أعداء علي هم المخلدون في النار ولا تدركهم الشفاعة.

وفيه عنه بإسناده عن عمر بن أبان قال: سمعت عبد الله صالحاً يقول في الجهنميين: إنهم يدخلون النار بذنوبهم ويخرجون بعفو الله.

وفيه عنه بإسناده عن حمران قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنهم يقولون: لا تعجبون من قوم يزعمون أن الله يخرج قوماً من النار ليجعلهم من أهل الجنة مع أولياء الله؟ فقال: أما يقرؤون قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمٰن: ٦٢] أنها جنة دون جنة ونار دون نار، أنهم لا يساكنون أولياء الله فقال: بينهما والله منزلة ولكن لا أستطيع أن أتكلم، إن أمرهم لأضيق من الحلقة، إن القائم إذا قام بدء بهؤلاء.

فعَّال لما يريد من حكمة عادلة، ومنها في حقل النار ألَّا يخلِّدهم ما دامت السماوات والأرض، حيث الشقاء بآثارها محدَّد محدود، ولا نهائيةُ النار لا تناسب محدودية الكفر والعصيان ف ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] و﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٢] و﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[٣] ولا مماثلة بين المحدود واللَّامحدود!.

وهنا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مضياً محققاً للمشيئة الربانية القاطعة، مؤكدة بـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنه - قطعاً - يريد ما شاءه لوقته، وفعال لما يريده من مشيئته، فمثلث المشيئة المرادة الفعالة هنا واردة على مثلث ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ - ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

والمحور المتعيَّن في هذه المحاور للاستثناء هو الأخير: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وصفاً لأمد الخلود، فسواءٌ أكانت السماوات والأرض دائمتين يوم القيامة دون زوال، أم هما زائلتان - ولا دليل قبل ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ على دوامهما - فالمعلوم في هذا البين أن ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ - وأظهرُهم مدلولاً هم المؤبدون في النار - أنهم داخلون في مشيئة الرب القاطعة قطعاً لعذابهم كما ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[٤] فـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ﴾ هنا في تحقيق المشيئة الماضية، هي كـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هناك في نفس التحقيق الحقيق بأهل النار. فأين إذا اللَّانهائية الحقيقية لخلود النار؟.

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

فقد برزت هذه الآية صارحة صارخة في هذه الإذاعة القرآنية - إلى جنب سائر البراهين المتجاوبة معها - أن الخلود اللّانهائي للآبدين في النار هو خرافة جارفة ظالمة، مهما زُخرفت بفلسفات وعرفانيات أم وروايات، إذ هي كلها بما أشبهها من توجيهاتها تطارد ذلك النص الباهر!.

ولأن ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لا تدل بنفسها على لا نهائيتهما، فليس ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء عن نص اللانهائية، بل هي تطارد زعمها بالنسبة لأهل النار، ثم ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تثبتها لأهل الجنة.

ذلك، وأما الاستثناء عن خلود أهل الجنة فقد يعني أكثر من دوام السماوات والأرض وهو اللّانهاية قضية ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وهناك قاطعة البراهين الدالة على أمد النار وأن ليس للجنة أمد، إنها تؤيد الفارق بين خلود الجنة والنار.

ذلك، وقد تعني ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ على أن لهما أمداً مهما كان أطول من دوامهما يوم الدنيا، فلأهل النار الخلود ما دامتا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهم خارجون عنها قبل خرابهما، ولأهل الجنة الخلود ما دامتا، انقطاعاً بانقطاعهما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من عدم انقطاعها عنهم بانقطاعها قضية ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

فـ «دام» بنفسها لا تدل على اللّانهاية، فضلاً عن «ما دام» فإن «ما» تحدد ذلك الدوام وإن كان يعنى اللّانهائية، ولا يعنيها، فقد تكون «ما دام» نصاً في نهايتهما، ثم لا دليل على لا نهائية سماوات القيامة وأرضها اللّهم إلّا ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ الدالة على بقاء الجنة بعد خرابهما! فبعد أن لم يكن أبد الجنة دليلاً على لا نهايتها، نجد ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تفسره باللّانهاية.

إذاً فـ ﴿مَا دَامَتِ﴾ إشارة لطيفة إلى انتهاء سماوات القيامة وأرضها، كانقطاعهما يوم الدنيا، إلّا أن مشيئة الله تقصِّر عذاب أهل النار عطفاً منه

ورحمة قضية أن ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[(١)] رحمةً بعد العدل، ثم مشيئته الأخرى تطول رحمة أهل الجنة فضلاً منه وإحساناً، قضية ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

فـ ﴿مَا دَامَتِ. . .﴾ تحدد - كأصل - أمد السماوات والأرض يوم القيامة، و﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ تقصِّر أمد النار وتكثر أمد الجنة.

فهذه الآيات هي منقطعة النظير في مثلث الدلالة، أمداً للسماوات والأرض يوم القيامة، وأبداً لا نهائياً لأهل الجنة، وأمداً قبل انتهاء السماوات والأرض لأهل النار!.

ففي الحق قد يصح القول - كما يروى عن الباقر عليه السلام -: «في ذكر أهل النار استثنى وليس في ذكر أهل الجنة استثناء»[(٢)].

ذلك لأن ظاهر الاستثناء هو عن موجب هو التقصير، وأما التطويل فغير داخل فيه، إلَّا بدليل قاطع وهو هنا ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

ذلك، ومن الداخل في تقصير الاستثناء هو ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فقد لا يخلد في النار شقي حيث يذوق وبال أمره فيخرج منها إلى الجنة دون زفير وشهيق، أم بعد زفير وشهيق، ثم الأشقون يؤبدون ما هم أحياء ثم يفنون بفناء النار قبل فناء السماوات والأرض، ويظل أهل الجنة في الجنة وهم عند سدرة المنتهى وهي فوق السماء السابعة، فلا يضرهم ولا جنتهم تفطر السماوات والأرض، كما لم يضر تفطرهما يوم الدنيا فإنها ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[(٣)] ولا دليل على زوال الكون عن بكرته، إلا تفطر السماوات والأرض، وجنة المأوى خارجة عنهما!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٩٩ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: . .

(٣) سورة النجم، الآيتان: ١٣، ١٤.

ثم ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾[١] في وجه القيامة وهو الأوجه، قد تعني ﴿لَّهُ﴾ لصالح الحساب الجمعي، حيث الأعمال لها واجهتان اثنتان ثانيتهما هي الواجهة الجمعية، فليجمع الناس كلهم لذلك اليوم حتى يعمهم السؤال والحساب: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢] حيث ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾[٣] فمكتوبات الأعمال بالأحوال والأقوال - ما قدموها بآثارها - تجمع يوم الجمع، حيث يقوم الأشهاد والمشهود عليهم أولهم يوم الميعاد.

وهنا أسئلة مطروحة على بساط البحث حول هذه الآيات الأربع فعرضها بأجوبة تناسبها كما تستفاد منها ومن الآيات المناسبة لها:

١ - كيف ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ فالتأخير عماذا يكون؟ هل هو عن الأجل المحتوم؟ وهو الأجل المعدود! أم عن الأجل المعلق؟ ولا تعلق لأجل القيامة، فـ ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٤] و﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾[٥]!.

المعني من التأخير هنا هو التأخير عما يُستعجل منه تهكماً أو تعنُّتاً وكما نسمعه من كافرين ناكرين ليوم الدين.

٢ - كيف يكون تقسيم أهل الحشر حاصراً كما يقول: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وهناك فرقة ثالثة لا هي شقية ولا سعيدة كالأطفال والمجانين وسائر المستضعفين القاصرين، فإن كلّاً من السعادة والشقاء هي خلفيَّةٌ لعقائد وأعمال سعيدة أو شقية وهما يختصان بالمكلفين الماكنين عقلياً من حمل المسؤوليات وتطبيقها.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.
(٣) سورة يس، الآية: ١٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.
(٥) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

ورابعة هي سعيدة وشقية، جامعة بينهما عقيدياً أو عملياً أو فيهما؟.

إن السعيد هنا هو الذي يدخل الجنة برحمة الله دون استحقاق لعذاب، سواء أكان مستحقاً لثواب بعمله، أم لا يستحق ثواباً ولا عقاباً لعدم تكليفه، فكما أن مستحق الثواب سعيد بعمله وفضل الله، كذلك الذي لا يستحق ثواباً ولا عقاباً هو سعيد مهما كان فقط بفضل الله، ولو أن فضله تعالى بحق الأشقياء لم يخالف عدله لشملهم عن بكرتهم، فالأصل منه هو الفضل لمن يستحقه بعمل أم دون عمل حين لا يستحق العذاب، وإنما فريق السعير هم الظالمون، وفريق الجنة هم من سواهم، عادلين وسواهم من غير الظالمين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾[1].

ثم المستضعفون ومنهم ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] وهم الذين جمعوا بين قصور وتقصير، فإن يعذبهم فهم من الذين شقوا، وإن يتب عليهم فهم من الذين سعدوا، ولكن الذين يعذبهم ليس ليخلدهم في النار، فهم - إذاً - من الخارجين عن النار، جامعين بين سعادة الجنة وشقاء النار، فهم - إذاً - من السعداء.

وأما الذين ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[3] فعساهم من السعداء، بل هم منهم وإن عذبوا بما أساؤوا.

وهكذا سائر ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[4].

---

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٧، ٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

فما روي من أن المجانين والصغار يُمتحنون هناك فإما إلى جنة وإما إلى نار، لا تصدَّق حيث «اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[(١)] [(٢)] وكما تظافرت به آيات الكتاب وروايات السنة عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

ذلك، وقد يعني ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ - إضافة إلى خالص السعادة لفريق وخالص الشقاوة لآخر - يعني: خليطاً منهما للجامع بينهما، ومنهم الذين ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[(٣)] و﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾[(٤)].

ولكن الآية إنما قد تتكفل مصير الفريقين الأولين، دون الآخرين حيث تتكفل مصيرهم آيات أخرى كـ «خلطوا...» و«مرجون» وما أشبه.

ولكن «سعدوا» مجهولة قد تشمل إلى من مات سعيداً خليطاً دون خليص، تشمل معه من يُسعد بعدما ذاق عذاب شقوته في النار البرزخية أو الأخروية، وهنا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ تعني - فيما تعني - مسبَق عذابه حيث شاءه جزاءً وفاقاً.

إذاً فـ «سعدوا» قد تشمل إلى الأولين، من سُعِد بعد عذابه، أم سُعِد دون عذاب ولا استحقاق ثواب ولا عقاب كالقاصرين.

٣ - هل تعني ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أن كلّاً موصوف بما وصف منذ خلقه في بطن أمه؟ أم منذ ولادة؟ أم منذ بلوغه الحلم؟ أو القصد - فقط - إلى زمن القيامة؟.

---

(١) وهي: أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ولّت حذّاء، فلم يبقَ منها إلا صُبابة كصُبابة الأناء اصطّبها صابها، ألا وأن الآخرة قد أقبلت. ولكل منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كلّ ولد سيلحق بأمه يوم القيامة، وإن اليوم..».

(٢) (الخطبة ٤٢).

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

إنه حكم منه تعالى بكل من الحالتين ليوم القيامة لمكان ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ حيث فُرِّعت الحالتان على ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ﴾ فلا صلة لذلك الحكم بالشقاء والسعادة قبل ذلك اليوم، فإنما نعرف أن الشقاء هناك هو خلفية عادلة للشقاء بالعمل المختار هنا، ثم السعادة هناك هي خلفية عدم الشقاء هنا، ولكن «شقوا وسعدوا» - ماضيتين - تعنيان سابق الشقاوة والسعادة، المنعكستين منذ الموت حتى القيامة.

إذاً فهما ليسا من حكم الله تعالى تكوينياً حتى يصبحا مسيَّرين لا يتخلفان، بل هما من حكم الجزاء الوفاق لكلٍّ كما يستحقه بفضل الله أو عدله.

ذلك، ومن ثم فعلمه تعالى بما سيحصل من سعادة وشقاء ليس علة تامة ولا ناقصة لأحدهما، بل هو كشف قاطع عن حصول كلٍّ بسببه الخاص، وليس عدم تخلُّفه عن علمه تعالى إلَّا لعدم تخلفه عن سببه المختار لصاحب السعادة والشقاء، فلو أنه اختار غير ما اختار لكان في علم الله غير ما اختار، فالعلم بعمل مَّا لا يستوجب بطلان الاختيار، فإنما هو علم كاشف عما سيحصل أم حصل، فكما أن العلم بما حصل لا يجعله مسيَّراً، كذلك العلم بما يحصل، إنْ مسيَّراً فمسيَّر وإن مخيَّراً فمخيَّر، فإنما الإرادة هي المسيِّرة، دون العلم بما حصل أو سيحصل، إذاً فـ «كلٌّ ميسَّر لما خلق له» - وكما في حديث الرسول ﷺ وليس مسيَّراً ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾[1] [2].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) فلا مجال هنا لتقوُّل إمام المشككين في تفسيره ١٨ : ٦١ بقوله: اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيد وعلى بعضهم بأنه شقي ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه وإلا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذباً وعلمه جهلاً وذلك محال، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقياً وأن الشقي لا ينقلب سعيداً - ثم ينقل رواية عمر ويقول -: قلنا: الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضاً فلا نزاع أنه إنما شقي بعمله وإنما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلاً بقضاء الله وقدره كان الذين ذكرناه باقياً. =

أجل، ما لم تنظم الإرادة الفعالة إلى العلم فلا تأثير في واقع المعلوم، والإرادة تؤثر دون علم.

٤ - كون المعني من «السماوات والأرض» هما للقيامة في وجه كون المعني من الجنة والنار هما ليوم القيامة، ذلك إحالة إلى مجهول حيث لا نعرف عن سماوات القيامة وأرضها شيئاً إلّا ما تلمح به ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[1] فلتكونا هما هذه السماوات والأرض، فالمتعين عناية الجنة البرزخية ونارها؟.

والجواب أن المعروف بدقة وهمامة وسعة نظر كلا السماوات والأرض في الأولى والأخرى، والجنة والنار برزخياً وفي الأخرى، فهما معاً معنيَّان.

ثم من ذا الذي يدري زمن انفطارهما في الأولى، فكذلك الأخرى ويأحرى، فإن جنتها لا نهاية لها قضية: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ مهما كان لنارها حد محدود ف ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

= أقول: هذا دليل خاطئ لا قاطع، حيث أخبر الله بعلمه بما سيكون ولم يحكم قضاءً مبرماً بشقاء هنا وسعادة، فقد بدل الأخبار بالحكم، كما بدله عما يحصل يوم القيامة بما حصل يوم الدنيا، ولو أنه كان حكماً فليس يعني إلا الحكم بالشقاء والسعادة بما عملها أهلوها يوم الدنيا ميسرين لا مسيرين. فالله يعلم أن فريقاً يشقون وفريقاً يسعدون كلّ بما يسَّره فاختاره هو من شقاء وسعادة، ثم يحكم كما يعلم بشقاء أو سعادة يوم القيامة، فأين الجبر إذاً.

وليست صمتية الشقاء والسعادة بما علم الله منهما فحكم به ليوم القيامة، إنما هي بما يختار أهلوها إذا «كلٌّ ميسَّر لما خلق الله».

أترى العمل الميسَّر كما المسيَّر أليسا مما يعلمه الله ويحكم بخلفياته؟ فمجرد العلم بعمل ما والحكم بنتيجته لا يستلزم كونه مسيراً، فالعلم إنما كشف عن الواقع الحاصل بسببه وليس هو سبباً لحصوله، وقد حصل هذا الحوار بين عمر الخيام، والخواجة نصير الدين الطوسي حيث اعترض عمر أن الله يعلم أني أشرب الخمر، فأنا إذاً مسير في شربها إذ لو لم أشربها لكان علمه تعالى جهلاً، فأجابه الطوسي بأن كون العلم الأزلي علة للعصيان، إنه جهل عند العقلاء حيث العلم كاشف عما سيحصل بأسبابه، سواء أكانت مسيَّرة أم سواها.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

أم وعلَّ القصد طول أمد الجنة والنار، ولا أطول فيما نعرف إلَّا أمد السماوات والأرض، ولكن الجنة لا نهاية لها قضية ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ والنار لها نهاية قضية عدل الله، ف ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ليست لتستثني فقط قصراً لهما، بل هو بين تقصير وتطويل، فالجنة لأهلها في الأخرى أطول أمداً من هذه السماوات والأرض قضية الفضل، والنار لأهلها هي بين أقصر وأطول من أمدهما أم قدرهما قضيةَ العدل في ذلك المثلث، فلها - إذاً - حد كما لأي عصيان.

فأهل الجنة البرزخية خالدون فيها ما دامت هذه السماوات والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يخلدوا أكثر هو في الجنة الأخرى ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وأهل النار البرزخية خالدون فيها ما دامت السماوات والأرض إلَّا ما ﴿شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ تقصيراً بخروج عنها إلى جنتها ثم إلى جنة الأُخرى، أم قدرهما أمَّا زاد نقْلةً إلى نار الأخرى ما دامت هي مشتعلة أم قبل انخمادها حسب مختلف الاستحقاقات ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

ثم أهل جنة الأخرى خالدون فيها ما دامت هذه السماوات والأرض أم تلك التي في الأخرى إلَّا ما شاء ربك تطويلاً دون تقصير ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وأهل النار في الأخرى خالدون فيها ما دامت هذه السماوات والأرض إلَّا ما شاء ربك من تقصير أو تطويل، أم تلك التي في الأخرى لنارها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من تقصير ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

ومن الداخل في الاستثناء ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ إذ ليسوا كلهم يستحقونها قضية اختلاف دركات العقائد والأعمال.

كما ومن الداخل فيه لأهل النار محدودية عذابهم ككل، حيث الآخرون

الذين لا يستحقون الجنة أبداً، يقضى عليهم بالأخير بقضاء النار وسماوات الآخرة وأرضها بعدُ قائمتان.

ولأن ﴿إِلَّا مَا شَآءَ﴾ دون شرط لا تناسب شرطية الاستثناء وإمكانية تركه، فلا تعني - إذاً - معنى «إن شاء - أم - لو شاء» استثناء بالمشيئة الممكنة، عناية إلى طليق مشيئته، وأنها غير محدودة بشيء أو محجوزة به.

إنما هي المشيئة الحتمية الماضية في علمه وتقديره أنه يشاء عدم خلود النار لأهلها ما دامت السماوات والأرض، ثم الاستثناء في أهل الجنة يفسر بـ ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ بمعنى أن ربك شاء عدلاً عدم خلود أهل الجنة فيها بزوالها، ولكنه شاء فضلاً بخلودهم فيها ببقائها.

ذلك، ولقد أشرنا من ذي قبل أن الأظهر الأجلى في هذه الآيات أن الجنة والنار هما الأخريان، لا سيما وأن النار البرزخية ليست إلَّا معرضاً في فترات دون خلود مستمر كما يدل عليها مثل قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

ومهما دلت آيات أخرى على الدخول في النار البرزخية، ولكنه دخول غير مستمر العذاب، فهو عرض آخر لذلك العرض: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[2] فالأمر موجه إلى امرأتي نوح ولوط حين موتهما، فهي - إذاً - النار البرزخية مهما تبعتها نار الأخرى، وهكذا:

﴿. . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا . . .﴾[3].

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

وقد تعني «السماوات والأرض» للآخرة في حقل المشيئة أنهم قضية عطاء غير مجذوذ لا يخرجون عن الجنة وإن تفطرتا، وخلقت سماوات وأرض أخرى أم لم تخلق.

٥ - لما ذا بالنسبة لأهل النار ﴿شَقُوا﴾ معلوماً، ثم لأهل الجنة ﴿سُعِدُوا﴾ مجهولاً؟ وهو لازم!.

ذلك لأن الشقاء ككلٍّ هو من فعال أهل النار، ولكنها السعادة أكثرها من الله حيث يوفق أهل طاعته فيها ولا يوفق أهل معصية فيها وكما في الحديث القدسي «يا بن آدم أنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني» ولأنه بيده الخير وليس الشر إلّا منا، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[1].

صحيح أن الله يضل الظالمين كما يهدي الصالحين، ولكن إضلاله الظالمين يعني انقطاع توفيقه عنهم، وحين يختم على قلوبهم فهو جزاء وفاق هنا قبل الأخرى، في حين أن هداه يعني مزيد التوفيق، إذاً فنصيب ربنا في الخير لنا أوفر من نصيب الشر، وقضيته في أهل الخير ﴿سُعِدُوا﴾ مجهولاً إذ هو فاعله الأصيل، وفي أهل الشر ﴿شَقُوا﴾ معلوماً إذ هم الأصلاء فيه، وليس من الله إلّا سلب التوفيق، أم والجزاء الوفاق بالختم على القلوب.

وأما لزوم ﴿سُعِدُوا﴾ فكيف يصاغ منه مجهول، فهذه جهالة من القول، فإن القرآن هو أصل الأدب ومنتهى الإرب دون سائر اللغة الأدب كمنتهى الإرب وما أشبه، فكما أن «رجع» مستعمل متعدياً كـ «رجعه الله» كما يستعمل لازماً ﴿رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾[2] كذلك «سعد» يستعمل لازماً ومتعدياً، وكما يصاغ من الثاني «مسعود»!... وهكذا يرتسم لنا يوم مجموع

(١) سورة النور، الآية: ٢١.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

له الناس ويوم مشهود أنه «يوم لا تكلم نفس إلّا بإذنه» فالصمت الهائل شامل إلّا لمن أذن له، ثم تبدأ عملية التوزيع ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بما شقوا يوم الدنيا أم سُعدوا، فتشهد الذين شقوا في النار - ولات حين فرار - مكروبين مغلوبين بين زفيرها وشهيقها حراً وضيقاً وكتمة، حيث الزفير ما يجتمع في الصدر من النفس عند البِطاء - الشديد - فينقطع النفس والشهيق هو الذي يظهر عند اشتداد الكربة والحزن وربما حصل به صعقة، فلهم من زفيرها زفرة، ومن شهيقها شهقة وصعقة، ونشهد ﴿ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ﴾ لهم فيها عطاءٌ غير مجذوذ، و﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ تعني لهم فيما عنت طليق المشيئة الربانية التي لا تُحدُّ بأي حد، حيث لا تتقيد بأية سنة، إذ السنة ليست هي نفسها إلّا بالمشيئة الربانية، ثم وتعني لأهل النار واقعها في زاويتين أخريين من مثلثها هما إخراج بعض منهم قبل خراب السماوات والأرض أو قدره، أم إحراج بعض آخرين لخلود أكثر من أمدهما.

ذلك، ومن مواصفات الجنة والنار، موافقات لأهل الجنة والنار جزاءً وفاقاً وعطاءً غير مجذوذ حساباً، ما يروى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام من قوله: «فأما أهل الطاعة فأثابهم الله بجواره، وخلدهم في داره حيث لا يظعن النزَّال، ولا تتغير بهم الحال ولا تنوبهم الأفزاع، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار، ولا تُشخصهم الأسفار - وأما اهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغَلَّ الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران، ومقطَّعات النيران، في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله في نار لها كَلبَ ولَجَب، ولَهَب ساطع، وقصيف هائل، لا يظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، ولا تُفصم كُبولها» (١٠٧) -

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها - الجنة - لعزَفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها، وزخارف مناظرها، ولذَهَلتْ بالفكر في اصطفاق أشجار غُيِّبت عروقها، في كُثبان

المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها - عضونها - وأفنانها، وطلوع تلك الثمار مختلفةً في غُلُفُ أكمامها، تُجنى من غير تكلف فتأتي على منية مجتنيها، ويطاف على نُزَّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة، والخمور المروَّقَة، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلُّوا دار القرار، وأمِنوا نُقلة الأسفار - فلو شغلتَ قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونَقة. لزهقت نفسك شوقاً إليها ولتحملتَ من مجلس هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته» (١٦٣).

فأين ذلك الموقف المرهف من موقف النار المرجف؟:

«في موقف ظنك المقَام، وأمور مشتبهة عِظام، ونار شديدة كَلبهَا، عالٍ لَجَبها، ساطع لَهَبها، متغيِّظ زفيرها، متأجج سعيرها، بعيد خُمودها، ذاكٍ وقُودها، مَخوفٍ وعيدها، عَم قرارها، مُظلمة أقطارها، حاميةٍ قدورها، فظيعة أمورها ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا۟ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾[1] قد أمن العذاب، وانقطع العتاب، وزحزحوا عن النار، واطمأنت بهم الدار، ورضوا المثوى والقرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً، توحشاً وانقطاعاً، فجعل الله لهم الجنة مآباً، والجزاءَ ثواباً، وكانوا أحق بها وأهلها، في ملكٍ دائم، ونعيم قائم» (١٨٨).

«فمن أقربُ إلى الجنة من عاملها، ومن أقرب إلى النار من عاملها، وأنتم طُرداء الموت إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم، الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من خلفكم،

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

فاحذروا ناراً قعرها بعيد، وحرُّها شديد، وعذابها جديد، دار ليس فيها رحمة، ولا تُسمع فيها دعوة، ولا تفرَّج فيها كُربة» (٢٦٦) -

«واعلم أن أمامك عقبة كؤُوداً، المُخفّ فيها أحسن حالاً من المُثقِل، والمبطئ عليها أقبح حالاً من المسرع، وأن مهبطك بها لا محالة، إما على جنة أو على نار، فارتد لنفسك قبل نزولك، ووطّئ المنزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعتَب، ولا إلى النار منصَرَف» (٢٧٠) - فـ «ما خير بخير بعده النار، وما شر بشرٍّ بعده الجنة، وكل نعيم دون الجنة فهو محقور، وكلُّ بلاءٍ دون النار عافية» (٣٨٧ ح).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾:

وإذا كان ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[1] هنا، ثم أخذهم يوم القيامة في النار وبئس القرار ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾: تردداً في عبادتهم وما يعبدونه أنه خطأ وخطل ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ تقليدياً أعمى ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من العذاب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ عما يستحقونه.

وترى أنه ﷺ تردد يوماً مّا فيما يعبد هؤلاء؟ وهو رسول التوحيد! كلّا، ولكنه طَمأنةٌ زائدة لقلبه المنير أمام هؤلاء الألداء الأشداء، الذين يحاولون أن يجذبوه إلى أنفسهم، أم يجعلوه في مرية وتردد من أمرهم، هل هم على وشك الاهتداء أم هم على ما هم عليه من ذلك الاقتداء، فلا يتسرَّب إلى نفسك شك في فساد ما يعبد هؤلاء، فالخطاب للرسول والتحذير لقومه، إيحاءً بأنها قضية موضوعية بينها الله لرسوله المرسل لهداهم، دون أن يخاطب به المتلبسين بها، إهمالاً لهم وقلة انشغال بهم، ثم في وجه عام

(١) سورة هود، الآية: ١٠٢.

قد يعنى كل مخاطب قد يشك في أمرهم دون اختصاص بالرسول ﷺ ولا مساس به في واقع الخطاب.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ عن نصيب آبائهم، مهما لم يعذبوا هنا بعذاب الاستئصال حيث يدخر لهم ليوم الحساب.

ثم لأن الممارةِ هي المحاجة فيما فيه تردد، إذاً ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ قد تعني إلى ما عنته ألّا تحاجهم بعد الذي تبين لك أنهم مُخلِدون إلى أهوائهم وشهواتهم وتقاليدهم العمياء، فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] ثم ولا تحزن لماذا يختلفون في رسالتك وكتابك فإنه دأب دائب بين ناكري الرسالات على مدار الزمن:

ذلك ومهما يكن من شيء فلا ريبة ألّا ريبة لرسول اليقين فيما يعبد هؤلاء، فلا يخاطَب بذلك النهي إلّا من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة، وهو القائل: «سلوا الله العافية فإنه لم يُعطَ أحد أفضل من معافاة بعد يقين وإياكم والريبة فإنه لم يؤت أحد أشر من ريبة بعد كفر»[2] حيث الريبة في الحق هي من مزالق وأشراف الكفر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾:

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ تصديقاً وتكذيباً، ثم اختلف فيه بين المصدقين به بعدما جاءهم البينات، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أن لهم أجلاً يمتَّعون فيه، وأن الدنيا هي دار امتحان وعمل والآخرة هي دار الجزاء فـ ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3] وهو ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.
(٢) الدر المنثور ٣: ٣٥١ - أخرج ابن مردويه عن أبي بكر قال قام فينا رسول الله ﷺ فقال: . .
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[١] إذاً ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ هؤلاء المختلفين في الكتاب ﴿وَإِنَّ هُمْ﴾ أولاء الأمة الموسوية، وهؤلاء الذين أرسلت إليهم من أمتك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾: الكتاب ﴿مُرِيبٍ﴾[٢].

فالشك قد يريب وقد لا يريب، فالذي يريب هو أنكر وأخطر على كتلة الإيمان، حيث يريب البسطاء في حق الكتاب فيخيَّل إليهم أن شكهم مسنود إلى حجة.

وهنا شكٌّ مريب للذين أوتوا الكتاب من حملته الأولين بعدما جاءهم العلم كما في آية الشورى، والبينات كما في آية البقرة: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۖ﴾[٣]، حيث يظهرون أن شكهم مسنود إلى دليل فيضللون البسطاء.

ثم شكٌّ مريب للبسطاء والوسطاء في معرفة الكتاب حيث يستند إلى الكتاب الخليط من الغث والسمين والخائن والأمين.

وهذان الشكان المريبان هما مجتمعان في أهل الكتاب، وأما الشاكون في القرآن فليس لهم شك مريب إلَّا من القبيل الأول، حيث القرآن بنفسه لا

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٤.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤٠٠ في روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ﴾ [هود: ١١٠] قال: اختلفوا كما اختلف هذه الأمة في الكتاب وسيختلفون في الكتاب الذي مع القائم الذي يأتيهم به حتى ينكره ناس كثير فيقدمهم فيضرب أعناقهم، وأما قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ...﴾ [الشورى: ٢١] قال: لولا ما تقدم فيهم من الله عزّ ذكره ما أبقى القائم منهم أحداً.

أقول: الكتاب الذي مع القائم عليه السلام هو الكتاب الذي معنا ولكنه يفسره ويؤوله التفسير والتأويل الحق وهما يخالفان الفتاوى غير المسنودة إلى الدلالة الصالحة للكتاب، فلذلك ينكره ناس كثير. ومنهم المتورطون في غير القرآن من أدلة الأحكام.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

ريب فيه ولا شبهة تعتريه، وإنما يتظاهر الشاكون فيه بأنهم يسندون إلى ما يريب، كأن لشكهم سند منه يريب!.

وترى كيف قضي بين جموع من المكذبين وبين المرسلين، إذا كان القضاء بينهم يختص بيوم القضاء؟ قد يعني ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ذلك القضاء الحاسم المخصوص بيوم القضاء، توفيةً لأعمال كلٍّ من الصالحين والطالحين، كما:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾:

ولأن الاختلاف في الكتاب قد يقتضي قضاءً حاضراً يوم الدنيا كلمحة من القضاء يوم الدين وقد لا يقتضي، فقد يقضي على المكذبين شطراً هنا قبل توفيته يوم الدين، وأخرى يقضي - فقط - عليهم يوم الدين، ولا يعني ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ للكل إلَّا قضاء يوم الدين، ولا لبعض المكذبين إلا شطراً منه يوم الدنيا، حيث سبقت كلمة الله بمختلف القضاء على من يستحقه، ثم هم على سواء في توفي القضاء يوم الدين.

وهنا ﴿لَّمَّا﴾ جازمة زمانية حذف مدخولها لمعرفته وهو: يأت زمن توفيتهم، وهو يوم القيامة، المعروفة من ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تعزب عنه أعمال لطول الأمد.

وهنا ﴿كُلًّا﴾ تعني كلّاً من المختلفين في الكتاب والمكذبين، أصلاء أم تابعين، سابقين أم لاحقين ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ كما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] فالمستأصلون يوم الدنيا ليسوا كالمؤجلين إلى يوم الدين، وإنما ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

ذلك، فعليك يا رسول الهدى، الحامل لأثقال الرسالات كلها، المتحمل الأذيات والصعوبات كلها، وأنت تسمع أنباء الأمم الماضية وما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

واجهوا به الرسل الماضين، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[١] ولذلك:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾:

وهذه الآية مما شيبت رسول الله ﷺ أكثر من آية الشورى التي اعتبرت في حديثه من أخواتها، حيث قال: «شيبتني سورة هود وأخواتها» ولماذا؟.

لأن آية الاستقامة في الشورى تختص به ﷺ نفسه، وآية هود هذه تضيف إليه ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فهي كـ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[٢] أن ينقطع إلى الله انقطاعاً جماعياً يبتِّل غيره به كما يبتل نفسه ﷺ إلى الله تبتيلاً.

وهنا ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ في رسالتك ودعوتك وتصبُّرك على كل أذًى ولظًى، لا فحسب أنت، بل ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ عليك أن تقيمهم كما تقيم نفسك فتصبح بمن تاب معك جمهرة الاستقامة القيمة التي أُمرت بها، أن تصنع كنفسك آخرين تابوا معك إلى الله، فإن يداً واحدة لا تصفق، وإن يد الله مع الجماعة.

وهنا وهناك الاستقامة هي طلب إقامة أمر الله كما يحق ويرضاه الله و«لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع» (الحكمة ١٠٨) والأصل في هذا الحقل هو الرسول ﷺ وذووه المعصومون عليهم السلام الذين يقول عنهم أولهم: «نحن النُّمُرقة الوسطى، بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي»[٣].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٢) سورة المزمل، الآية: ٨.

(٣) (الحكمة ١٠٧).

لذلك لما نزلت ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ قال ﷺ: شمروا شمروا فما رئي ضاحكاً»[١] وهكذا «شيبتني هود» لمكان قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٢] ثم «وأخواتها»[٣] ومنها الشورى لنفس آية الاستقامة ولكن أين استقامة شخصية فيها وجماهيرية كلف بها الرسول ﷺ مع نفسه كما هنا؟![٤].

وتراه يؤمر هنا بأن يقيم من تاب معه، وليست الإقامة في واقعها إلَّا من الله، وإنما عليه البلاغ؟ القصد هنا أن يبالغ في بلاغ الدعوة القيمة، تكريساً لكافة طاقاته الرسولية والرسالية، ثم ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ لا تعني:

أقم من تاب معك، بل إن قضية العطف «وليستقم من تاب معك» بمساعيهم، ولكنها على ضوء مساعيك في هذه الرحلة القيمة المقيمة.

فالقمة العالية مما شيبته من السور هي هود لمكان هذه الآية، حيث يحس ﷺ برهبته وقوته في تتمة حياته وهي أثقل من سائرها مسؤولية ثقيلة.

فالاستقامة كما أمره الله تعالى ومن تاب معه، هي بحاجة إلى تكريس كل الإمكانيات الروحية والعملية، مضياً على نهج الحق المطلق دونما

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٥١ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال:..

(٢) المصدر ٣: ٣١٩ عن أبي علي السري قال: رأيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ﷺ روي عنك أنك قلت: شيبتني هود؟ قال: نعم، قلت: فما الذي شيبك منه، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال ﷺ: لا ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هُود: ١١٢].

(٣) المصدر عن أبي بكر قال قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت، وبنقل آخر قلت: يا رسول الله ﷺ عجل إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود وأخواتها والواقعة والحاقة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية، وفي ثالث إضافة القارعة وسأل سائل.

(٤) فهن أخوات هود غير المذكورة هي الشورى.

وفي المجمع عن ابن عباس قال: ما نزل على رسول الله ﷺ آية كانت أشد عليه ولا أشق من هذه الآية ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله ﷺ؟ قال: شيبتني هود والواقعة.

انحراف وانجراف، ولا تزعزع وتلكؤٍ، وإلى يقظة دائبة رسولية، وكدح دائم رسالي ليصنع الآخرين بما صنع نفسه المقدسة، ضبطاً للانفعالات البشرية التي تمِّيل الاتجاه كثيراً أو قليلاً.

فليس قول ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يكفي سلوكاً سليماً في سبيل الله، وإنما ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ حتى ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[١].

وكلما كانت المسؤولية أثقل، فالاستقامة في تحقيقها وتقويمها أعضل، ولا سيما حين تضاف إليها مسؤوليات لآخرين باستقاماتهم، فلذلك نسمع الرسول ﷺ يقول: «شيبتني هود» على عصمته الرسالية ورقابته العالية الدائبة.

ففي الفترات الأخيرة من عمره الرسولي - وهي أهم فتراته - حين ينفض يديه عن بلاغه الرسالي العظيم، عليه أكثر مما مضى أن يستقيم كما أُمر ومن تاب معه.

فقد نجده ﷺ يؤمر في بداية أمره بالقيام ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[٢] وهنا في النهاية ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ ووسطاً بين الأمرين ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ دون ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ مرحلية في مواجهة عراقيل الدعوة بقيام واستقامة شخصية، وثم استقامة جماهيرية، طلباً لكل قوامة وقيام من نفسه ومن الآخرين لإقامة الهيكل الإسلامي السامي على أساس قويم قويم لا ينهدم، وبعروة وثيقة لا تنفصم.

وهنا ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ إشارة إلى أمر الاستقامة في الشورى بزيادة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ هنا، وأخرى إلى سائر الأمر في ذلك الحقل كـ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٢.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٢.

لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾[٢] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾[٣].

فقد عاش ﷺ حياته الرسولية قياماً واستقامة في الدعوة بكل واجباتها وواجهاتها، ولكنه هنا يؤمر بما أمر من ذي قبل وزيادة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ وهي التي شيبته إذ كلف مع نفسه غيره.

هنا ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ معطوفةٌ على ضمير الفاعل في «استقم» فقد تعني وليستقم من تاب معك، حيث هو المسؤول عن استقامتهم بما يتكلف من تقويمهم هكذا.

ثم ﴿وَلَا تَطْغَوْاۚ﴾ والقصد منه وجاه الاستقامة تركها، فكما الاستقامة من التقوى، كذلك تركها من الطغوى ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ذلك، فعدم الطغوى وعدم الركون إلى الذين ظلموا ثم إقام الصلاة ومن ثم الصبر، هذه الأربع هي من معدات الاستقامة كما أمروا، وقد لا تعني هذه المعدات الرسول ﷺ إلى من تاب معه فإنه معصوم عن ترك واجباتها واقتراف محرماتها، ولذلك أتى بالجمع، دون جمع بينه وبين من تاب معه كما في ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في سبيل الاستقامة وتحصيلها حيث الغاية لا تبرر الوسيلة، فمحظور الركون إلى الظالمين مستقل في حرمته غير مستغَل على عرامته، سواءٌ يُستغل به لأمر محبور كالاستقامة في أمر الدين، أم لأمر محظور فوا ويلاه، والركون «إلى» هو جعله ركناً يعتمد عليه، مائلاً إليه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤٣.

وهنا ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ تعني نار الذين ظلموا هنا وفي الأخرى حيث الركون إليهم دخولٌ في ربعهم فشمولٌ لنارهم إياكم كما شملتهم مهما اختلفت الدركات حسب الظلامات.

ثم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ إن ركنتم إلى الذين ظلموا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من الله حيث تركتم الركون إليه وإلى أهل الله، ولا من دون الله إذ لا يقدر أحد أن ينصر الخارج عن ولاية الله.

ذلك، فحتى رجاء بقاء الذين ظلموا ظلم ونار، فضلاً عن الركون إليهم حيث فيه حب بقائهم، فالظالم يطارد في كافة الحقول كفرض جماهيري على الكتلة المؤمنة، فكيف يركن إليه في سبيل الإيمان والاستقامة فيه، أم وسواه لا سمح الله؟![1].

ثم الاستقامة في سلوك مسلك الحق هي بحاجة إلى قوامة الحق وتقريره، وإزالة الباطل وتهديره، فكيف يركن في هذه السبيل إلى قاطعيها بظلم أياً كان.

والركون إلى الظالمين تصديقاً لوعدهم وما أشبه محظور في كثير وقليل، وقد سلبت قلته تثبيت الله عن النبي ﷺ نفسه فيما هو مظان ركونه إلى وعودهم الخاوية أنهم في سبيل الإيمان: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[2].

فمحظور الركون إلى الظالمين معلّل بظلمهم، ركوناً إلى علومهم

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٠٠ في الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو الرجل يأتي السلطان فيحب بقاءه إلى أن يدخل يده كيسه فيعطيه.
وفيه عن الخصال عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: إن رسول الله ﷺ أوصى علي بن أبي طالب عليه السلام فيما كان أوصى به أن قال: لا تركن إلى ظالم وإن كان حميماً قريباً.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

ووعودهم فضلاً عن حكمهم وإمرتهم، فلا يركن المؤمن العائش سبيل الله، إلّا إلى الله، وإلى أهل الله وبإذن الله، وكيف يُركن إلى الظالم نفسه وسواه، ولا ركون إلى العادل ما لم يتثبت عدم خطئه؟.

وترى الركون إلى الظالمين فقط يُدخل النار أو يخلِّد في النار؟ كلّا، وإنما ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قدر مساس الركون إليهم»[1] ولأن مس النار دركات فهي حسب دركات الركون إلى الظالمين، فقد يعبر عن الدخول والخلود بالمس كـ: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[3] ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

فلأن الركون إلى الظالمين لا يحتِّم دخول النار أو الخلود فيها لأنه دركات، عبّر هنا عن خلفيته بـ «تمسسكم النار» لكي يتسع النطاق تحليقاً على كل دركات الركون إليهم.

ذلك، فالركون إلى الظالمين في أي ركن من الأركان الحيوية، عقيدية أو ثقافية أو أخلاقية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أم جماعية، إنه ركون إلى النار، وفي حين أن كتلة الإيمان مأمورة بكل تأكيد بمجابهة الظلم على أية حال، فكيف يسمح لها أن يركن إلى الظالمين على أية حال، مهما كان تذرعاً إلى خير فضلاً عما سواه.

فكما الآية السالفة نهت عن الطغيان وهو ظلم أياً كان، فهذه تنهى عن الركون إلى الظالمين توحيداً لركن الإيمان بالله دون أي دخيل، وهما من أركان الاستقامة فردية وجماهيرية في حقل صالح الإيمان.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٠٠ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: أما إنه لم يجعلها خلوداً ولكن تمسكن فلا تركنوا إليهم.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٩.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٨.

وهنا المعني من ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ليس كل ظلم من أي ظالم وإن أتى بصغيرة، وإلّا لانفصمت كافة الرباطات والتعاونات بين المسلمين أنفسهم فضلاً عنهم بالنسبة لمن سواهم، وإنما القصد من ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم من طراز من ذكروا من ذي قبل من الكفر والتكذيب بآيات الله، مهما شملت بضمنهم كل الظالمين، فيترك الارتكان إليهم قدر الإمكان.

فلقد قص الله قصص أمم سلفت وانقضت في خضمّ تاريخها السَيىء الأسود كقوم نوح، وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وفرعون وقوم الرسول ﷺ وهم كلهم كفرة مكذّبون معاندون، عبّر عنهم بالظالمين: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾[1] - ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ -[2] ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] - ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[4].

ذلك، وكما أن المخاطبين بـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ هم المؤمنون بهذه الرسالة السامية، فهلا يركن - إذاً - بعضهم إلى بعض؟ اللّهم إلّا الظالمين منهم الذين يعملون أعمال هؤلاء الكافرين.

ثم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ليس إلّا وعداً للكفار أمّن يركن إليهم من المؤمنين، مهما شملت الآية ضمنياً أم بإطلاقها كل ركون إلى أي ظالم، ولكنه ليس إلّا في ظلمه.

فحين تركن في حقل المال إلى مؤمن مأمون على الأموال، ولكنه قد؟ يفسق في غير حقل المال فهل أنت مشمول لهذه الآية؟.

ولكنك حين تركن إلى كافر ناكر لمبدإ الإيمان فكل ركونك إليه محظور حيث لا مبدأ له صالحاً يستحق به أن يُركن إليه.

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٩٤.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٣.

ذلك، وقد يتلو الكافرين المكذبين بالإيمان، الظالمون من هذه الأمة بمن فيهم الأشقى من جبابرة عاد وثمود، بل والركون إليهم أظلم وأنكى وأطغى، حيث يخيَّل إلى البسطاء أنهم على حق بباطلهم فلهم ما يتطاولون في مظالمهم باسم العدل والإيمان.

وبصيغة أخرى النص عامٌّ يشمل كل الظالمين كافرين أو مسلمين، فالركون إليهم ككلٍّ محظور كما الظلم نفسه ككل محظور، ومسُّ النار هو حسب دركات الظلم والركون.

ولا يعني الركون إلى الذين ظلموا كافة العلاقات الحيوية حتى تَحرم كلُّها فيُحرم المسلمون أنفسهم من العشرة فيما بينهم، وإنما هو الاعتماد على الظالمين ميلاً إليهم أيّاً كان الظالم وظلمه، دون سائر العشرة غير المرتكنة ولا المعتمدة على الظالم أو على ظلمه، كيف وقد وثق النبي ﷺ عند خروجه عن مكة إلى الغار برجل مشرك استأجر منه راحلة الطريق وائتمنه ليوافيه بها في الغار بعد ثلاثة أيام، وكان يعامل الكفار سائر المعاملات المتعوَّدة التي بها قوام المدنية الجمعية للإنسان أياً كان، مع أنه لم يكن يركن إلى الذين ظلموا فيما يمس من كرامة الإيمان، فالمحظور إذاً هو «ركون مودة ونصيحة وطاعة»(١) وذلك المثلث هو مصداق صادق للركون المحظور، دون سائر المعاملات والعلاقات التي لا تحمل مودة ونصيحة وطاعة، بل قد تكون المودة محبورة غير محظورة حين لا تستجر مضرة، بل وفيها منفعة لكتلة الإيمان فـ : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾(٢).

---

(١) في تفسير القمي في الآية قال قال عليه السلام : ركون مودة ونصيحة وطاعة.
(٢) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.

ذلك، ولكن مجرد المودة غير المحظورة ليست ركوناً إليهم، فقد نودهم جذباً لهم إلى الإيمان، ولكن لا نركن إليهم ما لم يؤمنوا.

ذلك، والظلم بصورة طليقة بأية سيرة أو صورة محظورة في شرعة الله، مهما كانت دركات، فـ «من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة الله»[١] ومن الأدعية المجابة هي دعاء المضطر في الظلم: فـ «يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم»[٢].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

هنا تخصيص الصلاة بطرفي النهار حيث يختصان صلاة الفجر والعصر، وزلفا من الليل حيث تعم صلاة الليل إلى العشاءين، قد يفوّت صلاةَ الظهر وهي من الصلاة الوسطى؟.

علَّ الحل هو أن النهار في الأصل هو قضية جري الشمس منذ فجرها حتى غروبها، ولا سيما في حقل الصلاة، وقد يختلف النهار إفراداً وتثنية وجمعاً في مختلف الحقول الاشتغالية والأحوالية أماهيه، وهنا في حقل الصلاة التي تعرف الظهيرة في الدرجة الثانية من مخمسها قد يشملها النهار بطرفي الثاني.

فللشمس جريان اثنان، جري أوّل وجري ثان، فالأول هو منذ فجرها حتى دلوكها، والثاني هو منذ دلوكها حتى غروبها، فللنهار - إذاً - طرفان، طرفه الأول هو منذ الفجر، وله صلاة الفجر، وطرفه الثاني منذ دلوك الشمس حتى الغروب وله الظهران، فـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٥: ٩٥ عن الإمام علي عليه السلام.

(٢) المصدر ٨: ٧٢١ و١٨: ٢٣٨ و٢٣٩ عنه عليه السلام.

وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(١) تقرِّر كلَّ زمن دلوكها زمناً للصلاة، فأول دلوكها للظهيرة، ومن ثم لصلاة العصر، وكما تقرر الفجر لقرآن الفجر، و﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ تقرر العشاءين.

إضافة إلى صلاة الليل(٢) ولكنها مفروضة خاصة بالرسول ﷺ حيث الخطاب هنا يخصه كما وفي أخرى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ...﴾(٣).

هذا، وقد يتأيد عناية صلاة الليل إلى العشاءين من جمعية ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ دون «زلفتين» حتى تختصان بالعشاءين، فكيف تصدق على الرسول ﷺ المخاطب بهذه الجمعية، المفروضة عليه صلاة الليل: «هما زلفتا الليل»(٤) اللّهم إلّا بتأويل أنهما فرض أمته، إذ لم تفرض عليهم صلاة الليل، ولأن زلف الليل هي الزلفى من منازله ومراقيه، فلتكن صلواته الثلاث منقطعة عن بعضها البعض في أفضل أوقاتها، فالمغرب في أوله والعشاء قبل غَسَقه وصلاة الليل كلما كانت أقرب إلى الفجر فأقرب، وكما لمحت لها آيات، ووردت بها السنة.

﴿أَقِمِ...﴾ فـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ إذاً فهذه الصلوات هي قمة الحسنات، وترى كيف يذهبن السيئات؟.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤٠١ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هُود: ١١٤] قال: صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب النهار، ورواه في المعاني وتفسير العياشي وأمالي المفيد والشيخ.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(٤) الدر المنثور ٣: ٣٥١ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «هما زلفتا الليل» أقول: وأغرب منها ما في نور الثقلين ٢: ٤٠٠ في تهذيب الأحكام بسند متصل عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل وفيه: وقال في ذلك: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هُود: ١١٤] وطرفاه المغرب والغداة ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ [هُود: ١١٤] وهي صلاة العشاء الآخرة».

الإذهاب هنا بين دفع ورفع، دفع عن السيئات كبيرة وصغيرة حتى لا تحصل فـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] ورفع للسيئات الصغيرة لأن الصلاة من الحسنات الكبيرة فتركها من السيئات الكبيرة، ثم ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[2] هي ضابطة عامة في تكفير الصغائر بترك الكبائر.

ثم ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي ضابطة شاملة لا تختص بالصلوات، بل هي كبيرة الحسنات إيجابية كما الصلاة وسلبية كترك كبائر المنهيات و﴿يُذْهِبْنَ﴾ بين دفع ورفع السيئات، حيث تكون الحسنات أقوى من السيئات - دفعاً ورفعاً - فلتكن المذهبة منها للسيئات أقوى منها، وإلّا فكيف يذهبها[3]؟.

وهنا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي صغائر المعاصي أم والتي تتغلب عليها الحسنات، فليس أن الحسنات أيّاً كانت هن يذهبن السيئات أيّاً كانت، كأن تأتي بحسنة مستحبة فترجو أن تُذهب سيئة كبيرة، حيث الكفاح الصارم هو شرط الإذهاب في ذلك الميدان.

ذلك، وكما أن الحسنات يذهبن السيئات شرط كونها أقوى منها، كذلك السيئات يذهبن الحسنات شرط كونها أقوى منها، تحابطاً من الجانبين دون تهافت، ثم تبقى الحسنات والسيئات المتكافئة غير المتكافحة فلا تحابط - إذاً - في البين، وقد تدل آيات إحباط الإشراك وما أشبه - كلّ الحسنات - على عكسية هذه القاعدة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بأن السيئات يذهبن الحسنات.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٥٤ - أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: مثل الذي يعمل الحسنات على أثر السيئات كمثل رجل عليه درع من حديد ضيقة تكاد تخنقه فكلما عمل حسنة فك حتى يحل عقده كلها.

ذلك، فما دون الزنا من سائر الرباطات مع أجنبية تذهب بالصلوات وكما في حديث الرسول ﷺ سناداً إلى هذه الآية[(١)].

وترى أن الحسنات إنما يُذهبن رفعاً السيئاتِ السالفة دونما ذكرى وتوبة؟ ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ تلمح بشريطة الذكر بعد السيئة، أن يذكر الله تائباً إليه، نادماً عما فعله، وهنا ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٢)] وهناك «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن»[(٣)] و«كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة»[(٤)].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٥٢ - أخرج ابن حبان عن ابن مسعود قال قال رجل: يا رسول الله ﷺ إني لقيت امرأة في البستان فضممتها إلي وقبلتها وباشرتها وفعلت بها كلّ شيء إلا أني لم أجامعها؟ فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ [هُود: ١١٤] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: ١١٤] فدعاه رسول الله ﷺ فقرأها عليه فقال عمر: يا رسول الله ﷺ: أله خاصة؟ فقال رسول الله ﷺ: بل للناس كافة، أقول: وقد روي متواتراً عنه ﷺ بألفاظ عدة متحدة المعنى، وفيه عن سلمان أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً يابساً من شجرة فهزَّه حتى تحات ورقة ثم قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق ثم تلا هذه الآية.

(٢) المصدر عن ابن عباس أن رجلاً كان يحب امرأة فاستأذن النبي ﷺ في حاجة فأذن له فانطلق في يوم مطير فإذا هو بالمرأة على غدير ماءٍ تغتسل فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يجرك ذكره فإذا هو كأنه هدبة فندم فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك فقال له النبي ﷺ: صل أربع ركعات فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾، وفيه عن بريدة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رجل يبيع التمر بالمدينة وكانت امرأة حسناء جميلة فلما نظر إليها أعجبته وقال: ما أرى عندي ما أرضى لك هاهنا ولكن في البيت حاجتك فانطلقت معه حتى إذا دخلت أرادها على نفسها فأبت وجعلت تناشده فأصاب منها من غير أن يكون أفضى إليها فانطلق الرجل وندم على ما صنع حتى أتى النبي ﷺ وأخبره فقال ﷺ: ما حملك على ذلك؟ قال: الشيطان فقال له: صل معنا ونزل: وأقم الصلاة.. فقال الناس يا رسول الله ﷺ: لهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: بل هي للناس عامة.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٥٢ عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: جعلت الصلوات.. فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

(٤) المصدر عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: .. وفيه عن عثمان قال رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ ثم قال: من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى صلاة العصر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الظهر ثم =

ذلك، ولكن «ما اجتنبت الكبائر»[1] حيث الحسنة الكبيرة لا تذهب السيئة الكبيرة لمكان المكافأة، وإنما تذهب الصغيرة لمكان الكفاح القوة.

= صلى المغرب غفر له ما كان بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما كان بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات..

وفيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً؟ قالوا: لا يا رسول الله ﷺ قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا، وفيه أخرج الطبراني في الأوسط والصغير عن علي ﵁ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: إني أصبت ذنباً فأعرض عنه فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام الرجل فأعاد القول فقال النبي ﷺ: أليس قد صليت معنا هذه الصلاة وأحسنت لها الطهور؟ قال: بلى، قال: فإنها كفارة ذلك.

(١) المصدر أخرج البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، أقول: ورواه مثله عنه ﷺ أبو بكرة وسلمان الفارسي.

وفي نور الثقلين ٢: ٤٠١ في أصول الكافي عن فضيل بن عثمان المرادي قال: سمعت أبا عبد الله ﵇ يقول قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه لم يهلك على الله بعدهن إلا هالك، يهم العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب له حسنة بحسن نيته وإن هو عملها كتب الله له عشراً، ويهم بالسيئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء وإن هو عملها أجل سبع ساعات وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عن أن يتبعها بحسنة تمحوها فإن الله ﷿ يقول: إن الحسنات يذهبن السيئات، أو الاستغفار فإن هو قال: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم الغفور الرحيم ذا الجلال والإكرام وأتوب إليه لم يكتب عليه شيء وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات اكتب على الشقي المحروم» وفيه عن المجمع روى أصحابنا عن ابن محبوب عن إبراهيم الكرخي عن أبي عبد الله ﵇ أنه قال: واعلم أنه ليس شيء أضر عاقبة ولا أسرع ندامة من الخطيئة وأنه ليس شيء أشد طلباً ولا أسرع دركاً للخطيئة من الحسنة، أما إنها لتدرك الذنب العظيم القديم المنسّي عند صاحبه فتنحته وتسقطه وتذهب به بعد إثباته وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: ١١٤] وفيه روي عن أبي حمزة الثمالي قال سمعت أحدهما ﵇ يقول: إن علياً قال: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ [الإسراء: ٧٨] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ وفيه في كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد الله ﵇ قال: لا يغرك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم ولا تقطع النهار بكذا أو كذا فإن معك من يحفظ عليك ولم أر شيئاً قط أشد طلباً ولا أسرع دركاً من الحسنة =

ثم وكل حسنة تذهب سيئة تناسبها بالمواجهة، دون أن تذهب حسنة واحدة كل السيئات[1] أم سيئة لا تناسبها في مواجهتها، فحسنة الإنفاق تذهب سيئة تركه وحسنة النكاح المفروض تذهب سيئة النظر عن شهوة وهكذا.

نعم بعض الحسنات يذهبن جلّ السيئات أو كلها لقوتها وشمولها، كحسنة التوحيد حيث تذهب كافة السيئات حالة الإشراك وهكذا.

ذلك، و﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي نبّه عليه من واجب الاستقامة، ومحرم الركون إلى الظالمين، وإقام الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، وإن الحسنات يذهبن السيئات، كل ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ الله كما ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[2] فليأتمروا بأمره ولينتهوا عن نهيه، وإذا سقطت من أيديهم تخلُّفةٌ عن شرعة الله فالذاكرون الله بعدها بندمٍ فتوبة وأوبة إلى الله، تذهب سيئاتهم هذه الحسنات.

ذلك، ومن ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أن يتذاكروا ذلك السماح الرباني فيما بينهم، إغماضاً عن السيئات أمام الحسنات، تأدباً بأدب الله.

فحين ترى مؤمناً تترجح حسناته على سيئاته، ليس لك أن تحاسبه بسيئاته، اللَّهم إلّا بموعظة حسنة ودعوة لينة أديبة أريبة.

وهكذا تصلح الجماعة المؤمنة وتتصالح في العشرة الإيمانية، أخذاً للحسنات بعين الاعتبار إيجابية في فعل كبائر الحسنات، وسلبية في ترك كبائر السيئات، على رقابة دائبة ورعاية أخوية وُدّية، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[3].

= المحدثة للذنب القديم ولا تصغر شيئاً من الخير فإنك تراه غداً حيث يسرك ولا تصغر شيئاً من الشر فإنك تراه غداً حيث يسوءك إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: ١١٤].

(١) نور الثقلين ٢: ٤٠٢ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وإن الله تعالى يكفر بكل حسنة سيئة قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٥﴾:

أجل والصبر الصالح الفالح، غير الكالح، هو أحسن زاد في هذه السفرة الخطرة، الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء والحرمانات، وهو بنفسه إحسان مع سائر الإحسان التي تقدم فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وهنا «اصبر» موجَّهاً إلى خصوص النبي ﷺ لمكانته القيادية العظمى في الاستقامة المأمور بها، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[1] ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

فـ «رحم الله امرءاً جعل الصبر مطية نجاته» (الخطبة ٧٤) «فاستدركوا بقية أيامكم، واصبروا لها أنفسكم» (٨٤) «فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلَّا إيماناً ومضيّاً على الحق، وتسليماً للأمر، وصبراً على مضض الجراح» (١٢٠).

أجل فـ «العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر، والورع الورع»[3].

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝١١٦﴾:

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ هم أصحاب البقية الرسالية الذين يحملونها بدعواتها، ابتداءً بالنهي عن الفساد في الأرض، وهم حسب هذا النص قلة قليلة من الأمم الماضية.

فهم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ رسالية، إبقاءً لها بعد الرسل، وهم ربانيُّو كل أمة، الحاملون مشاعل الهدى الرسالية، عارفين الفساد في الأرض، تاركين له، ناهين عنه بكل إمكانياتهم الإيمانية.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٣) (الخطبة ١٧٥).

ذلك، ورغم أن المقربين السابقين وهم الرسل وخلفاؤهم وهم خلفاؤهم المعصومون، هم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾[1] نرى معاكسة في أولي بقية أنهم قليل من الأولين وثلة من الآخرين، للمدِّ الزمني المديد لهذه الرسالة الأخيرة، وقوة الدعوة والداعية أكثر من الأولين.

وهؤلاء الثلة هم المعنيون من ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2] فالأمة الآمرة الناهية المخرَجة للناس على مدار الزمن الرسالي، هي درجات، وأنتم الآمرون والناهون من هذه الأمة الأخيرة خير أمة آمرة ناهية أخرجت للناس.

وهنا ﴿فَلَوْلَا﴾ حيث تعني «هلّا» هي استنكار على الأمم الغابرة بقلة أولي بقية فيهم ينهون عن الفساد في الأرض، فالأمة التي يشيع فيها الفساد في أية صورة من صورة، فتجد من ينهض لدفعه والدفاع عن الحق، ليس ليأخذها الله بالعذاب المدمِّر المزمجر، وأما الأمم التي يشيع فيها الفساد، ثم لا ينهض لحمل أعباء الدعوة الصالحة فيها، المُصلحة لها، إلَّا قليل غير كاف، فقد تكون مأخوذة بشايع الفساد.

وهنا تنديد شديد بالذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فشلاً في أولي بقية، وتزايداً في الفساد وكساد المعرفة وعمل الصالحات، ننقله عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام : «عباد الله! إنكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء مؤجَّلون، ومدينون مقتَضُون، أجل منقوص وعمل محفوظ، فرب دائِب مضيِّع، ورب كادح خاسر -

وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلَّا إدباراً، والشر فيه إلا

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلَّا طمعاً، فهذا أوانٌ قويت عُدَّته، وعمَّت مكيدته، وأمكنت فريستُه -

اضرب بطرْفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلَّا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدَّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وَفراً، أو متمرداً عن سمع المواعظ وَقْراً - أين خياركم وصلحاؤكم، وأحراركم وسمحاؤكم، وأين المتورِّعون في مكاسبهم، والمتنزِّهون في مذاهبهم، أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنية، والعاجلة المنغَّصة؟ وهل خُلِّفتم إلَّا في حُثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان، استصغارهم لقدرهم، وذهاباً عن ذكرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون - ظهر الفساد فلا منكرٌ مغيِّر، ولا زاجرَ مزدَجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعزاءَ أوليائه عنده؟ هيهات! لا يُخدع الله عن جنته، ولا تُنال مرضاته إلَّا بطاعته، لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به»[١] «فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك المناهي»[٢].

أجل، وإن سنة الله في هذه الأمم هي إهلاك، إمّا بهلاك الاستئصال أو الانحلال والاختلال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

﴿بِظُلْمٍ﴾ هنا تعني بظلم من القرى، لا بظلم منه تعالى فإنه لا يظلم أبداً أهل القرى وأهلها مفسدون، فإنما الظلم المهلك لأهل القرى يختص بما لم يكن أهلها مصلحين، وهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض حيث يُبقون القرى على ظلمها تخليصاً عن الاستئصال حيث النهي عن الفساد استحصال للبقاء، ثم الله ينتقم من الظالمين المصرين على الظلم وينجي المصلحين.

---

(١) (الخطبة ١٢٩).

(٢) (من الخطبة القاصعة).

وقد تعني ﴿بِظُلْمٍ﴾ طليقةً عن فاعل خاص، كلَّ ظلمٍ، من ظالمي أهلها، ومن مصلحيها، ثم ومن الله سبحانه، فمثلث سلب الظلم قد يُعنى منه ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

ف «أهلها» هنا هم الآهلون للإصلاح، وهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، أم وهم كل أهلها إذا كانوا مصلحين بجانب ظلم منهم، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[1].

ذلك، ولكن النبيين المصلحين في القرى الظالمة، وهم أهلها الخصوص، لم يكن إصلاحهم ليمنع عن إهلاكهم كقوم عاد وثمود وفرعون وأضرابهم.

إذاً ف ﴿وَأَهْلُهَا﴾ هم بين كل آهليها، أم وهم أولو بقية في إصلاحهم تبقية للظالمين فيها على شرعة الله.

فما صدق ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيهم كفاءة التبقية، ما يكافح حدة الظلم، إذاً ف ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾.

هنا ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وفي الأنعام ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[2] حيث تعني الغفلة - قاصرة ومقصرة - غير العاندة ولا المعمَّدة.

إذاً فأولو بقية شأنهم شأن التبقية لأهل القرى التي يَعيشونها فيعيِّشونها بما ينهون عن الفساد فيها، إذ يخفِّفون الفساد، ويصلحون جمعاً بما ينهون، فيختص - إذاً - استحقاق الهلاك بالمتمردين من أهل القرى مثل أصحاب السبت، حيث نجى الذين ينهون عن السوء دون سواهم، سواء العاملين السوء والتاركين النهي عن السوء.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣١.

فمثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[١] قد يعني أولي بقية وهم الصالحون للأمر والنهي أن يتقوا فتنة شاملة تشملهم إذا لم يقوموا بشأن الأمر والنهي.

فمن أسباب الهلاك الشامل للقرى الاستمرار في الظلم لجموع، والآخرون ساكتون، ومن أسبابه لهلاك الظالمين فقط نهي أولي بقية وهم لا ينتهون، فيشتدُّ - إذاً - عذابهم: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾[٢].

أجل فالمصلحون في القرى هم أولو بقية فيها، إبقاءً لأهلها كلهم أم لهم أنفسهم ولغير الظالمين ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾[٣] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٤].

أجل والتناهي عن المنكر هو من أصول البقاء لأية أمة مهما كانت ظالمة حيث «أهلها ينصف بعضهم بعضاً»[٥] وينصح بعضهم بعضاً.

وهكذا يصبح أصحاب الدعوة الصالحة، المصلحة في خِضَمٍّ الفساد والإفساد، يصبحون هم صمام الأمان وضمانة للأمم والشعوب، وهذا مما يبرز قيمة الكفاح الصارم للدعاة إلى الله حيث يقفون للظلم والفساد بكل صورة، فيحولون بين غضب الله وبين المغضبين الله.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥٩.
(٥) الدر المنثور ٣: ٣٥٦ - أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال سمعت رسول الله ﷺ يسأل عن تفسير هذه الآية فقال رسول الله ﷺ: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً.

وهنا إجابة عن سؤال لماذا لم يجعل الناس أمة واحدة في تكوين وتشريع، أن يسلكوا كلهم مسلكاً واحداً دونما اختلاف ونشوز:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾:

فـ «لو» تُحيل ذلك الجعل الجاهل القاحل في ساحة الربوبية في حقلي التكوين والتشريع، إذ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وفي حقل التكوين: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾[٣].

ذلك، ولأن الناس أمم في شرائع الله، وأمم في اختيار الخير والشر على أية حال، إذاً فـ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ توحيداً لله وإشراكاً بالله، ثم وأهل التوحيد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ تصديقاً للشرعة الكتابية وتكذيباً، ثم المصدقون لها مختلفون في ناسخها ومنسوخها، ثم الأمة الأخيرة مختلفون في مذاهب شتى أيادي سبأ، فـ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بشتى الخلافات وشتاتها ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وكما ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٣) سورة الشورى، الآيتان: ٧، ٨.

ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)] .

ذلك، فالاختلاف عن الدين الحق وفي الدين الحق ليس إلَّا بغياً بعد مجيء البينات لإيضاح الحق، فـ ﴿مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ هم الذين هداهم الله في خضم الخلافات إلى الحق المُرام ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وذلك هو الوحدة والرحمة والهداية وكما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٢)] عبادة كما يشاء ويرضى وهي الهدى والرحمة المعنية لهم.

وقول القائل: «ذلك» المذكر ليس ليشير إلَّا إلى مذكر هو الاختلاف المستفاد من ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ دون الرحمة المستفادة من ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فقد خلقنا الله للاختلاف، وكما حصل ذلك ببعث النبيين!.

إنه قول غائل مردود لفظياً ومعنوياً، فلفظياً نقول: ليست الرحمة مؤنثاً حقيقياً حتى تستحق أداة التأنيث في ضمير راجع إليه أو إشارة وكما في ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)] و﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾[(٤)]. ثم «الرحمة» هي أقرب المرجعين فهي أحرى بـ «ذلك» وقد يشير «ذلك» إلى جعْل الناس أمة واحدة باختيارهم، وهو الرحمة العميمة المحلقة - إذاً - على كل الناس على ضوء تطبيق شرعة الله، أم هما معنيان، والإشارة بـ «ذلك» لمكان بعد المحتد وعلوّه، البعيد عن تحقيقه الحقيق، وهذا استخدام في الإشارة ما ألطفه.

وأما الاختلاف فهو بعيد لفظياً ومعنوياً، بعداً في كونه مشاراً إليه، وآخر في أنه خلاف الضرورة الربانية الحاكمة بضرورة الوحدة في عشرات من آيات الله البينات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٨.

أفيكون «ذلك» المشيرة إلى العظيم العظيم في غاية الخلق، هو الاختلاف الرذيل الرذيل، المرفوض في محكمة الفطرة والعقلية الإنسانية والشرعة الربانية، أم هو رحمة الوحدة الفضيلة الفضيلة، المفروضة في كل الحقول! إذ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

أو ترى ربنا يندد بالاختلاف في الدين وعن الدين، ويمدح الوحدة فيه ويأمر بها، ثم يجعل غاية الخلق نفس الاختلاف؟.

وترى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ عماذا يستثني؟ هل عن المجموعة، أن من رحم ربك منهم لا يختلفون؟ وهم مختلفون مع أهل الباطل! نقول: الاختلاف المرفوض هنا هو الاختلاف عن الحق وفي الحق والتفرق في الدين: فقد ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3] ومن رحم ربك لا يتفرقون في الدين، بل هم متفقون فيه، فالاختلاف المرفوض في الدين هو اتباع سائر السبل رفضاً لسبيل الدين: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[4].

ومن الاختلاف في الدين الشك فيه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[5] - ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾[6].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٥) سورة هود، الآية: ١١٠.
(٦) سورة الذاريات، الآيات: ٨-١٠.

فالاختلاف المرفوض هو المقصِّر، فلا يشمل اختلاف أهل الحق مع من سواهم فإنه مفروض، إنما هو اختلاف أهل الباطل فيما بينهم أنفسهم ومع أهل الحق، واختلاف أهل الحق فيما بينهم دون عذر، و«أهل الرحمة لا يختلفون في الدين»[١] فإن الله «خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمة فيرحمهم»[٢]، فالرحمة المقصودة لعباد الله هي العبادة الموحِّدة الموحَّدة دون خلاف واختلاف مقصِّر.

والاختلاف بين تقصير وقصور، والأول هو المحظور أن يختلف الناس في الحق بعدما جاءتهم البينات تغاضياً عنها ابتغاء أهوائهم ورغباتهم، وإنما ذلك في أصل الشرعة وفروعها البينة.

والثاني هو الاختلاف قضية القصور الذاتي زمن غياب المعصومين ﷺ، وذاك في فروع أحكامية قليلة قليلة جداً، حيث الكتاب المبين والسنة البينة يزيلان أي اختلاف، ويكسحان أي خلاف، إلَّا ما قصر القاصرون عن تفهمه.

ثم لا اختلاف معانداً في هذه القلة القليلة من الفروع الأحكامية فيما هي منتهى مبالغ الاجتهادات الصالحة، وهنا يصلح القول: للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد.

ذلك، ومهما كانت أسباب الخلافات قاصرة ومقصرة بين الأمم السالفة كثيرة عسيرة، فهي بين أمة القرآن قليلة يسيرة، حيث القرآن - وهو المحور الأصيل - خالد على مر الزمن، حاكماً بين الأصيل والدخيل، دون أي تحريف وتجديف.

فحين يؤَصِّل القرآن والسنة المؤيِّدة به في الأصول الإسلامية وفروعها،

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٧).
(٢) المصدر.

فقد تستأصل كافة الخلافات، ولا سيما إذا كان ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١] بين الرعيل الأعلى من الأمة الإسلامية، والمفروض على كلٍّ منا رفض الإختلاف قدر الإمكانية، محاولة بكل حول وقوة للحصول على الحق المُرام، ثم الحاصل عليه، عليه توجيه الآخرين لينسلكوا في سلك الحق، والمحور الأصيل هو الحصول على الحق لنفسك، ومن ثم للآخرين، إذاً فوزر الاختلاف عن الدين وفي الدين، ليس فقط على عواتق المتخلفين، بل وكذلك على العارفين الحق، الذين لا يحاولون التوحيد على الحق بدعوة الآخرين، وتوجيههم إلى الحق المبين.

أجل، وإن الله لم يخلقنا لنختلف، بل خلقنا لنأتلف على ضوء فطرة الله وشرعة الله، بعقلية سليمة، حيث العقل الإنساني طائر قدسي يطير بجناحي الفطرة والشرعة الربانية، إذاً الشرعة تتبنى الفطرة كما العقل يتبناها، بفارق أن العقل آخذة منها ومفكرة في مغزاها وأحكامها ومرماها، والشرعة مبينة أخطاء العقل في أخذها، شارحة لتفاصيل غير مبينة فيها.

فهذه زوايا ثلاث من هندسة الرسالة الربانية أنفسية وآفاقية، هي متجاوبة مع بعضها البعض، بفارق أن الأنفسيتين مستفيدتان من رسالة الوحي ومن سائر الآيات الآفاقية.

ثم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهو مِلء الورود، فريق للمكوث في هذا الورود وبئس الوِرد المورود، وفريق للنجاة بعد رؤية سجن الخاطئين، ونعم الوِرد المورود فـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾[٢] فالباقون فيها كثير والناجون عنها قليل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.
(٢) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[(١)].

ذلك، وقد يعني ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هنا فيما سبقت من كلمة ربك التي ألقاها إلى إبليس إذ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[(٢)].

وحصيلة البحث الأصيلة حول الآية كما يلي:

١ - كون الناس أمة واحدة في تكوين العقيدة المسيَّرة حقة أو باطلة هو من المستحيل في حكمة الله البالغة.

٢ - الاختلاف في الدين مرفوض على أية حال، وهو الاختلاف المقصِّر، ولأن آيات الله بينات هي للتدليل على الدين الحق، فالمختلفون عنه أو فيه هم المقصرون، والموحدون فيه هم أهل الرحمة الربانية.

٣ - سائر الاختلافات التي هي طبيعة الحال في الطاقات والمعطيات ليست كأصل مقصرةً إلَّا إذا أوجبت اختلافاً في الدين، فعلى المكلفين أن يوحدوا عقيدة الدين رغم سائر الاختلافات التي هي خَلقية قضيةَ الحكمة: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[(٣)] فعليهم أن يتحروا عن رحمة ربك وهي الهداية الموحِّدة الموحَّدة رغم درجاتهم في معطيات.

٤ - إنهم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الدين ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ﴾ الوحدة والرحمة ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فقد خلقهم ليعبدوه في رحمة الوحدة، فالعبادة رحمة، والاختلاف فيها زحمة، ثم الوحدة فيها رحمة فوق رحمة، فالعبادة الموحَّدة هي الغاية القصوى لخلق الخلق أجمعين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) سورة ص، الآيات: ٨٢-٨٥.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

ذلك وبالتالي عرض لمقاطع من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول ضرورة الوحدة الإيمانية على ضوء دين الله: «وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر، فلا تَوازرون ولا تَناصحون ولا تَباذلون ولا توادون.. وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلّا مخافة أن يستقبله بمثله»[١].

«وألزموا السواد الأعظم فإن يد الله على الجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشاذَّ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب» (١٢٥).

«وألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة وبُنيت عليه أركان الطاعة» (١٤٩).

«فإياكم والتلوُّن في دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن الله لم يعط أحداً بفرقة خيراً، ممن مضى ولا ممن بقي» (١٧٤).

ذلك، ويجمع جامع الواحدة الإسلامية قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «المسلمون يتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليه أقصاهم وهم يد على من سواهم»[٢].

فقد شبه صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين في التضافر والتوازر والاجتماع والتزايد باليد الواحدة التي لا تخالف بعضها بعضاً في البسط والقبض، والرفع والخفض، والإبرام والنقض، ومن ناحية أخرى تعني اليد هنا القوة القاهرة، وهي من قضايا ذلك التضافر، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط»[٣] واليد هنا هي الحفظ والرعاية والرحمة الخاصة الراصة.

---

(١) (الخطبة ١١١).

(٢) في تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يعني أهل الرحمة لا يختلفون في الدين.

(٣) في المعاني بإسناده عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟ قال: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة» قال: وسألته عن قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۝١١٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩] قال: خلقهم..

ذلك، فالاختلاف المقصر محظور والاختلاف القاصر غير محظور، فالمختلفون في الفتيا لاختلافهم عن محور الكتاب والسنة هم المقصرون وقد يندد بهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوِّب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصَوه، أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاءَ له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وقال: فيه تبيان كل شيءٍ، وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2] وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلّا به»[3].

«أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصُّم الصِّلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء.. ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أغاليل بأضاليل، دفاعَ ذي الدَّين المَطول، لا يمنع الضَّيمَ الذليلُ، ولا يُدرك الحق إلّا بالجد... المغرور والله من غرّرتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل...»[4].

«فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) (الخطبة ١٨).
(٤) (الخطبة ٢٩)

والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفُرقة، وتشتَّت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئِدة، وتشعَّبوا مختلفين وتفرقوا متحازبين. . .» «فإن الله سبحانه قد أمتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر» (١٩٠).

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿وَكُلًّا﴾ مما مضى ويأتي من أبناء ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصاً تاريخياً صالحاً ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾: هي أخبارهم ذات الفوائد العظيمة الجسيمة كما تقتضيه الحكمة الربانية الخاصة لتبنِّي رسالتك ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ على ما أمرت به ومن تاب معك من الاستقامة.

فلقد كان ﷺ يجد من قومه، ومن انحرافات النفوس وأعباء الدعوة بين مختلف الخرافات المعرَّقة في هذه النفوس، كان يجد ما يحتاج إلى تسلية ربانية بقصّ أنباء الرسل، ليجتاح ما قد يخلد بخلده المنير من تعب أمام هذه العراقيل، أم يأس عن تأثير الدعوة الصالحة، مع أنه هو الصابر الثابت المستمر الصامد، ولكنه على كلّ حال عبد من عباد الله، يحتاج إلى تسليات الله، تثبتاً له في تبكيت أعداء الله، تثبيتاً بأنباء الرسل، وتثبيتاً هو الأصل له بتنزيل القرآن عليه طول حياته الرسولية نجوماً متتالية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[1].

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

ذلك، ومن قبلُ أمرهُ ﷺ بتحضير نفسه المقدسة لهبوط ذلك القول الثقيل الثقيل حيث يثقله ويثبته في دعوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾[1].

ثم ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ القصص ﴿ٱلْحَقُّ﴾ و«في» «هذه» الآيات القرآنية، و«هذه» الشرعة الأخيرة و«هذه» الحياة الدنيا، «جاءَكَ الْحَقُّ» كله، ما لم يجئ لسائر الرسل، فأنت - إذاً - على الحق كله، ثم وهو ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الرسالة السامية، تعظهم بما سلف للسالفين، وتذكّرهم ما يحق لهم من الحق من رب العالمين.

ذلك، وإذا تكملت العُدات القيمة بعِدَّاتها فيك وفي الذين تابوا معك، فلا ضعف ولا فشل ولا فتور، فلا خوف - إذاً - من الذين كفروا بكل ما يعملون ضدك على مكانتهم وما يأملون، وهنا الكلمة الفاصلة، والمفاصلة الحاسمة الجاسمة والقاصمة لظهورهم أولئك الأعداء الألداء:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾:

«قل» كما قال أخ لك من قبل وهو شعيب: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[2] ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] قل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ فقد تمت المفاصلة بيني وبينكم بعد تكملة الحجج كلها:

---

(١) سورة المزمل، الآيات: ١-٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٩٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦.

﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ...﴾ فقد يؤمَر رسول الهدى ﷺ بعدما ينفض يديه من تبليغ رسالته كأبلغ ما يكون، يؤمر بإعلان هذه المفاصلة بكل تهديد، قطعاً للخصام ولكل وئام أمام هؤلاء الخصام اللئام.

أجل، فعلى ضوء العُدَّات الإيمانية وعِدَّاتها، رسولية ورسالية، استقامة في الداعية والدعوة، وعدم الطغيان فيهما والانحراف عن جادتهما الجادّة، وعدم الركون إلى الذين ظلموا في هذه السفرة الطويلة الشاقة، وإقام الصلاة زاداً لراحلة السفرة، والصبر على كل نائبة آئبة، والمحاولة التامة لتجميع جميع القوات للوحدة الإيمانية التي هي رحمة مضاعفة، وتذكراً لأنباء الرسل في دعواتهم.

بهذه البركات السبع تسكر كل دركات جحيم العرقلات الكافرة المتربصة كل دوائر السوء بالكتلة المؤمنة، وبعد تكملة هذه السبع يحق لقبيل الإيمان أن يقول لقبيل الكفر في الطول التاريخي والعرض الجغرافي: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ وأين عمل إيماني جبار من عمل كافر غدار ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ العاقبة هنا وفي الأخرى ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ العاقبة فيهما.

ذلك، ومن موارد الانتظار في الأولى بعد كافة التغلبات الإيمانية على الجبهة الكافرة هو انتظار الدولة المهدوية العالمية التي أخبرت بها الأمم بأسرها مليين وسواهم، وكما هو مذكور في كتاباتهم، وقد سجلناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾:

﴿وَلِلَّهِ﴾ دون سواه ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا سواه ﴿يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ دون إبقاء، إذاً ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ لا سواه ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ دون سواه ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ الذي رباك بهذه التربية القمة العالية ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أنت

والمؤمنون معك في بلاغ الرسالة وتطبيقها، ثم وهؤلاء الكفار الذين يؤمنون أو لا يؤمنون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[1].

وبذلك الدور الختامي للسورة وهو عرض للدور الختامي للرسالة يطيب قلب الرسول ﷺ ويثبت بغيب السماوات والأرض لله ورجوع الأمر كله إلى الله، إذاً ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ بكل جوانب العبودية ولا تفشل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ في مزالق الدعوة إذ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهكذا يلتقي جمال التنسيق بكماله الفني لفظياً ومعنوياً في البدء والختام ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

ذلك ومن «الموعظة القاصعة الناصعة ما يعظ به إمام الواعظين علي أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: «أيها اليَقَن الكبير الذي قد لهزه القتير! كيف أنت إذا التحمت أطواق النار! بعظام الأعناق، ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد، فالله الله يا معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفُسحة قبل الضيق، فاسعوا في فَكاك رقابكم من قبل أن تُغلق رهائنها، أسهروا عيونكم، وأضمروا بطونكم، واستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم، وخذوا من أجسادكم، فجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها فقد قال الله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[4] فلم يستنصركم من ذُلّ، ولم يستقرضكم مِن قُلّ، استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢، ٤٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ٧.
(٤) سورة الحديد، الآية: ١١.

العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً، فبادِروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، وافَقَ بهم رسله، وأراهم ملائكته، وأكرم أسماعكم أن تسمع حسيس نار أبداً، وصان أجسادكم أن تلقى لُغوباً ونَصَباً ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] أقول ما تسمعون والله المستعان على نفسي وأنفسكم وهو حسبنا ونعم الوكيل»[2].

ومن قوله في وصية له خاصة للحسن عليه السلام اختصاراً فيما يلي:

«ومن الوالد الفان، المقرّ للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدهر، الذام للدنيا، الساكن مساكن الموتى، الظاعن عنها غداً، إلى المولود المؤمِّل ما لا يُدرك، السالك سبيل من قد هلك، غَرَضِ الأسقام، ورهينة الأيام، ورميَّة المصائب، وعبد الدنيا وتاجر الغرور، وغريم المنايا، وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونَصْب الآفات، وصريع الشهوات، وخليفة الأموات -

أما بعد، فإن فيما تبيَّنتُ من إدبار الدنيا عني، وجُموح الدهر علي، وإقبال الآخرة لي، ما يَزَعُني عن ذكر مَن سواي، والاهتمام بما ورائي، غيرَ أني حيث تفرَّد بي - دون هموم الناس - همُّ نفسي، فصدَّقني رأيي، وصرفني عن هواي، وصرَّح لي محضُ أمري، فأفضى بي إلى جِدّ لا يكون فيه لَعِب، وصدقٍ لا يشوبه كَذِب، وجدتك بعضي، بل وجدتك كُلي، حتى كأنَّ شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنَّ الموت لو أتاك آتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت -

فإني أوصيك بتقوى الله أي بُنيَّ، ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره،

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٤.

(٢) (الخطبة ١٨٢).

والاعتصام بحبله، وأي سبب أوثق من سببٍ بينك وبين الله إن أنت أخذتَ به -

أحيِ قلبك بالموعظة، وأمِتْه بالزَّهادة، وقوِّه باليقين، ونوِّره بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، وقرِّره بالفناء، وبصِّره فجائِع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر، وفُحش تقلب الليالي والأيام، .. فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلَّف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال، وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله بجُهدك، وجاهد في الله حق جهاده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وخض الغمرات للحق حيث كان، وتفقَّه في الدين، وعوِّد نفسك التصبُّر على المكروه، ونعم الخُلُق التصبُّر في الحق... ورأيت.. أن أبتدئَك بتعليم كتاب الله وتأويله، وشرايع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره..

وليس طالب الدين من خَبْط أو خَلْط.. وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك ثم تُبصره بعد ذلك، فاعتصم بالذي خلقك، ورزقك وسواك، فليكن له تعبدك وإليه رغبتك ومنه شفقتك... اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبَّ لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تَكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن لا تُظلم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيركِ، وارض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك -

واعلم أن الإعجاب ضدُّ الصواب، وآفة الألباب، فاسع في كدحك، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا أنت هُديت لقصدك فكن أخشع ما تكون لربك -

واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة. . ولم يجعل بينك وبينه من تحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه. . ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يَقنُطك إبطاءُ إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أُخِّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزَل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيءَ فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صُرِف عنك لما هو خير لك، فلرُب أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، ويفنى عنك وَباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له -

. . لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، وتجرَّع الغيظ فإني لم أرَ جُرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذَّ مغبةً، ولِن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك، وخذ على عدوِّك بالفضل فإنه أحلى الظفرين، وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيةً يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً مّا، ومن ظن بك خيراً فصدِّق ظنه، ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، ولا ترغبنَّ فيمن زهد عنك، ولا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه يسعى في مضرته ونفعك، وليس جزاء من سرَّك أن تسوءه - والصديق من صدق غيبُه، والهوى شريك العمَى، ورب بعيد أقرب من قريب، وقريبٍ أبعد من بعيد، والغريب من لم يكن له حبيب، من تعدى الحق ضاق مذهبُه، ومن اقتصر على قدره كان أبقى له، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله، ومن لم يبالك فهو عدوك. . أخّر الشر فإنك إذا شئت

تعجلته، وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار -

... ولا تملِّك المرأة من أمرها ما جاز نفسَها، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، ولا تعدُ بكرامتها نفسَها، ولا تُطمعها في أن تشفع بغيرها،.. وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول -

أستودعك الله دينك ودنياك، وأسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة، والدنيا والآخرة والسلام» (الوصية ٣١).

لقد تمت كتابة هذا التفسير هنا بمولد النبي الطاهر الأمين ﷺ بعد سبع عشرة سنة متتالية التي شغلَت صورة التأليف، ابتداءً من الجزء الثلاثين، إلى عدة أجزاء، ثم اختتاماً من الجزء الأول حتى هذه السورة التي هي السورة الأخيرة في ترتيب زمن التأليف لهذا الفرقان.

وأنا في كل هذه السنين - التي قسمٌ منها كنت في الهجرة الهاجرة السبع عشرة سنة من شر الشاه عليه لعنة الله، والقسم الأخير بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران - في كل هذه كنت في حالات مُحرجة مُخرجة عن كافة الطاقات، من هجمات هؤلاء الذين لا يعتبرون القرآن كتاب دراسة وتفكير وتحصيل، ويعارضونه كأنه كتاب في الحوزات دخيل!.

فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى فظفرت إذ «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان»[١].

فبالرغم من كافة العراقيل التي كانت - بطبيعة الحال - تحول بيني وبين هذا المشروع العظيم، ما ازددت إلّا اهتماماً في مواصلة التدريس والتأليف لهذا الفرقان.

(١) (الحكمة ١٤٦).

ولقد كنت ألمس تأييداً ربانياً باهراً من خلال اشتغالي بهذا التفسير، وكذلك في ثلاثين من السنين من دراساتي وتفكيراتي حول القرآن قبل الاشتغال بالتأليف المرسوم لهذا التفسير، فتمت المجموعة التحضيرية والتأليفية في ست وأربعين سنة وذلك بعد سنة من بداية دراساتي الإسلامية.

هذه المجلدات الثلاثون ألَفت بهذه الصورة في بيروت ومكة المكرمة وقم المقدسة، والتقدمة التحضيرية كانت بالترتيب في قم وطهران والنجف الأشرف وبيروت ومكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق، بين دراسة ومطالعة وتدريس - سفراً وحضراً، في الهجرة والوطن، فقد ألف ثلاث مجلدات منه في بيروت واثنتان في مكة المكرمة، وخمسة وعشرون بقم المشرفة، فبلغ زمن التدريس إلى (٢٧) سنة بصورة متواصلة باللغتين العربية والفارسية في النجف الأشرف وبيروت وسوريا ومكة المكرمة وقم المقدسة.

ومن عزة القرآن العزيز المنعكس على هذا التفسير أنني مما ابتليت بالتماس مآل لِطباعته، فبيدٍ فاضية عن المال وقلب فائضٍ بالتوكل على ربي على كل حال، طبع في بيروت وقم ونشر منهما إلى كل أنحاء العالم الإسلامي[١].

---

(١) ولقد سألني ويسألون سائلون كثير، ما هو الدافع لك أن صرفت كلَّ زمنك الدراسية في معارف القرآن، رغم أن الحوزات لا تشجِّع طلابها على ذلك، بل وهي تندد بهذه الصورة الدراسية، معتبرة المتخلفين عنها متخلفين عن الحوزات العلمية؟.
والجواب بكلمة واحدة أن ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النّمل: ٤٠] إن النزعة الأولى التي نزعتني إلى الاشتغال بالدراسات الإسلامية، هي النزعة الإيمانية، رغم الأجواء المتحكمة علي وعلى أمثالي زمن الشاه عليه لعنة الله.
والخطوة الأولى كانت نقطة الانطلاق، وهي انجذابي إلى محاضرات العالم العارف الكامل المغفور له الميرزا محمد علي الشاه الشاه آبادي، في مسجد الجمعة بطهران وأنا في وسط العقد الثاني من عمري، وقد كان يركز في محاضراته العرفانية الأخلاقية العقيدية على القرآن، فتدرّبت على ذلك منذ البداية، فدخلت الحوزات العلمية الرسمية، الخالية عن القرآن، فجعلته الأصل الأصيل في دراساتي وتفكيراتي رغم كافة العراقيل الحوزوية، ودرست - =

وقد تمت كتابة هذه الأسطر في تفسير الفرقان يوم السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٤٠٩ هجرية قمرية على هاجرها ألف سلام وتحية في بلدة قم الطيبة.

فالحمد لله أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطْب الفادح والحدث الجليل»[١].

«الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلوّ من نعمته، ولا مأيوس من مغفرته، ولا مستنكَف عن عبادته، الذي لا تبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة» (٤٥) -

«الحمد لله كلَّما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق، والحمد لله غير مفقود الإنعام ولا مكافأً الإفضال» (٤٨) -

«الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلَّت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصيرة» (٤٩) -

«الحمد لله الذي لم تسبق له حالٌ حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون أخيراً، ويكونَ ظاهراً قبل أن يكون باطناً» (٦٣) -

«الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطَوله، مانحُ كلّ غنيمة وفضلٍ، وكاشف كل عظمة وأزْلٍ، أحمده على عواطف كرمه، وسوابغ نِعَمه، وأؤمن به أولاً بادياً، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً» (٨١) -

= على هامش الدراسات القرآنية - الدروس المرسومة في الحوزات كلها عند أكابر العلماء، وأعاظم المراجع زهاء نصف قرن، ولكي يفسح لي المجال لغربلتها عرضاً على القرآن العظيم، فوُّفقت بحمد الله وحسن توفيقه، لما ترون من هذا الفرقان وسائر ما كتبت على محور القرآن، والحمد لله أولاً وآخراً.

ومما وسع لي نطاق المعارف القرآنية هو مواصلة الحضور للمحاضرات التفسيرية للمغفور له العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان قدس الله روحه.

(١) (الخطبة ٣٥).

«الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير رويَّة، الذي لم يزل قائماً دائماً، إذ لا سماءَ ذات أبراج، ولا حُجُب ذات إرتاج ولا ليل داج، ولا بحر ساج، ولا جبل ذو فجاج، ولا فجٌّ ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد» (٨٨).

«الحمد لله الذي لا يضره المنع والجمود، ولا يكديه الإعطاء والجود، إذ كل معط منتقِص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه» (٨٩) -

«نحمده على ما كان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان» (٩٧).

«الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرايعه لمن ورده، وأعز أركانه على من غالبه» (١٠٣) -

«أحمد الله وأستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره، والاعتصام من حبائله ومخاتله» (١٤٩) -

«اللّهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطي، وعلى ما تعافي وتبتلي، حمداً يكون أرضى الحمد لك، وأحب الحمد إليك، وأفضل الحمد عندك، حمداً يملأ ما خلقت، ويبلغ ما أردت، حمداً لا يحجب عنك، ولا يقصر دونك، حمداً لا ينقطع عدَده ولا يفنى، وأتوكل على الله توكل الإنابة إليه، وأسترشده السبل المؤدية إلى جنته، القاصدة إلى محل رغبته» (١٥٩) -

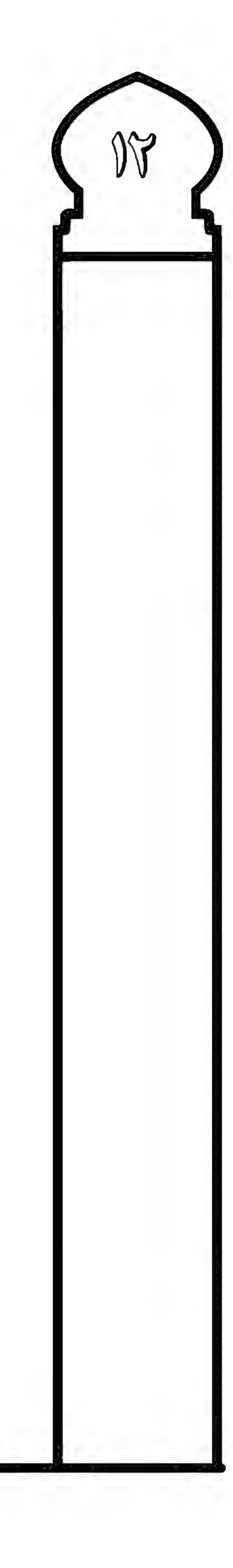
«الحمد لله الذي إليه مصاير الخلق، وعواقب الأمر، نحمده على عظيم إحسانه، ونيِّر برهانه، ونوامي فضله وامتنانه، حمداً يكون لحقه قضاءً، ولسكره أداءً، وإلى ثوابه مقرِّباً، ولحسن مزيده موجباً، ونستعين به استعانة راجٍ لفضله، مؤمِّلٍ لنفعه، واثقٍ بدفعه، معترف له بالطَّول، مذعن له بالعمل والقول» (١٨٠) -

«الحمد لله الذي لم يصبح بي ميتاً ولا سقيماً، ولا مضروباً على عروقي

بسوءٍ، ولا مأخوذاً بأسوإِ عملي، ولا مقطوعاً دابري، ولا مرتداً عن ديني، ولا منكراً لربي، ولا مستوحشاً من إيماني، ولا ملتبساً عقلي، ولا معذَّباً بعذاب الأمم من قبلي» (٢١٣)

«اللّهم إنك آنس الآنسين لأولياؤك، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك» (٢٢٥).





سُورَة يُوسُف



وآياتها إحدى عشرة ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

تنزل هذه السورة كلها في مكة المكرمة، في فترة محرجة موحشة من هذه الرسالة القدسية، يعانيها الرسول ﷺ من الجاهلية الجهلاء القرشية، تهريجاً لجو مكة ضده، وتحريجاً لصاحب الدعوة، ضرباً وشتماً وحصراً في شعب أبي طالب وفي النهاية تهجيراً إلى المدينة، فقد أحرجوه طيلة العهد المكي حتى أخرجوه، فتقص له فيها أحسن القصص توطيناً وتوطيداً لخاطره الشريف، حين يسمع قصة أخ له من قبل يعاني صنوف المحن من إخوة له في النسب، وهذا

النبي يعاني المحن من قومه، وعلى الجملة فإن هذه السورة ترسم له من قصصها صورة عسيرة من دعوة سابقة بين حاسدين يتربصون به كل دوائر السوء، وهي في ختامها يسيرة حيث يرجع صاحب القصة أميراً صغيراً يشرى بثمن بخس دراهم معدودة ثم يزج في السجن في تهمة وقحة!

وكذلك أنت يا صاحب الرسالة القدسية - وبأحرى - فإن مع العسر يسراً، سوف ترأس في مهاجرك دولة الإسلام، ويصبح ختامك خير ختام بحول الله الملك العلام.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾:

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو القرآن المفصل، وهو المجمل المنزل ليلة القدر، وهو أم الكتاب لدى الله علي حكيم(١).

فإن كان هو القرآن المفصل، فـ ﴿تِلْكَ﴾ المفصلات كهذه السورة وسواها آياته، وإن كان هو المجمل فكذلك الأمر ولكنها تفصيل آياته، أم إن ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ﴿الٓر﴾ أنها آيات الكتاب المبين النازل على الرسول في ليلة القدر، قرآناً على شخص الرسول كبرقية رمزية، لا عربياً في لغته حيث الحروف المقطعة لا تخص لغة دون أخرى، ولا عربياً في تعقله حيث لا يعقلها غير الرسول ﷺ - ولكنها منها وليست كلها، إلَّا أن ضمنيتها في هذه الثلاث تحل مشكلة التبعيض، وقد تكون هذه الأحرف حاملة غير الذي أنزل عليه ليلة القدر، أم تعمهما، ومهما يكن من شيء فإنها مفاتيح كنوز القرآن الخاصة بصاحب الوحي، وهي الكنوز التي لا تفتح بآياته المفصلات، مهما كانت مفاتيح لكنوز أخرى للمرسل إليهم.

(١) راجع تفسير الكتاب المبين إلى سورة الزخرف تجد تفصيله الثلاث.

فـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ : الكتاب المبين للرسول، المجمل عن غير الرسول ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ لغة عربية ولساناً عربياً: واضحاً لا خفاء فيه في أي حقل من الحقول ولكل العقول.

فـ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لا تعني - فقط - العرب، فإنه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ بل تعني كافة العقلاء.

فالقرآن المبين، المنزل على قلب الرسول ﷺ في هذه الحروف الرمزية أم سواها من رموز، ليس عربياً يعقله غير الرسول، وقد جعله الله بتنزيله للعالمين ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ واضحاً مكشوفاً لا تعقيد فيه ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فهو عربي اللفظ والمعنى، عربي الدلالة والمدلول، عربي في التفهم والتطبيق، لا تعقيد فيه دعوة وداعية، وقد يروى عن الرسول ﷺ بشأن العربي قوله ﷺ: «أحب العرب لثلاث، لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي»[1] وليس هذا من حب الذات، وانما حب النبوة السامية، وحب القرآن وحب الجنة، فالقرآن ونبيّه عربيان واضحان دون خفاء، والجنة عربية واضحة لأهلها!

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيها العقلاء ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فالعاقل قد يعقل إذا تعقَّل وشاء الهدى، وقد لا يعقل إذا لم يتعقل أو شاء الردى، فـ «لعل» الترجي هنا وفي سائر القرآن، لا تعني شكاً في ترجٍ لساحة الربوبية، وإنما هما فيمن خوطب

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣ - أخرج الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، قال قال رسول الله ﷺ . . .
وأخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قرآناً عربياً ثم قال رسول الله ﷺ : ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً وفي تفسير الألوسي ١٢ : ١٧٢ عن الشيرازي في كتاب الألقاب بسند عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه عن النبي ﷺ قال: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة.

بالقرآن، فالهدى محتومة في دعوة القرآن لأنه غير ذي عوج، وهي غير محتومة في المدعوين بالقرآن بما فيهم من عوج.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾:

القصّ هو تتبع الأثر: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[١] ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[٢] وهو الأخبار المتتبعة:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣] وليس جمعاً، بل هو جنس الخبر المتتبع والأثر: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[٤] وإنما لم يأت باسم الخبر أو الأثر حيث القصص هو الخبر والأثر المقصوص المخصوص، فليس القرآن كتاب حكاية، ولا كل خبر وأثر، بل فيه المقصوص من أثر أو خبر ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٥] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦].

وقصة يوسف بين القصص هي أحسن القصص ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ وهو أحسن حديث في قصص وغير قصص: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...﴾[٧] فـ (إن أحسن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع التذكر كتاب الله عز ذكره)[٨].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ١١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٢.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٧) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٨) روضة الكافي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وفي الدر المنثور ٤: ٣ وأخرج ابن جرير عن عون ابن عبد الله قال: مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثنا فأنزل الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾ [الزُّمَر: ٢٣] ثم ملوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا فوق =

ومهما كان القرآن أحسن حديث، وقصصه أحسن القصص، ولكن قصة يوسف قد احتلت القمة المرموقة بين القصص، حيث فيها ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١] محلّقة على كل الأبواب معرفية وخُلقية، فردية وجماعية، اقتصادية وسياسية وثقافية ومن سلطة شرعية أو زمنية أمّا هيه من حقول الدعوة والداعية، والدوائر المتربصة بالدعاة إلى الله.

و﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعمم الأحسن في وحي القرآن كله ومنه القَصص، و﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يميزه عن سائر قرآن الوحي المقروء على سائر رجالات الوحي، فماذا بعد القرآن - إذاً - وهو أحسن الحديث وأحسن القصص وكما يروى عن نبي القرآن تنديداً بمن نسخ كتاباً غير القرآن «يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً ولقد آتيتكم به بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون...»[٢].

وقد ذكرت قصص يوسف في العهد العتيق ولكنه سيئ في جهات وحسن في أخرى، وهي في القرآن أحسن القصص في بعديه، نسبة إلى التوراة، وأخرى إلى سائر قصص القرآن من حيث كونها عبرة لأولي الألباب.

= الحديث ودون القرآن يعنون القصص فأنزل الله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يُوسُف: ١] هذه السورة فأرادوا الحديث وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص.

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٢) في الدر المنثور ٤: ٣ وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم ونصر المقدسي في الحجة والضياء في المختارة عن خالد بن عرفطة قال كنت جالساً عند عمر - وذكر أنه ضرب رجلاً من عبد قيس لأنه نسخ كتاب دانيال وأمره بمحوه ثم قال له اجلس فجلس بين يديه فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال له رسول الله ﷺ: ما هذا في يدك يا عمر؟ فقلت: يا رسول الله ﷺ كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علم فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار: أغضب نبيكم السلاح فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال ﷺ: أيها الناس إني قد أوتيت.. قال عمر فقمت فقلت رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبك رسولاً ثمّ نزل رسول الله ﷺ.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ... وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فإنه قبل وحي القرآن ما كان ليعلمه، أبوحي يعلمه؟ ولم يكن يوحى إليه! أم بغير وحي؟ ولم يكن يعلمه أصحاب الوحي من قبل فضلاً عن غير وحي! قصص يوسف هنا في هذا القرآن تمثّل النموذج الأكمل لمنهج القرآن في الأداء الفني للقصص، قدر ما يمثل نفسياً وعقيدياً وتربوياً وحركياً، ويوسف هو الشخصية المثالية الرئيسية في القصة، في عرض واسع، ذكراً لما فيه عبرة لأولي الألباب وحذفاً لما لا يعني إلّا تطويل الأبواب.

تذكر خوضه في مختلف الابتلاءات والبليات، وخروجه عنها كلها نقياً متجرداً متبلوراً خالصاً عن كل رين وشين.

ومع استيفاء القصة لكل ملامح الواقعية في ذلك العرض العريض، حيث أصبحت السورة كلها صورة رائعة عن هذه الشخصية اللامعة، وعرضاً لثورة أخلاقية وعقيدية في معرض الاصطدامات الشديدة، فإنها تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني الصادق الفائق لواقع القصة.

تظل القصة في ظلال ذلك الأداء الأمين الرصين نظيفة عن كل خالجة خارجة عن طور الواقع، لتجعل أولي الألباب معتبرين بالأمر الواقع، بعيدة عن التخيلات اللّاصقة، والتطفلات اللّاحقة، والمترنمات الماحقة لأصالة القصة.

فالسورة بكاملها ثورة أخلاقية عقيدية جماعية سياسية اقتصادية أمّاهيه، بمن يحتّفون بشخصيتها المحورية - يوسف الصديق عليه أفضل الصلاة والسلام - بين يعقوب الوالد الملهوف، وبين الإخوة في كل حقد ومؤامرة ومناورة، إلى أن شروه بثمن بخس دراهم معدودة، وبين عزيز مصر وامرأته بكل غرائزها واندفاعاتها الأنثوية الرديئة، وبين النسوة من طبقة عليّة في

مصر الفراعنة، وبين أصحابه في السجن، وإلى أن أصبح هو عزيزاً يرأس بلاد الفراعنة في كل صدق وصفاء وهيمنة الرسالة!

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾:

﴿يُوسُفُ﴾ هو ابن يعقوب - إسرائيل، وعلى حد تعريف الرسول ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم»[1].

و﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أتراها معيَّنةً لديه معنيَّةً حين رآها كاتصال الإخوة بالأخوّة، وكما الشمس والقمر المعروفان؟ علّها هيه كما في رواية[2].

أم ليست هيه إذ لا تلمح لها الآية، اللّهم إلا نسبة بينها وبينه تلوِّح للأخوّة.

وهل السجدة هذه كانت ليوسف عليه السلام؟ ولا يُسجد إلا لله! إنما «سجدوا شكراً لله وحده حين نظروا إليه وكان ذلك السجود لله تعالى»[3] وسجود الكواكب والنيرين هنا علّه سقوطهما على قدميه ليعني غاية الخضوع، وإلا فهي خاضعة لله منذ تكوينها وفي حركاتها.

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤ - أخرج أحمد والبخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: . .

(٢) المصدر ٤: ٤ - أخرجها بطرق عدة مصححة عن جابر قال جاء بستاني اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ساجدة له ما أسماؤها فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها فبعث رسول الله ﷺ إلى البستاني اليهودي فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم قال ﷺ: حرثان والطارق والذيال وذو الكفتان وقابس ودثان وهودان والفيلق والمصبح والضروح والفريخ والضياء والنور رآها في أفق السماء ساجدة له فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد فقال اليهودي: إي والله إنها لأسمائها.

(٣) نور الثقلين ٢: ٤١٠ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: تأويل هذه الرؤيا أنه سيملك مصر ويدخل عليه أبواه وإخوته، أما الشمس فأم يوسف راحيل، والقمر يعقوب، وأما الأحد عشر كوكباً فإخوته فلما دخلوا عليه سجدوا شكراً لله.

ولماذا ﴿رَأَيْتُ﴾ مرتين وهي رؤيا واحدة؟ كأن الأولى هي الرؤيا والثانية هي الرؤية فيها فالأبلغ الأفصح تكرارها.

وترى لماذا بالنسبة للكوكب والشمس والقمر «هم.. ساجدين» وهي لا تعقل؟ علّه حيث نسب إليها فعل من يعقل ﴿سَٰجِدِينَ﴾ ناسبها ضمير العاقل، وكما في أضرابها: «وكل في فلك يسجون» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾[1] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾[2] ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[3].

فقد حسن استعمال ضمير العاقل فيها لمكان فعل العاقل، وهنا مزيدٌ تحويلاً لتأويل الرؤيا وهو أبوا يوسف وإخوته، فجرى الوصف على تأويل الرؤيا ومصير العقبى، فزاد حسناً على حسن.

ثم الرؤيا هي الرؤية في المنام، وهي تعمها وكل ما يُرى في غير حالة اليقظة الكاملة من إغماء، أم حالة بين النوم واليقظة، كما المنام يعم النوم باختيار ودون اختيار، وفي اختياره يعم اختيار مقدمات له، أم اختيار النوم بتجريد النفس وتخليّها عن البدن بحواسه الظاهرة، والرؤيا تحصل في كل هذه الخمس مهما كان أكملها النوم التام باختيار أم دون اختيار، في نوم حيونة الحواس أم إنامتها باختيار.

والمناسب منها لساحة يوسف الصديق هو ما دون الإغماء، والأنسب بين الأخرى هو الإنامة باختيار، ولا برهان لها فيما هنا، فإن رؤيا الأنبياء شعبات من الوحي، كما في سائر الرؤيا الصادقة، فإن فيها لمحات الوحي، حيث تُرى سيرة الواقع في ظلال الصورة المناسبة لها، الوطيدة الصلة بها.

فقد يُرى الواقع الغيب بسيرتها وصورتها الحقيقية، وهذه تخص

(١) سورة النمل، الآية: ١٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٤.

رجالات الوحي ومن يحظو حظوهم، إذ يحذو حذوهم، أم ترى بصورتها المثالية، فهي بحاجة إلى تأويل، وهذه تعمهم وسواهم ممن يرى الرؤيا الصادقة، ورؤيا يوسف هذه من الثانية، كرؤيا صاحبيه في السجن: ﴿وَقَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ...﴾[1] وكرؤيا الملك: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ...﴾[2].

وقد تكون منها رؤيا ما أوحي إلى أم موسى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[3] فإنه وحي الإلهام وعلّه في الرؤيا كما يروى، أم في اليقظة كما تحصل للصالحين.

ومن رؤيا النبوة العليا للرعيل الأعلى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾[4] و﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[5] ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[6] وفي إبراهيم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ...﴾[7].

والرسول ﷺ يرى في هذه وتلك صورة الواقع نسخة طبق الأصل، دون المثال الذي يحتاج إلى تأويل.

فالنفس تتجرد حالة المنام عن حيونة التعلق ببدنها، فقد تشفُّ أكثر مما

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٣.
(٣) سورة طه، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.
(٧) سورة الصافات، الآية: ١٠.

كانت قبل المنام، فترجع إلى عالمها المسانخ لها، فترى بعض ما فيه من الحقائق قدر استعدادها وفاعليتها وقابليتها، وقد لا تكشف لبقية التعلّق والاتصال بما تحويها من حواجز خارجية أو داخلية ليست لتتخلى عنها، فلا تتحلى إذاً بالكشف عن الحقائق.

فالنفس الكاملة تدرك الحقائق مجردة عن الصور الطارئة، وغيرها قد تدركها بطارئة الصور التي تأنسها، وهذه الصور قد تكون قريبة الصلة والحكاية عن حقائقها، وهي للأصفياء، أمّن يصفو لفترة مصلحية وإن لم يكن من الأصفياء.

وقد تكون متوسطة الصلة أو بعيدتها عن حقائقها، فيصعب تأويلها، حين تختلط وتتخربط الصور المماثلة والمضادة للحقائق، فتضل عنها ولا مؤوّل لها مهما كان لها تأويل، اللّهم إلّا من علّم تأويل الأحاديث ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

فمن الرؤيا ما هي صادقة حيث ترى فيها الحقائق بصورها الواقعية، أو القريبة، ومنها الكاذبة حيث لا ترى فيها الحقائق إلا بصور غريبة بعيدة يصعب تأويلها إليها وهي أضغاث أحلام، ذلك لاختلاف حالات النفس في منامها، ومنها ما هي كاذبة لا تأويل لها إطلاقاً، إلّا حكاية عن طوارئ النفس خارجية وداخلية.

فالرؤيا المتجردة عن أسباب خارجية طبيعية في اليقظة والمنام، وعن اسباب مزاجية أو خلقية، هي الصادقة، سواء في الصور المجردة، أم التي لها صلة بالواقع قريبة أم غريبة، والأخيرتان بحاجة إلى تأويل.

ولكنما الرؤيا المرتبطة بأسباب سوى الواقع، هي المرتبكة البعيدة عن الواقع، وليس لها تأويل أبداً.

وعلى أية حال فلا مجال لإنكار أن هناك الرؤيا الصادقة[1] حيث تخبر عن الغيب ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، حين تصفو النفس أصالة كالأصفياء، أم ابتلاءً وتذكيراً لفترة أو فترات كما في البعض من رؤيا غير الأصفياء.

فما منا صالحاً وطالحاً إلَّا وقد رأى في منامه ما يكشف له بعض المغيبات، ما لا سبيل إليها بالسبل الطبيعية والكسبية المتعودة، وأما رؤيا الصالحين الصادقة فكثيرة كثيرة، ودرجات الكشف في الرؤيا حسب درجات أصحاب الرؤيا، كما وتأويلاتها في صورها المتوسطة والبعيدة بحاجة إلى درجات من الكشف لمن يؤولها إلى حقائقها، ومن أرقاها ما يلهمه الله أو يوحيه وكما ليوسف الصديق ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ. . .﴾.

فالرؤيا الصادقة هي ما تتخطى حواجز الزمان وحواجز المكان وحواجز الأحلام الكاذبة التي يعيشها الإنسان.

وكما تتخفى حواجز الأبدان وعالم الأبدان، فتشفُّ الروح أكثر مما كان، فترى الحقائق بسيرتها أو صورتها متحللة عن مثلث الزمان، وأبعاد المكان، ثم الكاذبة لا تحكي إلَّا عن هذه الحواجز الباقية على قدرها، فلا رؤيا إلَّا ولها تأويل، بين صادقة تكشف عن الواقع الحق، أم كاذبة تكشف عن الواقع المختلق[2].

---

(١) وكما يقوله الباحثون الغربيون من علماء الطبيعة حيث لا يرون للرؤيا حقيقة ولا للبحث عنها وارتباطها بالحوادث الخارجية وزناً علمياً، ولكنما المنامات الصحيحة المتواترة الكاشفة عن المغيبات ليست لتحمل على الصدف والاتفاقيات، وإلّا كانت الصدفة أنجح من المحاولة القاصدة في الكشوف العلمية.

(٢) وصح عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره. =

وقد تعاضدت الروايات أن الرؤيا الصادقة شعبة من الوحي، أو جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وقد تتأيد الأخير بما يروى أن الوحي على الرسول ﷺ كان منذ البداية إلى ستة أشهر في الرؤيا[١] ولو صحت لانطبقت في الحساب قياساً لستة أشهر إلى ثلاث وعشرين سنة زمن الوحي كله، إلا أن الثابت قرآنياً وفي السنة أن الأكثرية الساحقة من وحيه في تلك المدة كانت يقظة، وأقله في الرؤيا.

وقال جماعة من المتفلسفة[٢] وآخرون من الصوفية[٣] مقالات حول الرؤيا، نصدق المصادِق منها مع الكتاب والسنة.

= وفي تفسير روح المعاني للألوسي ١٢ : ١٨١ وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله تعالى وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره، وفيه وصح عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم وليتحول عن جنبه الذي كان عليه.

(١) تفسير الألوسي ١٢ : ١٨٢ عن عائشة:

(٢) قالوا إنها انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني إلى صلة هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها إلى الحس المشترك فتصير شاهدة ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت اليه:

(٣) قالوا إن الرؤيا من احكام حضرة المثال المقيد المسمى بالخيال وهو قد يتأثر من العقول السماوية والنفوس الناطقة المدركة للمعاني الكلية والجزئية فيظهر فيه صور مناسبة لتلك المعاني وقد يتأثر من القوى الوهمية المدركة للمعاني الجزئية فقط فيظهر فيه صورة تناسبها وهذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ وقد يكون بسبب توجه النفس بالقوة الوهمية إلى إيجاد صورة من الصور كمن يتخيل صورة محبوبه الغائب عنه تخيلاً قوياً فتظهر صورته في خياله فيشاهده وهي أوّل مبادئ الوحي الإلهي في أهل العناية لأن الوحي لا يكون إلا بنزول الملك وأوّل نزوله في الحضرة الخيالية ثم الحسية وكما يروى عن عائشة أنها قالت: أوّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

يرى يوسف الصديق رؤياه الصادقة هذه فيقصها على أبيه، ثم يعقوب التوراة ينتهره «ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل يأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر»[(١)] تكذيباً لرؤياه في تنديد وانتهار، حيث يصبح يوسف في حيرة وانبهار، ثم حفظاً لها كأنه يرى لها واقعاً! ويا له من تناقض في هذه المواجهة، وانتحار! وأما يعقوب القرآن فيصدقه بكل تكريم وإكبار، ويؤوِّلها أحسن تأويل فيحذره عن قصها لإخوته خوفاً عن مكيدة وحسد واستكبار:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾:

ذلك وحتى تحققت رؤياه بتأويلها ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ . . .﴾[(٢)].

أترى أنه قصها على إخوته، خلافاً لصالحه وعصياناً لأمر والده الحنون فحسده إخوته؟ كلّا! فإنما ملامح الحب اللّامحة منه ليوسف وأخيه،

---

(١) في الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين». . ١ - وسكن يعقوب في أرض غربة أبته في أرض كنعان ٢ - هذه مواليد يعقوب: «يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموا بسلام -
وحلم يوسف حلماً فأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له فقال لهم: اسمعوا لهذا الحلم الذي حلمت: فها نحن حازمون حُزماً في الحقل وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي، فقال له اخوته: «العلك. . .».
ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال: إني قد حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم. .؟ فحفظ الأمر».

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

الراجحة على إخوته، هي التي حرضتهم على ما حسدوه وافتعلوه ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا...﴾ دون تصريحة أو إشارة، أنه يرأسنا كلنا بما رأى من رؤيا أوّلها أبونا، أم رؤيا غيرها.

ولكنما التوراة تخطىء هنا خطأً ثانياً إذ تصرح أنه قصّه على إخوته[1] ثم تعكس أمر المواجهة، فلأبيه الانتهار، وليس هنا للإخوة أمرٌ، وعلّهم وافقوا أباهم في تكذيبه، فلم يأخذوا رؤياه بعين الاعتبار! اللّهم إلّا رؤيا أخرى هي الأولى، تذكرها ما هيه ثم قول الإخوة: «ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً؟ وازدادوا أيضاً بغضاً من أجل أحلامه ومن أجل كلامه»؟! ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ هذا التصغير دليل أنه صغيرٌ ولمّا يبلغ الحلم خلاف ما تقصه التوراة أنه ابن سبعة عشر، ووفاقاً لآيات تالية في نفس السورة... ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌۚ...﴾[2] - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ...﴾[3] ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا...﴾[4] ثم إنه لمحة لاتجاه الأب الحنون وِجاه هذا الولد الصغير، الكبير الكبير في محتده، المحسود بين إخوته من قصته، ومثل هذه الرؤيا ليست رؤيا الطفولات للأطفال، وإنما رؤيا البطولات للرجال الأبطال، مما يخطط رسم حياته المنيرة منذ الطفولة حتى الرجولة، محسودة بين الإخوة، محاطة بحيطة رحيمة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ...﴾ كمبدء وضابطة في قصّ الرؤيا وعدم قصّها، ولماذا تقص الرؤيا على حاسدين يتحرضون لكل مكيدة: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ وقد ينسى الحنان الأخوي حين يرون فائقاً

(١) مر تخريجها في الحاشية رقم (١) في الصفحة السابقة.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٩.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

متوفقاً من بينهم عليهم حيث ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[(١)] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾! إنما تقص الرؤيا على من يؤوِّلها، أو يتبهج لها كوالد حنون، دون من يتحرَّج بها فيُحرِّج صاحب الرؤيا كإخوة حاسدين.

فلقد عرف يعقوب من هذه الرؤيا أن يوسف هو المختار بين أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه كل بركة، وتتمثل فيه كل حركة في هذه السلسلة المباركة وكما قال ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ. . .﴾.

لذلك - وحفظاً عليه - يوصيه ألَّا يقص رؤياه على إخوته، وبطبيعة الحال لم يكن - بعد - ليقصها حيث يرى في ذلك هدماً لصرح رؤياه، وخلافاً على أبيه، وكما لا تلمح القصة على طولها أنه قصها عليهم.

ولو أنه قصها عليهم، وقد علم أنهم يكيدون له كيداً، فلماذا يرسله معهم حين يطالبونه؟ أإرسالاً إلى غير مَحضن ليحققوا كيدهم الذي يعلم لو أنهم عرفوا رؤياه؟! وفي ذلك القص وهذا الإرسال تخطئة لساحة يوسف ويعقوب، ومس من كرامتهما، فلا تصدق الرواية القائلة: «فلِمَ يكتم يوسف رؤياه وقصها على إخوته»[(٢)] فإنها من الإسرائيليات.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٢) تفسير البرهان ٢: ٢٤٢ عن ابن بابويه بسنده عن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث مفصل فيه قصة رد يعقوب سائلاً مؤمناً صائماً فعاقبه الله في يوسف وفيه فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا؟ فقال: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً وبات فيها دانيال طاوياً جائعاً فلما رأى يوسف الرؤيا وأصبح يقصها على أبيه يعقوب فاغتم يعقوب لما سمع من يوسف وبقي مغتماً فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك فإني أخاف أن يكيدوا لك كيداً فلم يكتم يوسف رؤياه وقصها على إخوته. . .

أقول: وفي هذا الحديث موارد من النظر، فكيف يحرم يعقوب النبي سائلاً وقت الإفطار وعنده كبش مطبوخ ويبقى عنده فضل منه والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع» ثم كيف يؤخذ الابن بذنب الأب لو كان ذنباً وطبيعة الحال تقضي أن الإخوة =

ولماذا هنا ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾ وهو متعد بنفسه كما «فيكيدوني»؟ اللام هنا لا تُعدى، وإنما تؤكد تخصيصاً أن يختصوك بكيدهم بمحاولات قاصدة هادفة، دون استطراد في جمع، وذلك من عداوة الشيطان للإنسان أن ينزغ بينهم لحدِّ الكيد القتل لأخ حبيب صغير وكما فعل، والأخوّة من الظروف الجذرية للتحاسد يتعامل معها الشيطان ما وجد إليها سبيلاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى، العظيم في الرؤيا، نسخة طبق الأصل، وواقعاً وفق الصورة ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...﴾ ﴿وَيُعَلِّمُكَ...﴾ ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ...﴾ أترى الاجتباء هنا هو الرسالة، أم إنها إتمام النعمة؟ فالاجتباء لها كتقدمة وبينهما تعليم الأحاديث؟ حيث الرسالة هي إتمام النعمة إذ ليست فوقها نعمة! لكنما الرسالة المحمدية وهي القمة العليا من النعمة تتم بفتح مكة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ...﴾[1] ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ...﴾ فكيف لا تتم هذه النعمة فيما دونها من رسالات كما في يوسف وآل يعقوب وفي إبراهيم وإسحاق؟! فـ ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ هو الرسالة قبل إتمام النعمة، فإنها نعمة من الله خاصة، ولها درجات تتكامل فيها في جنبات، كما وأصل الرسالة والنبوة درجات.

وإذا يسجد له يعقوب الرسول ﷺ مع الساجدين، وذلك سند اجتبائه في رؤياه، أفلا يكون - إذاً - رسولاً كأبيه أو هو أفضل لمكان السجدة، وذلك هو أصل اجتبائه، ثم يتبّناه تعليم الأحاديث وإتمام النعمة.

= لما يرون يوسف أحب إلى أبيهم منهم يحسدونه ويكيدون ولأن الملك عقيم وهم يخافون أن يصبح خليفة أبيه بعده؟!..

(١) سورة الفتح، الآية: ١.

وقد جاء الاجتباء في جباية الرسالة كما في آدم: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[(١)] وإبراهيم: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)] بل وحتى اجتباءُ بعد الرسالة كما في يونس: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾[(٣)] وذلك الاجتباء بعد أن ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[(٤)] ثم ﴿ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾[(٥)] ثم سجن في بطن الحوت ثم نجي ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ...﴾! ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾[(٦)] [(٧)].

فهو يجتبي رسله ويجتبي من رسله، ثم لا اجتباء فيمن دون الرسل رسالة أو في درجاتها، إلَّا اجتباءً لأمة على أمة ليست إلَّا دون الرسالة كما في المجاهدين المسلمين حق جهاده: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ...﴾[(٨)] وكما في إتمام النعمة هنا ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ حيث النعمة درجات فإتمامها أيضاً درجات، وقد فضل آل يعقوب على سائر الآل لاجتباء الأنبياء منهم لا أنهم كلهم أنبياء.

وحتى فيما يذكر الاجتباء في جماعة الأنبياء، ليس ليدخل فيهم غيرهم، وكما تذكر جماعة من الأنبياء الإبراهيميين بأسمائهم وجماعة أخرى جملة:

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢١.
(٣) سورة القلم، الآيات: ٤٨-٥٠.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٧) وهم إسحاق - ويعقوب - داود - سليمان - أيوب - يوسف - موسى - هارون - زكريا - يحيى - عيسى - إسماعيل - اليسع - يونس - لوط.
(٨) سورة الحج، الآية: ٧٨.

﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

هذا هو الاجتباء قرآنياً، وهو يجاويه لغوياً فإنه جمع على طريق الاصطفاء، ولا اصطفاء إلّا في الأنبياء، يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته، والحوض الجامع له جابية، وجمعها جواب ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾[2].

وكأن الاجتباء في الأنبياء يعني جمع الشمل، تحفظاً عن تفرق الأفكار في متفرق السبل المفرقة عن سبيله، وتجميعاً لها وتوحيداً وتوطيداً على صراط مستقيم، بعدما جمعت لهم خاصة النعم الربانية في نعيم مقيم.

ثم ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ موهبة له ثانية بعد اجتبائه بالنبوة، والتأويل هو الإرجاع، فليس إلّا فيما له مرجع في مبدإٍ أو منتهى أم بينهما، يُرجع إليه الحديث المتشابه، حيث لا ينبىءُ ظاهره عن باطنه، بداية ونهاية وبينهما، وهذا هو غاية التشابه ألا يُظهر الحديث مرجعه في مثلثه.

ثم الحديث هو كل حادث بمظاهره وآياته كما الله حديث ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[3] أم بذاته وتطوراته كما في كل حادث، ويوسف موعود أن يعلم ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ لا كل الأحاديث، وقطعاً ليس منها حديث ذات الله إذ ليس لها تاويل، ولا كل مخصوص علمه بالله أمّا ذا من المستحيل كالعلم بكنه الأشياء لحد يساوق القدرة على إبداعها كما الله.

فتأويل الأشياء إلى حقائقها هكذا في مثلث الزمان وفوق الزمان والمكان مما يختص بالله علماً وقدرة، وتأويلها إلى شيء من باطن أمرها

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٦.

ماضياً أم حالاً واستقبالاً، هو من العلم الذي يعلّمه الله من يشاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾(١).

فمما علّم من تأويله هو تأويل الرؤيا كما أوّل لصاحبي السجن وللملك، ومنه تأويل الطعام منشأً ونتاجاً وبأحرى في حاله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾(٢).

والرؤيا حديث في حديث، حيث تحدث النفس فيها عن حدث بصورته قريبة أم بعيدة، وسائر الحديث واحد، وكلٌّ لتأويله محيص، ويوسف إنما علّم من تأويل الأحاديث، وعلّه بعض التأويل من بعض الأحاديث تبعيضاً من «مِن» وفي بُعديه، وقد ذكر منها تأويل الرؤيا وتأويل الطعام، وطبعاً منه تأويل الأعمال والأحكام، حيث الرسول يعرف مآخذ الأحكام ومآلاتها، فله تفسير التأويل توسيعاً وتطبيقاً لنصوص الأحكام.

ثم الصور التي يراها الإنسان في يقظته كما في منام هي من ضمن هذه الأحاديث، قد علّم من تأويلها كصور الرؤيا، أترى أن الصور التي هي كاذبة لا تحدّث عن واقع، لها أيضاً تأويل كما للصادقة حتى يعلمها يوسف كلها؟ أجل ولكن الصورة غير الصورة، فالكاذبة تأويلها الحالة الخاصة التي عليها الإنسان، المتخلفة عن الواقع، أم والجو الكاذب المحيط بالإنسان أماذا من غير الواقع، تأويل حسب واقعه حقّاً أو باطلاً.

ومن ثم ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ علّه سلطته الزمنية إضافة إلى الروحية حتى يتمكن من تمكين الدين وفي جو الفراعنة المتخلف عن الدين، أماهيه من إتمام النعمة وكما أتمها الله على محمد ﷺ بفتح مكة.

ويا له ترتيباً رتيباً في واقعه: اجتباء للرسالة، ثم تعليماً من تأويل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٧.

الأحاديث كمنفذٍ مُنقذٍ عن السجن، ثم ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بسلطة زمنية ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أتمها من قبل - على أبويك من قبل، فلست بدعاً ممن أتم الله نعمته عليه ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

والنعمة هي الحالة الحسنة بخلاف النَّعمة، فإنها السيئة: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[٢] والمادة في الحالتين واحدة من علم أو سلطة أو مال وبنين أمّا هيه من وسائل الحياة، فإذا استخدمت في طريق السعادة، فهي نِعمة، أم في طريق الشقاوة فهي نقمة ونعمة.

و«نعمة» هنا هي الخاصة بالمرسلين من عصمة أمّاهيه، فإتمامها هو بروزها تطبيقاً لشرعة الله في واقع الحياة في دولة الحق على دويلات الباطل، التي هي ويلات على الحق!.

وكأن تعليم الأحاديث هو من خلفيات الاجتباء فإنه إخلاص واصطفاء، وكلما كان الإنسان أخلص لله وأصفى كان علمه بتأويل الأحاديث أكثر وأوفى، فليكن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ممن علّمه من تأويل الأحاديث: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾[٣] وقد أوّل يعقوب أوّل ما رأى يوسف من الرؤيا فكان كما أوّل دون أية ليت أو لعل، ثم وإتمام النعمة له صورة شتى تعم السلطة الزمنية كما في يوسف وداود وسليمان ومحمد ﷺ والقائم المهدي من آل محمد ﷺ وهذه من الصور الظاهرة، ثم صور أخرى تناسب كافة الأصفياء الأوفياء.

ومن إتمام النعمة في الرسالة دوامها فيمن يحملونها دونما انقطاع،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١١.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

تخليداً لدولة الحق في السلطة الرسالية، وكما تمت يوم الغدير بانتصاب الأمير، وقد قال عنه العلي القدير: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[(١)] فإنه يوم تقرير المصير في استمرارية هذه الرسالة السامية لو حملتها حملتها الرساليون الرسوليون كالإمام علي عليه السلام والأحد عشر من ولده المعصومين عليهم السلام ثم فقهاء الأمة الأمثل منهم فالأمثل، وبالأحرى الشورى القدسية بين الرعيل الأعلى أحكامياً وسياسياً لإدارة أمور الأمة على ضوء الكتاب والسنة.

وهب هم الأصفياء، أتم نعمته عليهم، فمن هم «آل يعقوب» بجنب هؤلاء الأربعة الطاهرة: إبراهيم وإسحاق ويوسف ويعقوب؟

علّهم يعقوب ومن معه من نسله، نبياً وسواه، أو سوياً على صراط الحق وسواه، فلا يعني إتمام نعمة الرسالة على آل يعقوب وهم إسرائيل وبنوه، أنهم كلهم رسلٌ تمت النعمة فيهم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[(٢)] فالنعمة الأصيلة وهي الرسالة، وإتمام هذه النعمة، هما في أشخاص الرسل الإسرائيليين، ومن ثم على المرسل إليهم الأُول وهم آل إسرائيل مهما صدقوها أم كذبوها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[(٣)] ولكن أصل النعمة هي للذين أنعم الله عليهم: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾[(٤)] مهما كان الأصل فيهم الأولون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ . . .﴾[(٥)]. إذاً فآل

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٥) سورة مريم، الآية: ٥٨.

يعقوب في إتمام النعمة هم الأنبياء الإسرائيليون من يوسف، وموسى وعيسى ومن بينهما من داود وسليمان أمّن ذا؟ ثم وآله في شمول هذه النعمة هم المؤمنون منهم، ومن ثمّ الكافرون حيث اتجهت إليهم وإن لم يتجهوا.

هذا إجمال عن أحسن القصص، وهنا يسدل عليه الستار إلى مشهد التفصيل.



۞لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾
ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ
ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا
تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ
وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ
وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ
ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟
أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ
لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ
سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ
وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن
مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧)﴾:

﴿لَّقَدْ﴾ تأكيدان اثنان لما ﴿كَانَ﴾ في سالف الزمان ﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ منذ قصصهم إلى ما طلعت الشمس وغربت، آيات دائبة مرّ التاريخ في مثلث الزمان لكل سائل عن قصصهم بآياته: ﴿آيَاتٌ﴾ وأمارات كثيرة في حظيرة الصدّيق مع إخوته الحاسدين عليه الحاقدين..

نرى هنالك آيات قدرته الرحيمية على من أخلص له، فكلما كيد كيدٌ من إخوته ومن السيارة ومن العزيز وامرأته أمّن هو، كاد الله له عليهم بعكس ما لديهم ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ويجنبها آيات نقمته وإذلاله على من يريدون بمن أخلص الله سوءاً: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

وبينهما آيات عزته في عبده إذ لم تحوّله مضادات التحولات، فهو في السجن كما هو على عرش الملك، وهو في قصر العزيز كما هو في الجب، له سيرة واحدة، واتجاه واحد صامد رغم مختلف الصور والظروف المتهافتة المتفاوتة: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[3] ثم وآيات تلو آيات تأتي في طيّات الآيات،.. آيات للسائلين:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٠.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾:

قولتهم هذه لا سواها تلمح لمسرح من مزيد الحب من أبيهم ليوسف وأخيه، ولو كان الحسد الباعث لما انبعثوا هو من تلك الرؤيا، لكانت أحق بالذكر بلاغة في ذلك المسرح، ودون ذكر لأخي يوسف إذ لا تشمله رؤياه، ولكنهم يتحدثون عن ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا...﴾ ولو كانوا يعلمون رؤياه لكانت أحرى بذكرهم إياه فقط، وأدعى أن تلهج ألسنتهم بحقدهم.

فإنما ملامح الحب - فقط - ومسارحه أو مصارحه هي الباعثة لقولتهم هذه وفعلتهم، ولا سيما أن الحب أصبح يزيد - بطبيعة الحال - لمكان رؤياه، فقد حان - إذاً - حين كيدهم له كيداً ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثم ﴿وَأَخُوهُ﴾ هنا دون «أخونا» تلمح أنه وإياه كانا من أم أخرى، ولأنه الأكبر، والحب الأبوي له أكثر، لذلك يتوحد كيدهم عليه دون أخيه، إذ لا مكان له دونه كما كان ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾.

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ...﴾: جماعة يتعصب بعضنا لبعض فإن أمنا واحدة، ولأننا كثرة وهما قلة، فنحن - إذاً - مجموعة قوية تدفع وتنفع وأقوى منهما في بعدين اثنين، ولو كان أبونا يعرف صالحنا وصالحه لكان يحبنا أكثر، أم - لأقل تقدير - لم يفرق بيننا، ففي ترجيحه المرجوح على الراجح والمفضول على الفاضل ضلال وزلة: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ضلال مؤكّد بحر في التأكيد، يبين نفسه بما أبان من حبه لهما أكثر منا.

نحن العصبة القوية ندير شؤون حياة العائلة إيكالاً وكُلًّا وهما صغيران ليس لهما دور فيها إلّا أكلاً وكَلًّا، فلماذا - إذاً - هما أحب إلى أبينا منا،

وهذا ضلال مبين عن صراط الحياة البيتية والاجتماعية، مهما كان أبونا نبياً مهدياً في الحياة الروحية.

أترى أن ذلك الحب الأبوي الزائد كان - فقط - لأنهما صغيران؟ وهو سنة دائبة في كل الآباء والأمهات بالنسبة لصغار الأولاد، فلا يحسدهم الكبار على ذلك فإنه تودد الترحم والتعطف لمكان ضعف الطفولة! وأنهم استندوا في ضلال أبيهم المبين إلى كونهم عصبة، فهو ضلال مبين - إذاً - في نسبة أبيهم إلى ضلال مبين، حيث الأخ القوي الكبير لا يحسد الضعيف الصغير، ولا يتوقع لنفسه حب الطفولة كما للصغير، إلّا إذا غرب عقله وطفلت نفسه وهذه مهانة بارزة. . وكلّ يذكر طفولته ورجاحة المودة الأبوية فيها، فليسا هما بدعاً من الإخوة الأطفال ينحو نحوهما الوالد الرحيم ويحنو لهما أكثر من العصبة، فهو - إذاً - صراط مستقيم في جو العائلة وليس من الضلال المبين! إنما ذلك كان حباً زائداً فوق رحمة الطفولة، حبٌّ يكشف عن لباقة زائدة فيهما ومستقبل زاهر ليس فيهم، حب دائب يزيد على مرّ المزيد من عمرهما، ولا سيما يوسف لمكان رؤياه تلك التي أوّلها باجتباء وعلم وتمام النعمة، وقد نستلهمه من لام البداية التأكيد ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ مما يلمح بدوام ذلك الحب دون زوال.

فقد كان حباً يتخطى رحمة الآباء على الأطفال، ويحلّق على كل حب في كل مجال، فإنه - فقط - حب رسالي في الله، وبأمر الله، دون الحب السائر الدائر قضية الأنساب والأسباب، إلّا سبباً إلهياً يحلّق على كافة الأسباب! فهو حب رسالي لا أبوي! ذلك الحب الجذري اللائح لهما، الدائب فيهما، هو الذي يجعلهم يحسدونهما، لحدّ المكيدة في قتل الأحب منهما.

أتراه كان بإمكانه إخفاء ذلك الحب اللائح في مقاله وحاله وأفعاله، ولكي يحافظ على محبوبه، كما هو الأصلح في الحفاظ على المحبوب؟.

كلّا حيث الحب يلمح ويرشح مهما كانت الحائطة على إخفائه، ولا سيما في حِضن العائلة، فالحب المترسب يتسرب، كما الكوز يرشح بما فيه.

أترى - بعد - الضلال المبين هو ضلالٌ في الدين؟ والبيِّن من طيات محاوراتهم طول قصصهم أنهم كانوا من المؤمنين، معترفين أن أباهم من النبيين، فكيف - إذاً - بالإمكان أن ينسبوا أباهم إلى ضلال مبين في الدين؟

إنما هو الضلال عن صراط الحياة الظاهرية، والمصلحية العائلية، أن يكونا وهما صغيران، لا يقويان على أمر لصالح العائلة، يكونا أحب إلى أبينا منا بلا أي سبب، حيث الرجاحة المعنوية لهما كانت عنهم خفية، أم لائحة لا يرضون بها لأنهم وهم عصبة أحرى في زعمهم بتلك الرجالة، وهذه وتلك ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾! قد يزول بزوال الموضوع ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ ولو كان - في زعمهم - ضلالاً في الدين ما زال بزوال يوسف وبنيامين! أم تراهم - بعد - أنهم كانوا من النبيين، والحجج متصارعة في هل أنهم من المؤمنين أم من الكافرين، لولا تصريحات بطيات الآيات أو تلويحات أنهم كانوا من المؤمنين، وليسوا هم من الأسباط حتى يشملهم وحيهم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[1].

فالأسباط هم من الرسل دون الأبناء إلّا يوسف، حيث السبط فتحاً انبساط في سهولة، ويستعمل كسراً في ولد الولد لأنه انبساط من النسل، ويستعمل في كافة الأحفاد بوسيط أم وسائط: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٦٣، ١٦٤.

أُمَمًاۚ﴾[(١)] ولم يكن ولد يعقوب لا أسباطاً ولا أمماً! وهب أن قيلة النبوة المفرطة فيهم باطلة كقيلة الكفر المفرّطة والصواب هو العوان بينهما: الايمان: أو ليس المؤمن برسول إذا هتكه خرج عن الإيمان، وارتد عن كتلة المؤمنين؟ ونسبة الضلال المبين إلى النبيين مهما لم يكن ضلالاً في الدين، هي أسوأ هتك وأنحس مسّ من كرامتهم! بل هو بالمآل ضلالاً في الدين، حيث الدين يحلّق على كافة العقائد والأعمال، فلم يكن يوسف وأخوه أحب إلى أبيهم منهم إلَّا قضية الدين، والضلال لهم على أية حال خلاف العصمة، وقد كان يعقوب من المخلَصين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾[(٢)] والضلالة غواية على أية حال، والشيطان ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(٣)]!.

ولكن كل ذلك لا يثبت عليهم الكفر الصُّراح، إلَّا جهالة في الدين، ونقصاناً في اليقين، ولئن ارتدوا بذلك، فقد استغفروا الله بعد كما استغفر لهم يوسف ويعقوب، والمرتد عن فطرة لا تقبل توبته، فكيف استغفر لهم كما استغفروا هم أنفسهم، فلم يكن بذلك الارتداد الكافر، وإنما عصيان عظيم، عظيم على جهالة بشأن النبوة السامية! بزهوة القوة العصبة ودافع الحسادة.

هؤلاء الإخوة العشرة العصبة لم يتحملوا ذلك الحب المتميز ليوسف وأخيه، وحسبوه ضلالاً مبيناً في حقل الحب، دون أي سبب أم سبب بزعمهم مزعوم ليعقوب، وكما ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة ص، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٥.

لقد نزغ الشيطان بين يوسف وإخوته حيث بزغ في حلومهم استغلالاً لذلك الحقد الركين، حيث علی وغلی في مرجله وانتقل من سهله البادي إلى معضله حتى تآمروا عليه فيما بينهم لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى قلب أبيهم تقبّلاً منهم فتقلباً إليهم:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

وهذه مؤامرة ثانية في المؤتمر الذي عقدوه على ما حقدوه، والرأي المشترك هو نفي يوسف عن محضن العائلة: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1].

مهما اختلفوا في شاكلة أمرهم الإمر قتلاً أو طرحاً له أرضاً بعيدة لن يصلوا إليه ولن يصل إليهم:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ فإن فعلتموه ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ كأنه حين يغيب عن بصره يغيب عن قلبه وبصيرته، فيصبح قلبه خالياً عن حبه فارغاً إليكم، ثم ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ لتمام الحب من أبيكم، متفرغين إلى صالحكم العائلي ومحضن الحنان الأبوي دون مُعارض فيه ولا مُشاغب.

أترى بعدُ ﴿صَٰلِحِينَ﴾ يعني فيما عناه ﴿صَٰلِحِينَ﴾ بالتوبة عما أذنبوا؟ كأنه لا، حيث ﴿وَتَكُونُوا۟...﴾ جزاء ثان للأمر: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ﴾ المؤول إلى شرط: إن قتلتموه أو طرحتموه ﴿أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ وليس صلاح التوبة من نتائج الجريمة، ولا نراهم استغفروا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وإنما استغفروا توسلاً إلى أبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ...﴾[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

وكما وعدهم يوسف من قبل: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[(١)] وليس ذلك ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إلا من بُعدٍ بعيد، وبَعد أن عرفوا أنهم ليسوا بعده، بل هو قبلهم ومعهم وبعدهم عزيز آثره الله عليهم ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا...﴾[(٢)].

لا فقط لم يكونوا ليستغفروا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بل وأصروا واستكبروا استكباراً قبل تبيّن أمره، حيث قالوا لأبيهم حين قال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾[(٣)]! فأين ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾؟

ثــــم ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[(٤)] وهؤلاء عملوا السوء دون جهالة، حين يُعنى من ﴿صَٰلِحِينَ﴾ صلاح التوبة، ثم ولم يتوبوا من قريب، ولكن الله تاب عليهم لما استغفر لهم يوسف وأبوه.

ولئن عَنى ﴿صَٰلِحِينَ﴾ فيما عنى صلوحَ التوبة، كان معنًى ضمنياً لا يصلح استقلاله ولا مساواته لمعناه، وليست التوبة نتيجة الجريمة، ولا أنها تقبل في هذه الجريمة العامدة الهاتكة بكل مكيدة حتى على الله، أننا نعصيك ثم نستغفرك!

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

هذا القائل هو أعقلهم وأرحمهم بالأخ الصغير، وأحوطهم عليه، حيث

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٩١.
(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٩٤، ٩٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧.

يرتئي بما ليس فيه فوت ولا موت، وإنما نفي عن محضن العائلة لـ ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ...﴾ وإذ ليس القتل والطرح الذي مآله القتل هو العلاج الحاصر، فإلى الرأي العوان بين القتل والطرح.

إنه يبدي رأيه بكل حائطة، لأنه - فقط - واحد من العشرة، لذلك يبديه مشككاً غير قاطع، تحويلاً عما اعتزموا لعلهم يرجعون، كما تلمح له ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ وكما نراهم لم يجمعوا على رأيه إلَّا بعدما ذهبوا به: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ...﴾[(١)] وقد يعني التشكيك أصل التصميم في نفيه كأنه لا يرضاه، فإن كان ولا بد لا تقتلوه وألقوه..

فبالفعل - وقبل أن يجمعوا في أمره - هم مجمعون على أن يذهبوا به، وها هم أولاء يحتالون على أبيهم كيف يستلبونه منه.

وتعريف ﴿ٱلۡجُبِّ﴾ دون «جب» دليل أنها كانت معروفة لديهم، جب لها غيابة، هي ممر السيارة، مهما كانت جب القدس أمّاهيه.

والجُبّ، هي البئر التي لم تُطوَ، وهي الجيدة الموضع من الكلإ، وهي الكثيرة الماء البعيدة القعر، وهي التي وجدت دون أن يحفرها الناس.

وغيابة كل شيءٍ قعره ومنهبطه، أترى جب يوسف هي الكثيرة الماء البعيدة القعر فألقي في قعرها؟ وهذا أقرب إلى قتله من طرحه أرضاً حيث يغرق في قعرها دون ريب! بل هي القريبة الماء الجيدة الموضع من الكلاء، حيث يقصدها السيارة لنزح الماء، وليست مطوية سوية بالأحجار فلا يمكن المكوث في خلالها، إذا فغيابتها ليست قعرها إذ يُرى فيه ويظهر دونما غيب، فإنما غيابتها مكان يمكن المكوث في خلالها، فلا يُرى الماكث فيه، وإنما يَرى من يدلي إليها فيدنو هو من الدلو ويتدلى، دون أي خطر ولا ضرر إلَّا نفياً عن المحضن.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

هكذا نتلمح من ﴿لَا تَقْتُلُوا... يَلْتَقِطْهُ﴾ حيث القطع بسلامته هو الملتقط القاطع للمارة، فليس إلَّا في هكذا جب وغيابة.

فهنالك «اقتلوا» وهناك ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ وهنا ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ ولكنما الإلقاء فيها إلغاء عنه. وعن التقاطه إلَّا ميتاً بغرقه، أم مصدوماً مكسوراً، ولكنه لا يسطع بوحدته أمام الباقين أن يحوّل قتله إلى إبقائه مرتاحاً، فقد جمع بين الإلقاء وغيابة الجب والتقاط السيارة، حتى يجمعوا حلومهم فيحيدوا عن إلقائه إلى جعله كما يحيدون عن قتله وطرحه وكما فعلوا: ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾(١) فإنها نَظِرَةَ التقاط السيارة تناسب الجعل دون الإلقاء، وهذه حصيلة طائل الشورى وفيها عاقل، بعد ثالوث القتل والطرح والإلقاء، أن يجعلوه في غيابة الجب، والشر في طائل الشورى - إن كان فيها عاقل - يبوء إلى أقله، والخير في طائلها إلى أكثره، فأصل الشورى تخيرة لصائب الرأي، وطائلها انتقالة إلى أصوبه في الصواب، وأقله محظوراً في غير الصواب.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ تصريحة أنه ما كان يأمنهم عليه، ولا يرسله معهم إلى المراعي، والجهات الخلوية المرتادة، حباً له وخشية عليه، و﴿مَا لَكَ﴾ استجاشة لنفي هذا الخاطر الملحوظ من حيطته الدائبة عليه، ورقابته المتواصلة له.

فهم - إذاً - يلتمسون منه في حوار قاطعة طائلة - وبكل حائطة - أن يرسله معهم، وما أبعد ذلك الحنان المحتاط عما تقوله التوراة من تبذّل يعقوب يوسفه إرسالاً مع إخوته الحاسدين دون أن يطلبوا، على علمهم -

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

كما تصرح - بما رأى من رؤياه، وَيكأنه على حبه إياه يبغضه فيهدره[1] ثم البئر المطروح فيها حسب التوراة كانت فارغة من الماء، والسيارة لا شأن لها بفارغة الماء! وقد نرى إهمالات وتشويشات، في تحريفات وتهريفات في التوراة، نأتي في الهوامش بتصريحاتها مقارنة بالقرآن طوال القصة ومثل ما في سائر القرآن كما تقتضيه مجالاته.

هنا الإخوة يحتالون بكل ما لديهم من إمكانيات ليذهبوا به، راسمين مربعهم الكائِد ليستلبوه منه:

١ - ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا...﴾؟ ليس فينا خلاف أمنه، فما هو عندك، ٢ - ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ بمثلث التأكيد وفي مثلث الزمان، فكل خالج في خلدك تخيّلٌ وظِنَّة دون علة، إذا فـ ٣ - ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وكما تقتضيه حالة الطفولة، وإذا كان معنا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ فلا خوف عليه من أي مُخيف، ٤ - ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ففي ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ استعطاف برحمة أبوية تجمعهم في جامع واحد، وفي ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ استئصال لجذور المحتملات غير الآمنة، ثم في كلٍّ من نصحه الدائم وحفظه معهم تأبيدات

---

(١) كما في الإصحاح ٣٧ من تكوين التوراة «ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل ليوسف: أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك إليهم فقال له: ها أنا ذا - فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً فأرسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم فوجده رجلاً وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلاً: ماذا تطلب؟ فقال: أنا طالب إخوتي أخبرني أين يرعون؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون: لنذهب إلى دوثان فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان، فلما أبصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض: هوذا صاحب الأحلام قادم فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى هذه الآبار ونقول وحش ردي أكله فنرى ماذا يكون أحلامه؟ فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال: لا نقتله وقال لهم رأوبين: لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون عليه وأخذوه وطرحوه في البئر أما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء؟!

ثلاث، تصد كل منفذ في تأبّي أبيهم عن إرساله، اللَّهم إلَّا «إنه ليحزنني وأخاف...»: وهو رد بطريق غير مباشر:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

إنه على علمه بميدهم في يوسف وكيدهم، لا يصارح إخوته بعدم أمنهم خوفاً عن صُراح العداء فاستلابه بقوة والقضاء عليه، وهذه سياسة حفاظية متينة مكينة ألا يصارَح العدو بعدائِه كيلا يصارِح أو يزيد في عدائه هياجاً فيما اعتزم، فهي سياج عما اعتزم، وحائطة على ما اعترم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ دون أن يبيِّن سبب الحزن، ولكيلا يذهب مذهب التهريج. إنه يخافهم عليه، لمح إلى سبب له: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ رمية إلى هدفين، بيان سبب، وإرشاد إلى عاذرة لهم حين يرجعون، فإنهم - ولا بد - سوف يبحثون عن عذر، فليكن: أكله الذئب، فقد «قَرب يعقوب لهم العلة اعتلوا بها في يوسف»[1].

وهب ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ...﴾ صدق صُراح دونما ليٍّ ولا تورية، حيث إنّ كيدهم فيه، وبُعده عن أبيه، كلٌّ يسبب حزنه، ولكن ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ تلقينٌ للكذب حيث الذئب لا يأكل الإنسان وإنما يفترسه، وحتى إذا يأكله وكما يروى عن النبي ﷺ لا تلقنوا الناس فيكذبوا فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب»[2].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤١٥ ح ٢٠ عن علل الشرائع بإسناده إلى عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن بني يعقوب لما سألوا أباهم يعقوب أن يأذن ليوسف في الخروج معهم قال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يُوسُف: ١٣] فقال عليه السلام: قرب...

(٢) نفس المصدر.

أن ﴿يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ صدق في ناحية حيث الافتراس أكل، وتعليم لعاذرة، حائطة لكي لا يقتلوه ويكتفوا في أمره بأن أكله الذئب من أخرى، فقد لقنهم هذا الجواب، وتلقين الكذب حفاظاً على النفس فرض لا محالة، قضية الدوران بين واجب كبير ومحرم صغير، بل ليس محرماً على أية حال حيث الذئب يفترس ويأكل، أم أن ﴿أَخَافُ﴾ ينحو منحى خوفه عما يفعلون، ثم يفتعلون ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[1].

ولكي لا يصارح في ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قولهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يلحقه بـ ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ انصرافاً إلى أشغالكم، لا تقصيراً في الحفاظ عليه.

ولكنهم لم يرضوا بـ ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ على أية حال، حيث يمس من كرامة العُصبة في الإخوة، ورحمة الأخوّة، فرموا رميتهم الأخيرة:

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

فالغفلة عن الأخ الصغير ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ هذه خسارة في الأخوّة بين الإخوة العُصبة، فنحن - إذاً - خاسرون كل شيء، فلا نصلح لكبيرة ولا صغيرة، فلا نصلح لحياة كريمة، فإذا نغفل عن أخ لنا كريم وهو أنفس من أنفُسنا، فقد خسرنا - وبأحرى - أنفُسنا ونفائسنا، فكيف ندير - إذاً - شؤوننا وشؤون العائلة.

وذلك في الحق تهديدٌ أكيد لتهدُّم العائلة إن كان أبونا يخاف أن يأكله الذئب ونحن غافلون! فسواءٌ ألّا يأمننا عليه خيانة منّا ونكاية، أم عجزاً في حفظه، ونحن عصبة، وذلك أشد علينا وأنكى! ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: أسد الفلوات والغابات، شجعان في كل المجالات، فكيف ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

ونحن حضورٌ وكلُّنا عليه عيون! أم كيف نغفل عنه وهو أخونا وأمانة أبينا! وأمنية عائلتنا! وهكذا يستسلم الوالد الرحيم الحكيم بعد ذلك الإحراج لإخراجه عن محضنه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾[١].

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾:

وبالمآل ذهبوا به ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ بعد شتات آرائهم ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ كما ارتآه قائل منهم وهو كبيرهم، وكما تؤيده تنديده بهم في قصة الصواع ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾[٢] وإنما ارتأى أن يجعلوه في غيابة الجب حيطة عليه، ولأنهم كانوا مصممين على أمرهم الإمر وما كان له بينهم أمر إلا ما أمر! ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وهو في الغيابة ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ الإمر بشأنك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأمرهم، وهم لا يشعرون ماذا يفعلون، وتنبئهم وهم لا يشعرون أنك لأنت يوسف: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾[٣]؟ وهم لا يشعرون بذلك الوحي: ثالوث اللّاشعور للإخوة الحاقدين على يوسف الصديق[٤].

والإجماع هو العزم الحاصل عن شور، فالآن وقد ذهبوا به لتنفيذ المؤامرة النكراء، وقد جعلوه في غيابة الجب، وهيمن عليه كل بائسة يائسة،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٩.
(٤) على الأول ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] حال لأمرهم فلا يشعرون أمرهم، وعلى الثاني حال الإنباء فلا يشعرونك، وعلى الثالث حال لأوحينا، والكل مقصود صالح لأن يعني أدبياً ومعنوياً، وقد أخرج الثالث في الدر المنثور عن مجاهد وقتادة وابن عباس والثاني عن ابن جريح ورواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: لا يشعرون أنك أنت يوسف أتاه جبرئيل فأخبره بذلك.

الآن يأتيه - لأوّل مرّة - الوحي الحبيب: أنه ناج، ثم ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وحي يطمئنه عن كل نائبة ومحنة، إلى كل راحة ونعمة، وعلى حدّ المروي عن الرسول ﷺ: «لما ألقي يوسف في الجب أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: يا غلام من ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي، قال: ولِمَ؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني، قال: أتريد الخروج من هاهنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب، قال: قل اللّهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لي ذنبي وترحمني وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، فقالها فجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب، فقال النبي ﷺ: الفظوا بهؤلاء الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار[(١)].

فقد نُبيء يوسف وهو في الجب على صغره ولما يبلغ الحلم، ولكنها نبوءة دون حكم وعلم البلاغ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)] وذلك قبل أن تراوده امرأة العزيز، وبعد قوله لها ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾[(٣)] فقد طالت سنون منذ اشترائه وهو طفل قبل الرهاق[(٤)] إلى بلوغ أشده ولكي يصلح لمراودة جنسية.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٩ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ.. أقول وفي أصول الكافي بسند عن أبي عبد الله ما في معناه بزيادة» أن تصلي على محمد وآل محمد، قبل أن تجعل له من أمري... وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما كان دعاء يوسف في الجب؟ فإنا قد اختلفنا فيه؟ فقال: إن يوسف عليه السلام لما صار في الجب وأيس من الحياة قال: اللهم إن كانت الخطايا والذنوب قد أخلقت وجهي عندك فلن ترفع لي صوتاً إليك ولن تستجيب لي دعوة فإني أسألك بحق الشيخ يعقوب فارحم ضعفه واجمع بيني وبينه فقد علمت رقته علي وشوقي اليه.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٤) تفسير العياشي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان ابن سبع سنين.

هنا نودع يوسف في غيابة الجب في تصارع بين ظلماتها وأهوالها وبين نور الوحي الأمين، لنرى بماذا يرجع إخوته إلى أبيه وما هي ردة فعله:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

هؤلاء الإخوة احتالوا من قبل كل الحيل لأن يذهبوا به، والآن هم في احتيالات لتغشية أمرهم الإمر على أبيهم، وأنَّى ينجو الكاذب ويفلح، ويكاد المريب أن يقول خذوني، فقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذب، متسرعين في اصطناعه كما تسرعوا في استلاب يوسف من أبيه، فالتقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليل على التسرُّع، فقد كان أبوهم بالأمس يحذِّرهم منها وهم ينفون، ويكادون عليه يسطون ويتهكمون، إذاً فكيف يتركون يوسف وهم يستبقون؟.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ فرجوعهم عشاءً حيلة أولى، ولئلا يتطلب منهم أن يتحسسوا عنه فورهم، حيث العشاء ظلام لا يبين، وخطر أخطر من ذئب النهار، ومن ثم ﴿يَبۡكُونَ﴾ حيلة أخرى يتسترون وراءها، تبرئة لهم عما يُتهمون، حيث القاتل لا يبكي على مقتوله وهم ﴿يَبۡكُونَ﴾! ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ نداءٌ تجمعهم ويوسف في أخوّتهم من أب واحد، وتستجيش رحمة الأبوة عليهم ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ في عدوٍ، ولم يكن أخونا الطفل ليسطع سباقاً، ولا معنا رفاقاً، ثم من ينظر متاعنا ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾! ولكن ما لهم والاستباق وخطر الذئب حادق في البرية زعمَهم، وهم أكدّوا لأبيهم من قبل أكيد الحفاظ عليه، لكيلا يأكله الذئب، ثم ويوسف الطفل الذي لا يسطع مصاحبتهم في سباقهم كيف يسطع مقاتلة

السارق وقد أوّل له رؤياه من قبل ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...﴾[(١)] فكيف يصدقهم أنّه أكله الذئب؟ وهذه كلها آيات بينات لكذبهم المختلق الجاهل، دونما تفكير سداً لثغراته، وصداً عن تهماته.

ولكنهم لكي يبعِّدوا كذبهم ويقرِّبوا صدقهم، يتظاهرون بمظهر المظلومين المهضومين في قولة ماكرة: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ تؤمن لنا قولنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ على فرض المحال، و«لو» هنا، المحيلة صدقهم في تنازلهم، لها موقعها في تشكيك يعقوب لأقل تقدير، فبطبيعة الحال أنت تكذبنا حيث الشغف البالغ في حب يوسف يمنعك عن تصديقنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ وثبت لديك صدقنا، كيف وأنت متشكك فينا، أم وتتهمنا أننا كاذبون.

ولكي يثبتوا صدقهم ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ...﴾ لائح كذبه، لاختلافه عن دم الإنسان، وليس في نفس الدم أثر الافتراس، بل هو نزح، والقميص السليم غير الممزق شاهد ثالث أنه دم كذب فهم تورّطوا بفعلة واحدة في ثالوث الكذب.

صحيح أن الدم لا يوصف بالكذب، ولكنه كان مكذوباً فيه لحد كأنه تجسيد للكذب، حيث الدعوى التي علّقت به كانت في غاية الكذب، وعلى حدّ المروي عن يعقوب «اللهم لقد كان ذئباً رفيقاً حين لم يشق القميص»[(٢)] و«يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم، أكل لحمك ولم يشق قميصك»[(٣)] فما أرحمه بقميصه، وأشقاه به! ولماذا ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ دون «بقميصه»؟ لأن ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ متعلق بـ «جاؤوا» فالترتيب المعنوي «وجاؤوا بدم كذب على

(١) سورة يوسف، الآية: ٦.
(٢) نور الثقلين ٢: ٤١٧ في تفسير العياشي عن أبي جميلة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أوتي بقميص يوسف إلى يعقوب فقال: اللهم..
(٣) المصدر في المجمع وروي أنه ألقى ثوبه على وجهه وقال: يا يوسف...

قميصه» و«على» هنا تلمح أن الدم كان بظاهر القميص دون باطنه، مما يؤكد كذبهم، حيث الافتراس يدمي باطن القميص قبل ظاهره، ولا يبقي على قميصه إلَّا ممزقاً مخترقاً.

فقد أدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن شغاف القلب، حيث القلب يهوى إلى القلب، أن دعواهم كذب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فأنفسكم الحاسدة سولت لكم وزينت أمركم الإمر وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعاً، وليس مني في هذه الداهية إلَّا ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: «لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر»[1] ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ صبر جميل في الله واستعانة فيما يصبر عليه بالله، دونما شكوى إلى غير الله، ولا استعانة بغير الله.

ليس الصبر في ميزان الحق خنوعاً على الظلم وخشوعاً لدى الظالم يفعل ما يشاء، فإنه ظلم ذو بعدين، فإنما هو استقامة في القلب، وحفاظ على النظام النفسي من التبعثر، وانضباط للجمعية الداخلية من التفرق والتمزق والتعثّر، وعدم الخروج عن الاعتدال بحق الله وحق الناس، حينما تكلُّ الأسباب عن دفع النازلة.

فعدم التصبّر عند هذه النوازل، يخلِّف كل تبعثر وتعثّر، فهو نائبة فوق نائبة، ونازلة تلو نازلة، قد تربو على أصل النازلة، كمن لا يملك نفسه عند هياج النوازل فيقول في ربه ما لا يُحمد، ويفعل بعباد الله ما لا يجوز.

ثم وذلك الصبر منه جميل ومنه غير جميل، كمن يشكو بلواه إلى غير الله متفجعاً، والجميل: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٠ بإسناد عن حيان بن أبي جميلة قال سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] قال: لا شكوى...

وفي هامش نور الثقلين ٢: ٤١٧ نقلاً عن كتاب سعد السعود لابن طاوس نقله من تفسير أبي العباس بن عقدة عن عثمان بن عيسى عن المفضل عن جابر قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما الصبر الجميل؟ قال: ذاك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس.

لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) ﴿... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

فيا لله، ما أصبره على فقد يوسف، إذ لا يجابه إخوته إلا بجميل الجواب ومجمله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ فلا أمر لي معكم، وإنما هو الله، أستعينه عليكم فيما تصفون..

هذا يعقوب القرآن في صبر جميل، ولكنه في التوراة يمزق ثيابه ويضع مسحاً على حقويه قائلاً: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية مصدقاً أنه افترسه وحش رديء..(٣)

وأين الصبر لجميل في هذه الداهية على علمه بحياته تحقيقاً لتأويل رؤياه، والنوح عليه إلى الهاوية كأنه مفترس تجاهلاً عن تأويل رؤياه؟.

لحد الآن حققوا ما حسدوه، ثم وما ليوسف المحسود بعد ذلك الحقد الحقود؟ وبعد أن رأى رؤياه فأكرمه أبوه أكثر من الإخوة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

(٣) في الإصحاح ٣٨ من تكوين التوراة تلو ما مضى من قصته: «ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة اسماعيليين مقبلة جلعاد وجمالهم حاملة كتيراء وبلساناً ولادنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته -
واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب؟ -
فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم وأرسلوا الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا؟، فتحققه وقال: قميص ابني وحش ردي أكله افترس يوسف افتراساً فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية ويكى أبوه.

إنه في مرحلة ثالثة يصبح سلعة وبضاعة بثمن بخس دراهم معدودة، من إخوته أمّن ذا ممن شروه، ثم إلى مثواه المكرم، ثم المتهوّس لحريم البلاط، ومن ثم السجن لردح بعيد من الزمن، ثم العزة العزيزة، وفي ثامن المراحل ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[1] تحقيقاً حقيقاً له من رؤياه، بعدما اجتاز هذه السبع وكلها رزايا في مختلف القضايا!.

ومن هنا يسدل الستار على يعقوب والإخوة، عيادة ليوسف، وعوداً سريعاً إليه في الجب، لنرى وعد الله له في وحيه:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿سَيَّارَةٌ﴾ وهي كثيرة السير، توحي بأن الجب كانت على طريق القوافل، المعبدة، حيث يُبحث عن الماء والكلاء، وهو تأييد ثان أن الجب هي بئر الماء بين الكلاء، و﴿وَارِدَهُمْ﴾ هو قاصد الماء بينهم، الموظف لسقيهم ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾: أرسل دلوه في الجب، فإنَّ أدلى ودلى متعاكسان إدخالاً وإخراجاً، والمناسب هنا الإدخال، أم والإخراج بمناسبة البشرى: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ يبشر به السيّارة أن حصل على غلام حين نزح الماء، أم يعنيهما معاً حيث أدخل دلوه وأخرج، مهما كانت البشرى للإخراج. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ...﴾.

أترى من هم الذين أسروه وشروه، أهم إخوته؟ وقد أسدل الستار عليهم إلى السيارة! ولماذا يسرونه بضاعة وهو لهم! وهم لم يذهبوا إلى مصر حتى يشروه بثمن بخس! أم هم أسروه بضاعة والسيارة شروه؟ فكذلك الأمر! ثم كيف هم يسترونه والسيارة يشرونه بدل أن يشتروه، ثم يشروه في مصر! أم

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

هما السيارة أسروه بضاعة مخافة أن يأتي صاحبه فيأخذه، ثم شروه بثمن بخس حيث الملتقط لا يُشرى غالياً وكما يسوى في السوق الحر، ولأنه قد يأتي صاحبه فيأخذه ممن اشتراه فليبخس فيه لذلك من اشتراه، ولأنّه كانت عليه ملامح الحرية دون أية لمحة من الرقية، فلذلك كله تُشرى هذه البضاعة بثمن بخس دراهم معدودة ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾! فيا لله «قد كان يوسف بين أبويه مكرماً ثم صار عبداً حتى بيع أخس وأوكس الثمن ثم لم يمنع الله أن بلغ به حتى صار ملكاً»(١).

والبخس هو نقص الشيء على سبيل الظلم، وذلك ظلم بالغ من السيارة بحقه بعد ظلم إخوته، فإن ملامح الرقية فيه منفية، ومظاهر الحرية ثابتة، ولم يكن يوسف ليسكت - لأقل تقدير - عن أنه حرٌّ، فكيف يُشرى وهو حرٌّ، ولماذا بثمن بخس إذا هو رق؟ مظالم بعضها فوق بعض.

والدراهم هي النقود الفضية، والمعدودة هي الخفيفة حيث الثقيلة توزن ولا تُعد، وهذه قلة في قلة، قلة في أوزانها، وقلة في أعدادها، يشرى بها من لا يسامى بأغلى ثمن ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بحقه من بخسٍ وإهانة ومسٍّ من كرامة، وهذه نهاية المحنة الأولى في حياة ذلك النبي الكريم.

يتنقل من محضن العائلة، إلى الجب بأيدي أثيمة من إخوته، ثم بضاعة إلى أيدي السيارة رِقاً يشرى وأدنى من سائر الرق، ومن ثم إلى الذي اشتراه من مصر، يد طامعة فيه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤١٨ ج ٣٧ العياشي عن عبد الله بن سليمان عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قد كان...

هذه حلقة ثانية من حلقات القصة، يصل فيها يوسف إلى مصر ويُشرى بثمن بخس دراهم معدودة، ولكن الذي اشتراه يتوسم فيه كل خير على صباه، حيث الخير لائح في الوجوه الصباح، وبخاصة حين ترافقها الأخلاق الملاح.

فرغم أنه اشتراه بثمن بخس، يراه ثميناً لائحاً فيه كل بصمات الخير، متحللاً عن كل وصمات الشر، ولذلك يوصي العزيز عزيزته فيه بكل خير: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ دون أكرميه، والرق أياً كان لا يُكرم، ولا سيما في بيت العزيز ذي السلطة والجبروت، فضلاً عن أن تتصدى إكرامه سيدة البلاط، البعيدة عن جزئيات الأمور وسفاسفها، وهي هنا تتصدى إكراماً لمثواه، مكانه ومكانته، إكرام الشخصية ذي أبعاد وظِلال، دون إكرام الشخص - فقط - في مأكل ومشرب وملبس ومنام، فليكرم في ذلك البيت بقمة الإكرام، لحد كأن السيدة خادمته والسيد خادمه، فهو - إذاً - أعز من العزيز والعزيزة ولماذا؟ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ينفعنا ما نبغيه من مختلف المنافع، كأن نشريه بأغلى الأثمان، أو نستخدمه لأعلى المناصب، أم - وبأحرى - نتخذه ولداً يرثنا، إذ لم يكن لهما ولد، وهذا الغلام أحرى من يُتخذ لهما كولد.

وحق للعزيز أن يتفرس فيه تلك الفراسة العالية، إذ كان ذا جمال قمة يبهر الأبصار، ويُوله ذوي الأبصار، لطيف الحركات، مليح اللمحات، عالي الصفات، لحد تقول عنه نسوة في المدينة: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾! فضلاً عن العزيز والعزيزة.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ فالممَكَّن في بلاط العزيز: رئيس الشرط أم رئيس الوزراء أمن ذا، هذا الذي له العزة الوحيدة، غير الوهيدة، في مصر، وعلّه الملك، أم ولي عهده، والممكّن هنا، المكرم مثواه في ذلك البلاط، هو - دون هوادة - ممكنٌ في كل البلد.

هذه ظاهرة الأمر، ولكنها محنة من ناحية أخرى جارفة لا يقف لها إلَّا من رحم الله، ليس السجن إلَّا أدناها: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ فإن جوَّ البلاط بما يغشاه من استهتار وفجور، وفي إصرار امرأة العزيز، ثم نسوة في المدينة، هو جو المحنة والبلاء، إلَّا لمن رحم الله وعصم.

ذلك، ولكن التمكين المكين في الأرض، وإيتاء الحكم والعلم، يتطلّب سلوك طريق شاقة ملتوية، مليئة، بالأشلاء والدماء، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[1]! ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا... وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ حيث التأويل كان السبب الأخير لنجاته، واحتلال عرش العزة والملك ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

إخوته أرادوا عليه أمراً، والسيارة أمراً، والعزيز ثالثاً كلها في ثالوثها إمر، والله أراد أمراً ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا غالبَ على أمره ولا يسامى، مهما كان أمره يتخلل أموراً كلها إمرٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث ينظرون و﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] فيحسبون كلَّ أمر نافذاً إلا أمر الله، كأنه مغلوب على أمره! رغم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[3] وقد يعني ﴿أَمْرِهِۦ﴾ هنا أمر يوسف في ظلال أمره تعالى، فلا غالب على أمر يوسف إلا الله.

وهذه بداية تمكينه في الأرض، كوسيلة لتمكُّنه بعد ردح، ولمّا انتصب على خزائن الأرض تم ذلك التمكين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ

---

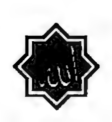
(١) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.

مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[1] فليس تمكنه في بيت العزيز هو فقط تمكينه فكما ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كان يستقبله، كذلك تمكينه المكين يستقبله.

والواو في ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ عطف على محذوف معروف وغير معروف كما حقق الله تعالى فيه من أمره، كإيتاء الحكم والعلم أمّاذا من مكانات روحية ومكرمات بجانب المكانة الزمنية.



(١) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ

وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

ظل يوسف الصديق يترعرع، وفي خدمته العزيز والعزيزة، فقد دخل عبداً خادماً، وظل سيداً مخدوماً.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

والأَشد جمع الشَّدِّ، وأقله ثلاث، شد العقل والجسم وشد الرشد الاجتماعي وهو الحكمة(١) شدات ثلاث تصلح ظرفاً صالحاً - على شروطها - لإيتاء الحكم والعلم، ولأن الأنبياء أكمل الخلق خلقاً وخُلقاً، فالمعني من أشدهم دون قرينة، هو بلوغ خمس عشرة سنة، ثم من الأشد المستوى الوسط كما في موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾(٢) ومن الأشد بعد الوسط بلوغ الأربعين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾(٣) ولولا قرينة ﴿أَرْبَعِينَ﴾ هنا ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ هناك كان الأشد فيهما كما في يوسف، ثم ولا يعقل تصبّر امرأة العزيز في غريزتها المتعطشة الطائشة بعد بلوغ الحلم إلى ثلاثين أو أربعين وقد مضى شطر عظيم من ثورة الجنس فيهما! وللحكم المؤتى والعلم درجات حسب درجات الإحسان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أترى أن حكمه هنا هو نبوءته؟

---

(١) راجع ج ٢٦ من الفرقان حول الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأحقاف: ١٥]. . تجد بحثاً فصلاً حول الأشد.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

وقد نُبِّئ قبله وهو في الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾! وقد يقرن بالنبوة والكتاب: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[(١)] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[(٢)]!.

وقد يؤتى الحكم دون نبوة ولا كتاب كما في طالوت حيث أوتي ملكاً يحكم به على شعب إسرائيل، ولكن لا نبوة إلّا ومعه حكم شرعي وقضاء مهما لم يكن معه حكم زمني، فالحكم إذاً هو تحكيم الفضائل بسلطة شرعية عامة، أو زمنية، أم قضاء خاص، وهو في يوسف يجمع الثلاث إضافة إلى ﴿عِلْمًا﴾ فليكن حكمه حكم الله في أيٍّ من الثلاث، وعلمه فيما يرتبط بالدعوة إلى الله من علم الله، فلا خطأ - إذاً - لا في حكمه ولا في علمه، فـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[(٣)] وقد يؤتاه من ارتضاه الله كما هنا في يوسف، وفي سائر الحكم لسائر النبيين أمن هم من الحاكمين كطالوت وأئمة الدين المعصومين عليهم السلام.

وقد تلمح جمعية الصفات في ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أن حكماً وعلماً يجمعان الثلاث مع بعض في يوسف الصديق عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ منحة الحكم والعلم جزاء إحسانهم وعلى حدِّ إحسانهم دونما فوضى جزاف!.

ثم كل قبيل من الإحسان يتطلَّب حكمه وعلمه وفقهه، من إحسان العقيدة والأخلاق، والسيرة والسلوك، والعلم والفهم أما ذا من درجات الإحسان، فالمؤتى حكم النبوة وعلمه هو المحسن بما يصلح لها، ولكن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

ليس كل من أحسن بالغاً ما بلغ يُؤتى ذلك الحكم، فإنه كسبي كظرف صالح، وانتصابي كما يراه الله في كل زمن حسب حاجة المرسل إليهم.

ومن حكمه الموهوب تمكينه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كما من علمه الموهوب علم تأويل الرؤيا الموعود له من قبل: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إضافة إلى سائر الحكم والعلم المعلومان من طيّات القصة، كحكم النفس إحكاماً لها وتوطيداً أمام الشهوات، وهو من الحكمة العملية والعلم بتأويل الأحاديث وهو من الحكمة النظرية، حكمٌ عليم، وعلم حكيم يجتمعان في هذا النبي العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾!.

وعلى أية حال فكل حكم بالغ وعلم سابغ هي من مخلفات النبوة، فالحكم هنا حكم الله والعلم علم الله لا جهلَ يداخلهُ ولا باطل يزاوله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ آتاه الله حكماً وعلماً، يُسراً في المعرفة الواصبة الخالصة، وهل يحصل يسر بلا عسر؟ كلا! ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(١)] لذلك نراه يبتلي بامرأة العزيز ونسوة في المدينة منذ أشدِّه، كما ابتلي بإخوته منذ رؤياه إلى جبِّه، ورطات من قبل ومن بعد وليتحقق وعد الله في هذا البين ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ومن ثم ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ. . .﴾[(٢)].

هنا تبدأ حلقة ثالثة هي أخطر الحلقات وأبلاها، وأخطر من هدر النفس والنفيس، فإنه جوٌّ تهدِّر العصمة والخلوص لله، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[(٣)]!:

---

(١) سورة الشرح، الآية: ٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ هي امرأة العزيز، وهذه صيغة سائغة عنها وعن موقفه عليه السلام دون «امرأة العزيز» فالبيت بيتها، وهو في بيتها وتحت إمرتها ومُلكتها، مما تزايدها سلطة عليه وتأمراً، وتزيده عجزاً عن المقاومة وتذمراً.

وبطبيعة الحال في يوسف، وهو في بداية الحلم وقوة بالغة في فورة الجنس وثورته شاباً في غليان الشهوة وفوران الشبق، في بلاط ملكي له كل وسائل العيش وأسباب الرياحة والترح، كان له أن يراودها، وهي بطبيعة الحال شابة جميلة تائقة في غرامها، متزينة - على جمالها - بأرقى زينها، متدللة متغنجة تتوق إليه نفسها، مشغوفة بحبه، والهة تائهة في وصاله! فائقة الجمال، عزيزة العزيز، عشيقة والهة تتوق إليها النفوس، فتانةٌ رنانة حنّانة، لا يرد رأيها ولا يثنّى أمرها، وقد ربّته كما أُمِرت في إكرام بالغ لمثواه، ولكنه - رغم كل هذه وتلك - لم ينظر إليها نظرة شهوة، ولا خلد بخلده لها لهوة ولا لحظة، فهي هي التي تراودها عن نفسه، مما يزيده إليها هوًى، والمراودة من الرَّود: التردد في طلب شيءٍ برفق ولينة، بكل سعي وإصرار وحيلة، والرائد الذي يُرسَل في التماس النُّجعة وطلب الكلاء، والمراودة عنه استلاب المراد ممن هو عنده ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ استلاباً عنه بتردد والتماس، فـ ﴿رَٰوَدتُّهُۥ . . . عَن نَّفْسِهِۦ﴾[1] استلاب نفسه عنه حتى لا يملكها وهي تملكها فتفعل ما تشاء.

فقد احتالت له مراراً وتكراراً في قولة وفعلة، مراودة إياه عن نفسه رغم تمنّعه وتمعّنه فيما تهوى، فلم تنجح لما تهوى فإن نفسه كانت مربوطة متعلقة

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٢.

بعصمة إلهية مطمئنة بالله، راضية عن الله مرضية عند الله. فكيف تراود عنه؟ اللهم إلّا ألّا يرى برهان ربه وقد رأى! ولكي تسد أمامه كل ثغرات الفرار، وكافة الأعذار ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وعلّها أبواب الفرار إلى باب الدار حيث ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ دون الأبواب، أم وإذا كانت لمخرج البيت أبواب، فلا يكمل الهدف - فقط - بإغلاقها ما دامت أبواب الأعذار باقية للفرار، إذاً فـ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ تعم كافة الأبواب، التي يُدخل منها ويخرج عنها، فلم يبق باب لعذره إلّا مغلقة، والشهوة في الشاب والشابة حاضرة، والموانع في ميزانها زائلة، ولكنها - بعد - لم تنجح في بغيتها فرأت فيه تأبيّاً وصموداً، فعندئذ صرخت عليه ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾ والأرجح أنها من أسماء الصوت العُجاب وقد تعني هاه هاه! ويلك ويلاك! مِن ذلك الصمود كالحجر الصّلد، والجبل الشامخ الصُّلب، لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، لا يتحسس لها ولا يميل إليها ولا يكلّمها في كل هذه الطائلات الغائلات، إلّا كلمة تكلمها، وتفتح كافة الأبواب التي غلقّتها:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

إنه في هذه المرحلة التائهة الحساسة لا يسايرها في معاذ ليقول: معاذ العزيز حيث أحسن مثواي، فما العزيز بعزيز أمام ربه العزيز، فإنما ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ فقط لا سواه، مهما اعترفت به العزيزة أم أنكرت، والبيت بيت الشرك والشهوة، جَوٌّ لا منفذ فيه لتوحيد الله، ولكن يوسف هو الآن كما كان وسوف يكون، نبيّاً وإلهاً في الله، متيَّماً في حب الله، لا يجلو له جمال دون جماله، ولا جلال أمام جلاله.

فهب أنها غلقت الأبواب التي كانت بيدها مفاتيحها، فهل لها أن تغلق باب قلبه إلى الله، المليء من حب الله، الخالي عما سوى الله، فلا يستمسك في هذه الهزاهز بأسباب غير الله، إلّا بعروة التوحيد: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾.

فما أبعد قلباً عن قلب، قلباً لامرأة العزيز مقلوباً غزيراً من الشهوات واللّهوات، حيث أسعرت في سرها كل لهيب إلى علانيتها، وأججت كل نار حتى استغرقت في حب فتاها، وتولهت في غرامه، واشتغلت به عن كل شيء، فهو بداية منطقها ونهايته، وهو في ضميرها حين تسكت ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ حيث دخل شغاف قلبها[١].

وقلباً ليوسف الصديق لا يحن إلَّا إلى الله، وليس فيه إلَّا حب الله، متناسياً عن حب من سواه إلَّا فيه، فكيف يعشق امرأة ذات بعل مهما كان لجمالها ومالها من جواذب.

لذلك يقول في جوابها: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ لأنه الله و﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ لا سواه ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ لا سواه، فقضية ألوهيته أن يُتقى، وقضية ربوبيته أن يُتقى، ولأنّه أحسن مثواي، وإن كان ربك العزيز أمرك أن ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ فإن ذلك أيضاً في ظلال ربوبية الله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ يكرم مثوى عبده عند من يعبد سواه، وكما أكرم موسى في بلاط فرعون.

هذا وذاك وذياك ومن ثم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولا سيما في ثالوث الظلم، أن أظلم نفسي، وأظلم العزيز في غيبه ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٢] وأظلم حق ربي وإن كان هو لا يُظلم ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٣].

---

(١) في معاني الأخبار بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام في حديث يوسف الطائل قال عليه السلام وكان يوسف من أجمل أهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال: معاذ الله إنا أهل بيت لا يزنون فغلقت الأبواب عليها وعليه وقالت: لا تخف وألقت نفسها عليه فأفلت منها هارباً إلى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فأخرجته منه فأفلت يوسف منها في ثيابه فألفيا سيدها..

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١.

فهل أخترق عصمة العبودية، وأظلم ثالوثه، لأن العزيزة يعشقني؟ كلا! ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ - ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

وما أسخفه تفسير ﴿رَبِّىٓ﴾ بالعزيز، و﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يقدمه، فكيف يرجع إلى غيره ﴿إِنَّهُ﴾؟ ومهما كان العزيز أحسن مثواه، ولكنه من إحسان الله، وليس العزيز محور الاحترام، فإن ربوبيته له بالنسبة للرب اخترام، ثم لم تكن للعزيز بالنسبة إليه أيّة ربوبية تُحترم، فإنه أوصى العزيزة بإكرام مثواه انتفاعاً منه كتاجر! ثم قد أهان مثواه روحياً بجنب الله، مهما أكرم مثواه مادياً وكما تهواه! ثم المربي أياً كان لا يسمى في منطق الموحدين رباً! ولم يكن رقاً حتى يعتبره بذلك رباً! وإنما هو رب في منطق الشرك وكما قال لأحد صاحبيه في السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[1] وقال لرسول الملك: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[2] وأما عن ربه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[3]! وفي الآية التالية ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

إن العزيزة لم تقنع بذلك الحجاج، وأصرت على ما تهوى بكل إصرار ولجاج ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ بكل ما للهمّ من معنى وكما يؤكّده حرفا التأكيد عِدَّة وعُدة، همت به لحد علقت به ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ...﴾[4] والهمّ إرادة صارمة بهمة عارمة، لولا دافع عنه أو مانع لتحقق المهتم به، وهمّ الزنا سوء وهي نفسها فحشاء، وهذه العزيزة سيدة البلاط.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

وأما يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ كما همت به ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها، فالأسباب الطبيعية، وتجاذب الجنس مع تغلُّق الأبواب، كانت كالعلة التامة لذلك الهمّ من يوسف، ولكنه ﴿رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فلم يهم بها سوءاً فضلاً عن الفحشاء! وهنا مع كل الأسى نرى زمرة من المفسرين القدامى والحدثاء، وآخرين من المحدثين ساروا في همّه عليه السلام وراء الإسرائيليات التي حتى التوراة المحرفة منها براء[1] مصورين يوسف في هذه الحلقة الخطيرة هائج العزيزة، مائج الشهوة، فالله يدفعه ببرهان منه فلا يندفع، حتى أخرج شهوته من أنامله، ويرى هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بفمه يندِّد به، ولوحات كتبت عليها آي من الذكر الحكيم تؤنِّبه وتردعه فلا يرتدع، حتى خرجت شهوته من أنامله، وإلى أمثال

(١) ففي الإصحاح ٣٩ من تكوين التوراة تصريحة ببراءته على تحرفه في جهات أخرى قائلاً بعدما مضى في قصته: «وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط.. فوكله إلى بيته ودفع إلى يده كلّ ما كان له.. ولم يكن يعرف معه إلا الخير.. وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت.. ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي فترك ثوبه في يده وهرب وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج، فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إلي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني وكان لما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمى فأخذ يوسف بيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه وكان هناك في بيت السجن، أقول: على اختلاف مواضيع منها مع ما قصه القرآن نراها لا تتهم الصديق إن هم بها، فالويل لمن اتهمه وكذب عليه ما التوراة المحرفة منه براء!.

هذه وتلك من الأسطورات النكراء المكراء بحق يوسف الصديق! وهنا شهود سبعة على براءته بين صديق وعدو وعوان بينهما:

فالله تعالى أوّل شاهد لبراءته: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بعدما صرف عنه سوء الهمِّ بها ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ﴾ ولا ريب أن هكذا همّ من أسوأ السوء وهو من غواية الشيطان وسلطانه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(١)] ومن أفضلهم المخلصون ويوسف منهم: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾!

وشاهد ثان ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ - ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ...﴾[(٢)] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[(٣)] ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٤)] وهو يعني نفسه وأخاه حين قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ...﴾.

وصاحبة القصة ثالثة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[(٥)] ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[(٦)].

والعزيز الراغب في تهمته هو الرابع: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٧)].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٣٣، ٣٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٢.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٥١.
(٧) سورة يوسف، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

والشاهد من أهلها هو الخامس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ... فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ...﴾[١].

ونسوة في المدينة هن السادس: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢] و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣].

وإبليس هو السابع حيث ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٤] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

شهود سبعة بين صديق وعدو وعوان بينهما كلهم يشهدون ببراءة ساحة الصديق من السوء والفحشاء، فلئن كان هؤلاء المختلقون يتبعون كاذباً عدواً للصديق حتى الشيطان، لكان عليهم أن يبرئوا ساحته كما قال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾! فلتُغسل كتب إسلامية عن تلكم الأسطورات التي تسوّد وجه النبوات وتعارض كافة المقاييس والله منها براء! يوسف منذ نُبئ كان يرى برهان ربه والبرهان هو آكد الأدلة وأوضحها وأثبتها، من بَرَه يبره إذا ابيض دون مخالطة، فهو هنا العصمة الإلهية، والحضور التام عند ربه، دونما غفلة ولا لحظة، ولا سيما في مواضع الزلة، و«لولا...» تحيل له عدم الرؤية، وبالنتيجة تحيل همّه بها ولبرهان الرب مراحل ثلاث ولكلٍّ درجات، علم اليقين - عين اليقين وحق اليقين، فحقه لا يخالطه أيّ شك وباطل، ولقد

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٢٦-٢٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥١.
(٤) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

رأى يوسف درجةً من حق اليقين، وكما تطلَّب إلى ربه درجة أعلى منها لما ابتلي بكيد نسوة في المدينة: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ...﴾.

في مرحلة حق اليقين تتحلى حقايق الأشياء دون ستار، منخلعة عن صورها المستعارة، وكما يروى في إجابة الصديق عن همها[١].

وإنما يحسن ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ولن يهم، تلويحاً بأن الأسباب العادية تمت في همِّه بها، حيث القمة القاضية من تجاذب الجنس حاضرة، ولكنه حيث ﴿رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ لم يهم بها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التأثير الخارق للعادة من رؤيته برهان ربه ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ لا «لنصرفه عن السوء والفحشاء» إذ لم يكن ليهم بهما وإنما السوء الهاجم عليه، والفحشاء الحادقة به المحلّقة عليه، لا بد لهما من صرف إلهي - حينما تعجز المحاولة البشرية - وقد صرف ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وهكذا يكون دور المخلصين في صرف إلهي بعصمة إلهية على طول الخط، فساحتهم من وصمات السوء والفحشاء براء، وفناؤهم من بصمات الخير والسعادة بيضاء، وفي الحق إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تُضبط وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام، ألم ينسبوا يوسف إلى أنه هم بالزنا»؟[٢].

---

(١) في تفسير روح البيان ١٢: ٢٣٦ روي عن ابن عباس كان يوسف... فقالت له: يا يوسف إنما صنعت هذا البيت المزين من أجلك فقال يوسف: يا زليخا إنما دعوتني للحرام وحسبي ما فعل بي أولاد يعقوب ألبسوني قميص الذل والحزن يا زليخا إني أخشى أن يكون هذا البيت الذي سميته بيت السرور بيت الأحزان والثبور وبقعة من بقاع جهنم فقالت: يا يوسف ما أحسن عينيك! قال: هما أول شيء يسيلان إلى الأرض من جسدي، قالت: ما أحسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله، قالت: ما أحسن شعرك قال: هو أوّل ما ينتشر من جسدي، قالت: إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنة، قالت: إن طرفي سكران من محبتك فارفع طرفك إلى حسني وجمالي، قال: صاحبك أحق بحسنك وجمالك مني، قالت هيت لك!.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤١٩ عن أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أقول: ومن المؤسف أنه روى هذه الفرية الفريقان وكما في نور الثقلين ٢: ٤٢٠ في تفسير العياشي عن محمد =

وهكذا تقول الروايات الصادقة وفق القرآن كما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام قوله في تفسير آية الهمّ: «لقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها كما همت به لكنه كان معصوماً والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه...»(١).

= ابن قيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: إن يوسف لما حل سراويله رأى مثال يعقوب عاضاً على إصبعه وهو يقول له: يوسف! قال: فهرب ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ولكني ما رأيت عورة أبي قط ولا رأى أبي عورة جدي قط ولا رأى جدي عورة أبيه قط، قال وهو عاض على إصبعه فوثب فخرج الماء من إبهام رجله، أقول: ومن أعور العورات نسبة هذه الرواية إلى صادق آل محمد عليه السلام ولا موقع هنا للتقية حيث الكتاب مصرح ببراءته عليه السلام وكما فيه عن العياشي (٤٧) عن بعض أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام قال: أي شيء يقول الناس في قول الله عز وجل: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ قلت يقولون: رأى يعقوب عاضاً على إصبعه.

وفي الدر المنثور ٤: ١٣ و١٤ روايات عدة غير مسنودة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللهم إلى علي عليه السلام أن هم بحل التكة، أو جلس منها مجلس الخائن أما ذا من سفاسف الافتراءات على الصديق العظيم، والله منها براء والرسول والأئمة النجباء عليهم السلام.

(١) نور الثقلين ٢: ٤١٩ ح ٤٢ عن عيون الأخبار في باب مجلس آخر للرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال: فما معنى قول الله عز وجل - إلى أن قال - فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: ٢٤] فقال الرضا عليه السلام... ثم أضاف: ولقد حدثني أبي عن الصادق عليه السلام أنه قال: همت بأن تفعل وهم بأن لا يفعل فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.

أقول: الجملة الأخيرة في ظاهرها لا تلائم الآية بل تعاكسها، فـ«هم ألا يفعل» بتتمة الآية ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يجعله فعل حيث رأى برهان ربه، ورؤية البرهان تدفع الهم دون أن تدفع إلى الهم، إلا أن تؤول بأنه تفسير النتيجة الحاصة عن ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فانتفى - إذاً - همه بها إلى همه ألا يفعل وهو تأويل حسن.

وأما المجلس الآخر عند المأمون عند الرضا عليه السلام في نفس الآية: فإنها همت بالمعصية وهم يوسف بقتلها إن أجبرته لعظم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها والفاحشة وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يُوسُف: ٢٤]، يعني القتل والزنا» فلا يلائم الآية حتى تأويلاً بأنه لم يهم بها كما همت بل هم بقتلها، حيث القتل في نظائر هذه الموارد لا يجوز في الشرعة الإلهية، غاية الأمر ألا يستجيبها ويفر عنها كما فر.

فبرهان ربه هو العصمة الإلهية التي يجعلها في مقام الحضور الدائب لدى الرب كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» وليست المعصية إلّا عن جهالة وغفلة، وساحة النبوة منها براء.

هذه ثالوث المحاولات الإبليسية من العزيزة[1] ليوسف، مراودة عن نفسه. ولمّا تفشل، تتربع لرابعها توسلاً إلى القوة، وأين لها وكيف تقوى على طغوى من حياته كلها تقوى:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

إنّ هياجها الحيواني المسعّر دفعها إلى إعمال القوة في إطفاء الشهوة فلحقته بعدما مسّكته وفرّ ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ مما يدل على إقبالها إليه فإدباره عنها.

فالقدّ هو الشق طولاً والقطُّ هو عرضاً، والإلفاء مباغتة اللّقاء خلاف الوجدان فإنه لقاء مقصود محاول، وسيدها - هنا - بطبيعة الحال هو العزيز، فلم يقل: سيده أو سيدهما، إبعاداً عن مزعمة أنه ربّه، وتأييداً للمعنى من أن «إنه ربي» هو الله لا سواه.

«واستبقاء» يوسف وامرأة العزيز ﴿ٱلْبَابَ﴾ الممكن فتحها بعد غلقها، أم يكسرها ويخرج نجياً، وفي ذلك الاستباق يوسف يسرع إلى الباب فراراً عن كيدها وإصرارها، وامرأة العزيز تسرع إليه لتأخذه، والى الباب لتمنع عن فتحها، ولما سبقها إلى الباب أخذت قميصه إيقافاً له عن الخروج قضاءً لحيونة الشهوة، ولكنه استمر في السباق ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ شقاً في

(١) هي راودته - غلقت الأبواب - وقالت هيت لك.

طوله ﴿وَأَلْفَيَا﴾ في مباغتة ﴿سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ وهنا انقلبت حركة المراودة والاستباق، إلى موقف التحقيق في حيرة وبهرة من هؤلاء الثلاثة.

لم يكن يوسف في هذه المفاجأة الفاجعة ليسبق العزيز والعزيزة في شيء من بيان الواقعة، لأنه خلاف الشرعة أن تُبدى خطيئة مخفية، وقضية الحال لولا الإيمان أن يبدي - ولأقل تقدير - حياطة عليه وسياجاً على مكيدة قد تُكاد، ولكنما الإيمان قيد الفتك.

ونرى البادئ هنا صاحبة الجريمة، تجد حاضر الجواب بكل مكيدة على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب، ولكنها بصورة عامة قد تحافظ فيها على عشيقها الذي شغفها حباً، علّها تصل إلى بغيتها فيه بعد ردح من الزمن فـ : ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلو أنها لم يكن لها فيه هوى لقطعت في حكمها بقتله، أفتّى مملوكاً مؤتمناً على البلاط مكرماً مثواه، يمس من كرامة صاحبة البلاط؟

ولكنها حكمت أولاً ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ الظاهر في فترة دون «أن يكون من المسجونين» اللائح في ردح بعيد من الزمن، ومن ثم تبين منها أن حكم السجن مكيدة لها عليه في حائطة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1] وهنا ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ علّه سياج على المكيدة، وأن في إبهام العقوبة نوعاً من الفرج، وإن كان في ﴿بِأَهْلِكَ﴾ هياجاً حارضاً على مؤاخذته، ولكنه من وجه آخر كان حيلة في صرفه عن مؤاخذتها، ثم لها سبيل في صرفه عن مؤاخذة يوسف تلك الصعبة الملتوية القاضية عليه.

أترى يوسف البريء هنا يتفجر فيفجر في الجواب، ويخرج عن نجد الصواب؟ كلّا! فلا يجهر إلّا بقدر من الواقع فيه براءة ساحته، دون أن يدنسها أكثر مما كانت، ولا كما كانت، حيث اختار من ثالوث مكيدتها

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٢.

أولاها: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ وأما تغليق الأبواب، وقوله ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ ومن ثم الاستباق، فلا! ف:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ...﴾:

دفاعاً عن نفسه بأقل الواجب، وليس فيه تأكيد من قسم وسواه، ولا تملق أو تعلق بأمر سواه، تدليلاً على طمأنينة أمينة في نفسه، وهكذا يكون البريء الأمين، لا يقول إلا صراح الحق، دون تشبثات بخلاف الحق.

﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أترى العزيز كان مكفوف البصر ليحتاج بيان الموقف إلى شاهد يشهد بما هو مشهود لكل ذي بصر؟ كلّا، ولكن المنظر المفاجأ ما كان ليفسح مجالاً لفحص ونظر، حيث يرى صاحب البلاط صاحبته في ذلك المنظر الرهيب مما يريب ويُهيب، فكان - ولا بد - لبراءة يوسف الصديق من خارقة تجلب النظر، فعلّه لم يسمع كلام يوسف، أم لم يحلّ محله في سمعه، فمدعية - هي عزيزته وكريمته: أنها هتكت في غيبه من فتاه، ومنكر لم يأت بشيء إلّا دعوى خالية وجاه دعواها، وطبيعة الحال قاضية أنها القاضية الماضية في دعواها، أم - ولأقل تقدير - يبقى الموقف مريباً متردداً.

هنا قد نصدّق الرواية القائلة أن الشاهد كان طفلاً في مهده وهو من أهلها[1] وقد كانت شهادة مثلثة: رضيع يشهد، وهو من أهلها، وشهادته

(١) في الدر المنثور ٤: ١٥ - أخرج أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم ومثله دون إسناد إليه ﷺ عن سعيد بن جبير وفي نور الثقلين ٣: ٤٢٢ ح ٥٣ عن القمي حدثني أبي عن بعض رجاله رفعه قال قال أبو عبد الله عليه السلام لما همت به =

مشهودة في قميصه، فطفولته وجّهت وجه العزيز إليه حائراً ذعراً ليسمع مقالته، وكونه من أهلها لا من أهله أوجب للحجة وأوثق للبراءة وأنفى للشبهة، وقدّ القميص من الدبر جعله يقطع دون ريب بكيدها وبراءته، لا سيما ويبدأه باحتمال كذب يوسف ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كسياسة حيادية في الشهادة تجعل السامع لها تائقاً إليها، ناظراً فيها، مرتاحاً بها، ثم عطفاً إلى احتمال ثان هو المُبان في المشهود له: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وبالنتيجة نظر العزيز إلى القميص قبلاً ودبراً ليحظو حظوة من الشهادة:

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

أفكان يجرؤ شاهد بالغ من أهلها أن يشهد لغير صالحها وفيها هتفه أم سقوطه عن أهليته؟!.

ولم تكن هذه الشهادة لتحتمل خلاف الواقع، أن تُحمَّل على الموقف تعبداً أم تقبلاً عرفياً، وإنما هي شهادة بمشهود حاضر غاب عن الناظر قضية الموقف الخطير الرهيب، الذاهب بلب العزيز وبصيرته فضلاً عن بصره ورؤيته، فهي شهادة مصحوبة بواقع المشهود وبسند الشهادة، والشاهد طفل ليس ليتكلم كلام الطفولة وهو يشهد شهادة الرجولة البالغة، ثم هو من أهلها، مقدماً لها ما يحتمل به نجاحها، فلم يكن بدٌّ للعزيز إلّا حكمه القاطع في عزيزته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ إدخالاً لها في جمعهن تخفيفاً عنها أنها ليست بدعاً في مكرها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾!

فأخيراً تبين في مشهد العزيز والعزيزة بشاهد من أهلها أنها هي الخائنة، وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية المترفة في الجاهلية قبل آلاف من السنين

= - إلى أن قال في تفسير الآية - فألهم الله عَزَّوَجَلَّ يوسف أن قال للملك سل هذا الصبي في المهد فإنه سيشهد أنها راودتني عن نفسي.. فأنطق الله الصبي في المهد ليوسف..

- كما هي اليوم أرقى - تبدو رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية مع تميّل إلى كتمان التميّع عن المجتمع، وأنّى منها الكتمان وقد تسرب الخبر وشارع في سراع إلى نساءٍ في المدينة!.

وترى كيف ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ومع ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]؟ إنه عظيم وجاه كيد الرجال، ولكنهما معاً ضعيفان بجانب كيد الشيطان، ثم العظيم عند الناس أضعف من الضعيف عند الله، ثم وعظم الكيد منهن من قالة العزيز، ولا يرد عليه القرآن لعظمه نسبة إلى الرجال، لا على أية حال!

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

هل الحاكم هنا بعد الشهادة هو الشاهد؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ دون حاكم لا يناسبه، ثم الحكم في مثل هذا الموقف ليس إلّا عزيزه الكبير، النافذ قوله في فتاه والعزيزة! فهو إذاً ليس إلّا العزيز.

يبدأ بيوسف المنتصر المحكوم له في المشهد كملتمس منه، ألّا يذيع ويشيع الكارثة: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الذي حصل، ولكنه لا يكفي كاتماً ما دامت العزيزة أسيرة سعار الشهوة، وقد تتكرر منها المراودة فتفشو، أم تتسابق على لسانها في فلتاتها، أم تظهر على وجهها في لفتاتها فتشيع، فلذلك يثني الوصية بعده إليها ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ وهل كانت مؤمنة بالله لتستغفره عن ذنب، أم كان هو مؤمناً ليأمرها به؟ وطبيعة البلاط وجوّه التميع واللّامبالاة حتى في المسلمين فضلاً عن بلاط الفراعنة المشركين!.

أم أمرها أن تستغفر العزيز نفسه لذنبها؟ وماذا يفيده وكيدها عظيم! ولو كان في الحق ذنباً عندهما لكانت هي البادئة في استغفاره قبل أمره!.

علّه بمناسبة الموقف هو طلب الغفر الستر على ذنبها، وهو ما يستوخم

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

عقباه، أن تحاول في ستره والحفاظ عليه كما تستطيع حتى لا يذيع، أم بمناسبة ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ يطلب إليها أن تصلح حالها فلا تراوده؟ وعلّهما معاً معنيّان، وفي مناسبة الموقف هما سيان.

ولماذا ﴿ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ بدل «الخاطئات» علّه لتعميم أكثر وتعمية لخطائها ضمن خطايا الآخرين رجالاً ونساء، أم إنهم الطبقة الأرستقراطية من رجال البلاط ونسائه حيث تعمهما هذه الأخطاء، ثم وفي ﴿ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ تلويحة أخرى أنها كانت مستمرة في مراودتها في سترة ملحة، حيث كان يتحسسها منها ولا يصارحها بشيءٍ إلَّا هذه المرة المريرة المفاجأة، كما وقالةُ النسوة: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[1] بالصيغة المضارعة دون: «راودتها» تدل على ذلك الاستمرار المكّار الجبار، فهو ضمن ما يحكم عليها بالخطاء يحكم لها أنها ليست بدعاً في الأخطاء التي هي طبيعة الجو في البلاط، ولذلك نراها تصرح بمراودتها أمام نسوة في المدينة ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾... دونما تخوف من ذياع الخبر وضياعها في جوّ البلاط، فإنما كانت تتستر وتتصبر تفتشاً عن مجال لائق مقبول لمراودتها حتى لا يقال ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾: الرق - مما يدل على خساستها، متنزلة عن خصاصتها وعلياها!.

وهنا يسدل الستار على مشهد المراودة، ولكنه لم يؤنّبها أو يعاقبها، أم - ولأقل تقدير - يفصل بينهما، فتمضي الأمور في طريقها، مما يدل على نقصان الغيرة أو زوالها من جو البلاط، وهكذا تمضي الأمور في القصور، في كل تقصير وقصور، ذلك وإلى أن تسرّبت القصة إلى نسوة في المدينة:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

هنا لأول مرة نعرف رسمياً صُراحاً أن المرأة هي امرأة العزيز، والذي اشترى يوسف من مصر هو العزيز، فالقرآن يكتفي في ذكر الأشخاص من سماتهم كما يقتضيه الموقف، دون تهدُّر في ذكرها تطويلاً بلا طائل، فهنالك «الذي اشترى وامرأته» وهناك ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وهنا، ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ ومن ثم ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ. . .﴾ وقد نتبينَّ بعد أنه علّه هو العزيز أم سواه.

ولماذا ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ دون «قالت»؟ ألأنها اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي؟ وتأنيثه على أية حال حقيقي! أو لأن تقديم الفعل يسمح لإسقاط علامة التأنيث كسقوط علامة التثنية والجمع؟ وهذا قياس خلاف القياس الأدبي، أن المؤنث الحقيقي فعله أو صفته مؤنث على أية حال! إلّا أن يقال إن أدب القرآن هو المقياس لكل قياس، فتذكير فعل المؤنث الحقيقي قبله هنا يؤخذ قياساً مطرداً في أضرابه، دون إصغاء إلى سائر الأدب!.

أم أضف إلى ذلك المحتمل أن قالة نسوة هنا تجشُّماً على عزيزة البلاط هي قولة الرجولة، فناسبهن ضمير الرجال، وكما يأتي ضمير العاقل لغير العاقل بمناسبة فعل العاقل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]: الأرض والقمر والشمس، حيث السباحة العاقلة دون غرق ولا اصطدام هي فعلة العاقل.

وعلى أية حال ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ. . .﴾ وطبعاً هن نسوة معروفات بإمكانهن تلك الرجولة في قالة على العزيزة، وطبيعة الحال فيهن التحسُّد عليها، فلا تحسُد نساء الطبقة السافلة الجائعة عزيزة البلاط، ولا يخلد بخلدهن تلك المحاسدة، فهن - إذاً - سيدات في المدينة عزيزات راعنات مثلها متهوّسات متغنجات متولهات والهات للشهوات واللهوات، يسمحن لأنفسهن تعيير صاحبة البلاط.

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.

وكيف تسربت القصة إليهن؟ أنها ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ دون «راودت»؟ فلأنهن عشيرات العزيزة ورفيقاتها، فالمخالطة المراودة بينهن تجعلهن يتفرسن تلك المراودة المستمرة ولا سيما تلك المرة الجاهرة التي تسربت - بطبيعة الحال - إليهن، من فلتات لسانها وصفحات وجهها أمّا ذا من لفتات وفلتات.

هن يعبن العزيزة كيف ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ ولما يرينَّ يوسف إلّا رواية، وأين رواية من دراية؟ والبيان من العيان؟ وأين هي والفتى المملوك؟ وبطبيعة الحال إذا كان صاحب جمال ليس بالذي يفوق جمال الفتيان في جوِّ البلاط، فكيف تعشق العزيزة فتاها ولحد ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾؟

اختلت أحوالها القلبية كما القالبية! فقد شق حُبّه شغاف قلبها حتى وصل إلى فؤادها، متفئداً بنيران العشق، حارقاً كلا القلب والقالب!..

والحب الشغف هو أبلغ الحب، فهنا العشق الحب المفرط، وهناك السكر والهيمان، وهنالك الشغف وهو غشاء القلب، فقد يعني أن حبه تغلغل إليها حتى أصاب شغافها وهو غشاء قلبها، فأصبحت مسلوبة الشغاف، أم إن شغافها أحاط حبه وأحاطه حبه فلم يبق في قلبها إلّا حبه، فلا تهوى إلّا إياه، ولا ترى إلّا رؤياه، ولا تنظر إلّا مرآه، وكأنها أصبحت كلها إياه، حيث حجب عنها كل شيءٍ، كأنها لا تملك لنفسها إرادة إلّا مراودته، ولا تحب إلا رؤيته، إذ «قد حجبها حبُّه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف والشغاف هو حجاب القلب»[1] حب قاتل لا يعرف صاحبه إلّا محبوبه، فإنه اللازق بالقلب، اللازم معه! ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حيث تُبين هي كلَّ ذلك وهو لا يُبين بل لا يبين!.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٢٣ ح ٥٧ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ [يوسف: ٣٠] يقول: قد حجبها...».

فهبها تحب فتاها شذوذاً في الحب، فلماذا تُبين هي، وأما هو فلا يكاد يَبين، ترغب إليها وهو لا يرغَب، لحدّ التسابق وقد قدت قميصه من دبر وشهد شاهد من أهلها ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث ظلت تراوده فضلت كذلك المبين! وضابطة المراودة الجنسية أن الرجل يراود المرأة التي هي بمبلغه، وتلك المراودة فيها تخلفات عدة، ١ - أنها تراود، ٢ - وباستمرار، ٣ - فتاها المملوك لسيدها، ٤ - وقد شغفها حباً، فهي - إذاً - مراودة تربو في مربعها على سائر المراودة، مما تزيدها قحة على قحة، فتصبح فعلتها في قمة الوقاحة.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾:

وبالمآل ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ كما سمعن مكرها، وكيف يصبح بيان الواقع مكراً وهي معترفة بأصل المراودة، وليس الاغتياب مكراً إلّا التهمة؟

علّه «مكرهن» من جهة تضخيم القحة بغياً منهن لها، حَسداً وابتغاء فضحها في المدينة، والتذرّع به إلى مواجهة يوسف لكي يحظون به حظوها، وهي ترى مراودته طبيعة الحال في ذلك الجمال، وكما أثبتت لهن حتى اعترفن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا...﴾!

﴿سَمِعَتْ... أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ...﴾ كلهن دون إبقاء، مما يدل على أنهن نسوة خصوص كانت تعرفهن وتتعارف معهن، ﴿سَمِعَتْ... وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا...﴾ وترى ما هو ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ وما هي الصلة بينه وبين ﴿سِكِّينًا﴾؟ المتكأ هو ما يتكأ عليه من كرسي أو نَمرق، متعوّد عليه في بيوت المترفين تلك الزمن، والإعتاد دليل أنه متكأٌ خاص، دون الحاضر في محاله على أية حال، إذ كن من نساء الطبقة الراقية المسامتة للعزيز، فهنّ اللواتي يُدعين إلى

مآدب لكل الآمرب المترفة في القصور، ويؤخذن بتلك الوسائل المتميزة، يأكلن ويتفكهن وهن متكئات على الوسائد والحشايا والنمارق كعادة الشرق في تلك الزمن.

ومهما صح عناية الأترج من المتكأ، إضافة إلى ما يتكأ، فهنا لا تصح، فإن ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ ظاهرها الوحدة، وكيف تكفي لهن أترجة واحدة! ومن قبل «أعتدت» لمحة أن ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ ما كان حاضراً، وحضور الأترج وسائر الفاكهة في بيوت المترفين أمر متعوّد لا يحتاج إلى إعداد، ف ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ بوحدته يلمح لمجلس واحد كله متكأ، وطبعاً للأكل والشرب والمحادثة، فيكفي بوحدته دلالة على حضور أنواع الآمكل والفواكه.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا. . .﴾ واستعمال السكاكين في الأكل في تلك الزمن البعيدة، يصور المدى البعيد، عن الترف والحضارة المادية، . .

فبيناهن منشغلات بتقطيع اللحوم والحلويات والفواكه، تمكر مكرها إذ تفاجئهن بيوسف مباغتة دون سابقة إعلام: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

ولماذا ﴿ٱخْرُجْ﴾ بديل «أدخل» علّه لأنه كان منزوياً في زاوية أو غرفة تخوفاً عن استمرار المراودة، أم وكيد النسوة المدعوات، أم إنها أخفته في مخدع داخل المأدبة المتكأ ف ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فخرج بطبيعة الحال، إذ ما كان يملك تأبّياً وهو في ملكتها وتحت سلطتها وسيطرتها، أم لو لم يخرج لأخرجناه معها وأنّى له التأبّي عن خروجه في هذه المعركة الصاخبة، وهلّا خافت عليه منهن أن يفتنهن كما هي، فيشاركنه فيما تشتهي؟ لأنها مولاه وقد تملكه، فلا يدعه يهوي إلى هوّاتهن، وهي تعلم أنه لا يصبو إليهن وقد عصم نفسه منها وهي أجملهن، ثم لا تسطع أن تقضي على كيدهن إلّا أن يرينه كما رأت فيغيرن من كيدهن اعترافاً بحقها فيه وقد فعلت.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾:

ولماذا لا يكبرنه وقد أعطي حسناً منقطع النظير وكما يروى عن البشير النذير «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»[١]!

﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عما كن يزعمن أنه - فقط - فتاها المملوك، أم وأي فتّى جميل، ولكنه منقطع النظير في قبيل البشر، لذلك ﴿أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لدهشة مفاجئة غير منتظرة، ولقد كان ذلك الإكبار لحدٍّ أصبحن في أنفسهن صاغرات مائرات لحدّ فقدن بالمرة شعورهن وإحساسهن، فجذبن أعينهن إليه عما يقطعن من أكل وفاكهة، فقطعن أيديهن، فإن كانت العزيزة شغفها حباً لحد تلك المراودة في مدة طائلة فهن قد أصبحن أشغف منها في أوّل وهلة، فقالت لهن العزيزة: «أنتن من ساعة واحدة هكذا صنعتن فكيف أصنع أنا؟»[٢]! ومن خلفيّات الإكبار الأنثوي أمام جمال رائع منقطع النظير - الحيض، وكما تعنيه لغة الإكبار أحياناً: أكبرت المرأة إذا حاضت، فسواء أحاضت لكبر في عمرها كبداية اغتلامها، أم لإكبار فيما ترغب إليه من شهوة فائقة وقد تُمني، حينذاك، فقد تعني ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ فيما تعنيه: حضن وأمنين، مناسبة لأدب اللفظ والمعنى.

ومن خلفيات ذلك الإكبار أن ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في تصاغر قوالبهن كما في قلوبهن، حيث أثر إكبارهن قلباً وقالباً، لحد أخطأن الفاكهة وسائر

(١) الدر المنثور ٤: ١٧ - أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أنس عن النبي ﷺ قال: . . . وفي المجمع عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية، رأيت رجلاً صورته صورة القمر ليلة البدر قلت: يا جبرئيل من هذا! قال: هذا أخوك يوسف.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٦ وأخرج ابن أبي حاتم من طريق دريد بن مجاشع عن بعض أشياخه قال قالت للقيم أدخله عليهن وألبسه ثياباً بيضاً فإن الجميل أحسن ما يكون في البياض فأدخله عليهن وهن يحرزن ما في أيديهن فلما رأينه حرزن أيديهن وهن لا يشعرن من النظر إليه فنظرن إليه مقبلاً ثم أومأت إليه أن ارجع فنظرن إليه مدبراً وهن يحرزن أيديهن بالسكاكين لا يشعرن بالوجع من نظرهن إليه فلما خرج نظرن إلى أيديهن وجاء الوجع فجعلن يولولن وقالت لهن: أنتن. . .

المأكول إلى أيديهن، حيث قطعنها فاقدات الشعور والأحاسيس، اللهم إلّا إحساسهن ليوسف لا سواه، دون أن يدركن إلّا إياه.

وهذه سنة سارية في الإنسان، أن الروح إذا انشغل عن البدن تماماً فلا يحسّ ما يصاب في البدن، سواء أكان انشغالاً في الله فأحرى وأتم، أم انشغالاً في غير الله وكما حصل في نسوة في المدينة.

فلقد كان ذلك الإكبار لحد فقدان الشعور المدبر للبدن، المدرك لمصابه، وليس «قطعن» تعني جرحن، والاختلاف بينهما فادح، وهل كن يجرحن الطعام والفاكهة حتى يستبدلن أيديهن عنهما؟ فإنما تقطيع بديل تقطيع، وصيغة التفعيل هي للتكثير، كثرة في عدد عددَ أيديهن، وأخرى في قَدَد حيث قددن وشققن أجزاء من أيديهن كما تقطع الفاكهة، وهن لم يشعرن حين قطعن حتى هنيئة رجعن إلى ما كُنَّ فرأين أيديهن مقطعة.

﴿وَقَطَّعْنَ... وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا...﴾! وهي كلمة تنزيه لله، اندهاشاً من خلق الله، فهن مهما كن مشركات في عبادة الله، ولكنهن في نفس الوقت موحدات في خالقية الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾؟.

ففي حسن البشر حدٌّ تعرفه نساء الطبقة العليا، المترفة بجمال الرجال، فإذ لم يجدن مثله فيما رأينه، إذ فـ ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أياً كان ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ ليس كسائر الملك على حسنهم وجمالهم وكمالهم بل هو بينهم ﴿كَرِيمٌ﴾ واسعٌ في الملكية جمالاً وكمالاً، خلقاً وخُلقاً، صورة وسيرة، فلو كان بشراً لرأينا مثله، أم انجذب إلى نسوة جميلات متزينات بأعلى الزّين، متزيّنات بأرقى الأزياء، فلا خلقه يشبه بشراً ولا خُلقه، إذاً فـ ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

أترى أنهن رأين ملكاً كريماً حتى ظنَنَّه ملكاً أو مثّلنه بملك؟ كلّا! ولكن

السيرة منذ القديم جرت على أن صورة الملك أفضل الصور كما وسيرته أحسن السير، فضلاً وحسناً فوق التصور، فيمثل به كل حَسَن لا يقدر بقدر، وهو منقطع النظير في قبيل البشر! وهكذا قدرن في يوسف ما هذا بشر إذ لا يرين فيه انجذاباً إلى أنثى البشر وهن وهي في حسنهن القمة، وفي دلالهن وغنجهن ما لا تغمض عنه عين بشر! لذلك ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

ولكن الحق في ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ألا يُطمع فيه طمع الجنس، وليكرم إكراماً فوق الإنس، دون تهمة وقحة وفي رغبة الجنس، فكيف تكون الحالة الملكية عاذرة لامرأة العزيز؟

الحق إنه مبالغة منهن في جمال الصورة وكمال السيرة والسريرة، مما يزيد النساء رغبة فيه وشغفاً إليه، لذلك نراها تعتذر به وهن يقبلن العاذرة، وإلّا لانقلب سناد العذر ضده، وقلّب الأمر عليها أشدَّه.

وترى أن تقريرهن في ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ولزامه أن المَلَك أفضل من البشر، هلّا يعارض ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١] فلا أحسن منه في تقويم مهما كان له مثيل في تقويم ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٢] حيث القليل منهم له مثيل؟

ولكن هذا تصريح دون معارض وذلك - على أكثر تقدير - تقرير، فليقدر بقدره غير المعارض للتصريح، وعلّه أن الحالة الفعلية الدائبة لملك كريم أفضل منها لبشر، مهما كان الإنسان في استعداده وفاعليته تحصل له فعلية هي من الملك أكثر بكثير، وكما في الرسول الأقدس ﷺ حيث فاق بجسمه على جبرئيل ليلة معراجه، فضلاً عن روحه! فلا تثبت الآية أن الملائكة أفضل من الإنسان، اللهم إلّا في عرف عام قياساً إلى العوام.

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

فامرأة العزيز تخلق ذلك الجو العجيب الرهيب كيداً بكيدهن، وجواباً مجسداً عن قولهن ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ...﴾.

فلقد كان هذا منهن في كيدها جواباً عن كيدهن حاضراً، فانتصرت في المعركة إذ ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ ذلكن الملك الكريم الذي تقطّع بمجرد رؤيته الأيدي، هوذا ﴿ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ فلا تلمن إلّا أنفسكن حيث بهرت وانقهرت هكذا في لقاء واحد ولأوّل مرة، أفلا أراوده أنا المسكينة وقد عاشرته طول سنين حتى إذا بلغ أشده:

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾:

في ذلك الموقف القاهر والمشهد الظاهر الشاهر تجد مجالاً للاعتراف بالمراودة مفتخرة بها، متجهة فيها بعد تجسد الجواب عن مكرهن: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ حيث بهرني كما بهركن ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ معانياً فيه تحرزاً عما يعاينه، وهو في الحق استعصام بالعصمة الإلهية وهي برهان ربه، بعد الاستعصام بكل الطاقات البشرية.

وليست هي الآن لتكتفي بهذه وتلك، إلّا أن تنهيها بثالث الثالوث بتهديد له بالغ، حيث تظهر سيطرتها عليه أمامهن بتبجّح المرأة في ذلك الوسط دون اختجال، فلا ترى بأساً من التجاهر بنزواتها الأنثوية مكشوفة، وبكل افتخار في معرض النساء: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فهي في بداية الفضيحة أمام العزيز تُردِّد الأمر في غير تأكيد بين ﴿أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ طالبة منه أحد الأمرين، وهنا تؤكد بنفسها عليه الأمرين في تأكيدين ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ كأنها هي الآمرة والعزيز يطبّق أمرها كما تريد.

أفتاي هذا الذي ربّيته وأكرمته يستعصي أمري وهو من المكابرين، فليسجن إذاً وليكونن من الصاغرين، لكيلا يكابرني بعد فيما آمره.

وإلى ذلك الحد الحديد الشديد تصل القحة في البلاط وقصور المترفين، ولا سيما في الوقت الذي تجد صاحبة البلاط صاحباتها في سعار أكثر منها فما يصنع - إذاً - يوسف الصديق:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾:

تحاشى يوسف هنا أن يجاوبها والنسوة، وانصرف إلى ربه ملتمساً داعياً أن يصرف عنه كيدهن، ففي دوران أمره بين أن يصبو إليهن أو أن يسجن ويكون من الصاغرين، هو يستحب السجن دون صبوٍ ولا صغار:

﴿رَبِّ﴾ الذي ربيتني وخلصتني حتى الآن من كل سوءٍ وفحشاء ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾ فذلك سجن للبدن حفاظاً على حرية الروح في عبوديته، وهذا سجن للروح ورقية للهوى وفيه حظوة الجنس وحرية الشهوات بضروبها، ولكني رجل الروح قبل الجسم، فما الجسم إلّا ليحمل الروح في صالحه.

أتراه دعى على نفسه بالسجن وهو عار أن سبّبه التهمة، ولا سبيل إليه إلّا هيه؟ كلا! وإنما هو بيان حال أن لو انحصر أمري بين واقع العار وتهمته فالسجن التهمة أحب إلي فراراً عن واقع العار!.

إذاً فلماذا لم يطلب إلى ربه صرف كيدهن عنه بلا أن يسجن، صرفاً للمحظورين و﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟

ذلك، وعلّه استسلام للرب وابتعاد عن المحظور حتى إن قدّر أن يُسجن، ومحور الدعوة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ. . .﴾ ولو بالسجن، ولم

يستجب ربه إلّا في ذلك الصرف: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ...﴾ لا أن قدّر سجنه وصرف الكيد عنه!.

وكيف يحتاج يوسف - بعدما رأى برهان ربه فلم يهم بالعزيزة - أن يصرف ربه عنه كيدهن، وفي برهان الرب وهو العصمة كفاية هنا كما هناك؟

ذلك لأن العصمة والقوة القدسية المفاضة على يوسف، ليست بالتي هو يملكها، دونما حاجة بعد إلى عناية إلهية متواصلة: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1]! ثم البلية هنا قد زادت بمكايدات نسوة في المدينة، وتهديدات صاحبة البلاط، فقد دعونه إلى ما دعته إليه ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ مما زاد في الطنبور نغمة أخرى، وتفاقم الأمر مرة أخرى أكثر بكثير من الأولى.

فإن كانت رؤيته برهان ربه هناك تصده أن يهم بها، وهي فعله مهما كان البرهان من ربه، ولكنه هنا - وقد علت النبرة وازدحمت النسوة في المكيدة - هو بحاجة إلى برهان أقوى، وصرف من الله ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ مكيدة لا يقوى عليها إلّا الله حيث تكِلُّ كُلُّ القُوى، وتختل الموازين كلها، اللهم إلا صرفاً من الله.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى﴾... لا «تصرفني عنهن» إذ لم يكن ليهواهن، وإنما هن اللاتي يكدنه لحد يكاد يصبو إليهن.

والصبو هو تميّل صبياني عن جهل وتفلّت عقل، وصبا يصبو صبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، فإن المكائد الأنثوية تصل لحد يطيّر بها العقل وينوبه الجهل ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وهو القائل: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[2] فهو يستدعي من ربه في

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

ذلك الموقف الهَرِج المَرِج أن يخصه برحمة خاصة تصرف عنه كيدهن ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دعاءَه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ ثم لم يمنع ويردع عن سجنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للدعاء ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ما يصلح الداعي، وقد كان يكفيه هنا أن يصرف عنه كيدهن وإن ببلية السجن، وهي في نفس الوقت من ألطافه الخفية، حيث كان ذريعة لاستئصال التهم عنه على طول الخط، واستقطابه لأن يجعل على خزائن الأرض، والسجن - فقط - طريق لهما قاطعة! ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ولكن صرفه شيء، وسجنه المفصول عنه بـ «ثم» شيء آخر، ويستمر صرفه في طياته.

وكيف ينقم بسجنه الذي ارتضاه ابتعاداً عن صبوه إليهن ولأمير المؤمنين علي عليه السلام به أسوة إذ قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ...﴾[1].

وكيف لا يرتضي السجن إن كان ولا بد - لصرف كيدهن عنه، وقد تعلقن به جميعاً ترأسهن العزيزة كما تصرح «مما يدعونني إليه - وكيدهن» دون «ما تدعوني إليه وكيدها» فهن جميعاً مشتركات في الدعوة والمكيدة سواء بالقيلات واللفتات، أو الحركات والتغنّجات أو الاستباقات أماذا من دعوات مكيدات[2].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٢٣ ح ٥٨ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأمر أن ينادى الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه قال: معاشر الناس! إنه بلغني عنكم كذا وكذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] قالوا: ومن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: أولهم إبراهيم عليه السلام - إلى أن قال - ولي بيوسف أسوة إذ قال: رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه، فإن قلتم إن يوسف دعى ربه وسأله السجن بسخط ربه فقد كفرتم، وإن قلتم إنه أراد بذلك لئلا يسخط ربه عليه واختار السجن فالوصي أعذر.

(٢) في تفسير القمي في حديث جمعها النسوة وتقطيعهن أيديهن قال: فما أمسى يوسف عليه السلام =

ففي هذه الغائرة الحائرة المائرة لا مناص له ولا خلاص إلّا أن يستنجد ربه بمزيد من رحمة العصمة أن يصرف عنه كيدهن كيلا يقع في حبائلهن خيفة أن يضعف أمام الإغراء، ويتضاعف عما كان من امرأة العزيز في ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ . . .﴾.

وها هي دعوة الإنسان العارف بحدِّه، القاصر في مدّه وشده، الذي لا يغتر بعصمته، فيريد مزيداً من عناية ربه وحياطته بحيازته ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ. . .﴾ لا أن يسجن بالفعل، حيث التراخي بين ذلك المشهد العارم وبين سجنه قائم كما تلمحه ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم. . .﴾.

وهكذا يجتاز الصديق محنته العارمة في هذه الحلقة الثالثة، بعد غيابت الجب وبعد العزيزة، ثم تبدأ الحلقة الرابعة وهي سجنه حتى حين.



= في ذلك اليوم حتى بعث كلّ امرأة رأته تدعوه إلى نفسها فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ. . .﴾ [يُوسُف: ٣٣].

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (٤٢)﴾

هنا يوسف السجين يجد مجالاً لائقاً وجواً فائقاً للدعوة إلى التوحيد حين يرى صاحبي السجن بحاجة إلى تأويله، وهما يريانه من المحسنين،

فهل سجن إلَّا قضية الإيمان، فليدع إلى الإيمان أياً كان، وليس السجن لأهل الله سجناً لحرية الدعوة، فإنما هو استلاب لحرية الجسم حلّاً وترحالاً، وأما الروح فقد يصبح بالسجن أروح، وتبرز شفافيته ولباقته أريح وأنجح!.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾:

فـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا تلمح إلى فصل غير قريب بين ذلك المشهد وسجنه، والبداء ظهور رأي خلاف ما كان، والآيات هي الدالات على براءة يوسف، من براءته الذاتية المشهودة في عشرته، وأن العزيزة راودته وقدّت قميصه من دبر، وكما شهد شاهد من أهلها واعترف العزيز بكيدها، وصرحت العزيزة بميدها في مشهد النسوة، أمّا هيه[1].

وهذه كلها آيات قاطعة لبراءته وقحتها، مما يجعله يكرم أكثر مما كان، فضلاً عن السجن حيث فيه يهان.

ولكنما الحق الواقع شيء، والمصلحية في الأوساط الراقية والمترفة شيء آخر، يفدون بكل حق ناصع حفاظاً على مصلحية.

فلقد شاعت قصة المراودة في أوساط المدينة ولاكتها الألسن وتلقتها في الأوساط الشعبية، واستطارت - بطبيعة الحال - أكثر مما كانت، كما هي السنة في كل حادثة تدخل قالتها بين الجماهير، فأصبحت حديث اليوم، وتزداد شياعاً فضياعاً للبلد يوماً بعد يوم، مما تجعل قحة العزيزة وفضيحتها سنة تقتدى في كل الأوساط، فإن ذلك الحسن الذي أولَه سَيدةَ البلاط

(١) نور الثقلين ٣: ٤٢٤ ج ٦٠ القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: والآيات شهادة الصبي والقميص الممزق من دبر واستباقهما الباب حتى سمع مجاذبتها إياه على الباب فلما عصاها لم تزل مولعة بزوجها حتى حبسه.

وأقرانها من السيدات، من طبعه ألّا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى وفوضى.

لذلك ﴿بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ بدا للعزيز حفاظاً على سمعة البلاط وحرمته وحريمه، وبدا للعزيزة وقد كانت تهدده من قبل ﴿لَيُسۡجَنَنَّ...﴾ فبعد أن تصبّرت ردحاً من الزمن واستمرت فيما حاولت فشلّت وفَشِلت فأصرت على العزيز أن يسجنه بعدما احتالت في تلبيس الأمر عليه كما يلوح من ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾[1] وما رده الملك عليهن: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ وقولهن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ وأخيراً تصريحة ثانية من العزيزة: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

فلولا تلبيسها أمره على العزيز لم يكن لقولها الآن: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ...﴾ مجال، وقد حصحص من قبل في مشهد النسوة إذ قطعن أيديهن، مما يدل على أنها كادت واحتالت في تعمية الأمر على العزيز لحد صمم على سجنه، أم إن المصلحية والتعمية هما الباعثان على أن ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ وتراهم من هم غير العزيز والعزيزة؟ علّهم هما ونسوة في المدينة وسائر أصحاب البلاط، مهما يرأسهم العزيز وترأسه العزيزة، بدا لهم كلهم من بعدما رأو الآيات.

وعلّ ﴿حِينَ﴾ هو حين التناسي عن جريمتها، وحين النسيان عنه، وحين استتباب أمر البلاط رجوعاً إلى ما كان قبل المراودة، أم وحين ظهور الأمر بعد إخفائه.

وكأن فاعل ﴿بَدَا لَهُم﴾ محذوف حيث ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ فعل لا يصلح فاعلاً

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥١.

ولا مفعولاً، فالفاعل «أمر ورأى غير ما كان» بموجبه ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ سجن مؤكد في بُعدين، محدد لا يعلم إلَّا أنه غير مؤبد، فحتى تُحفظ سمعة البيوتات المستهترة، وتسمع كلمة عزيزة البلاط، حين يعجز رجالاتها عن صيانتها، يبدو لهم أن يسجن فتى بريء، كلُّ جريمته براءته ونزاهته، وأنه لم يستجب نزوة الشهوة للعزيزة، أن لو كان يستجيب لكان أعز من العزيز! وهذه شيمة شنيعة في الأوساط الأرستقراطية والجاهلية، تعامياً عن فضائل الكرامات وفواضل الصفات، استئصالاً لها وتأصيلاً للشهوات والمصلحيات، فإلى حلقة رابعة من حلقات البليات لصاحب الشيم الكريمة والقيم العالية:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1]:

﴿فَتَيَانِۖ﴾ هما عبيدان من خدم البلاط كما تلمح له ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾ فأحدهما ساقيه، والآخر خبازه، ويا لها من معية بارعة تخلق ظرفاً صالحاً

---

(١) في تكوين التوراة الإصحاح ٣٩ يقول: «فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أنّ غضبه حمي فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه وكان هناك في بيت السجن، ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفاً وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن وكل ما كانوا يعلمون هناك كان هو العامل ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما في يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه، ثم في الإصحاح ٤١، تسوق قصة صاحبي السجن ورؤياهما ورؤيا فرعون مصر وملخصه: إنهما كانا رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين أذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرطة عند يوسف فرأى رئيس السقاة في منامه أنه يعصر خمراً والآخر أن الطير تأكل من طعام حمله على رأسه فاستفتيا يوسف فعبر رؤيا الأول برجوعه إلى سقي فرعون شغله السابق والثاني بصلبه وأكل الطير من لحمه وسأل الساقي أن يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك...

لتخلُّص يوسف من السجن، وقد يخصر السياق أمره معهما دون أن يحصره ولأن أمرهما هو الأساس في تبرزه في تأويل رؤياهما، وهما اللذان رأياه من المحسنين تفرساً فارساً مارساً من عشرته قلّت أم كثرت، فأهل الفراسة يتفرسون الإحسان وسواه في صفحات الوجه وفلتات اللسان ووجنات الأركان.

وعلّ ﴿قَالَ﴾ دون عطف تلمح إلى وصل القول بالدخول دون فصل، أم فصلاً بليل أو قدر من النوم يصلح لرؤياهما، ولأن فصله كان قريباً وفي نفس الوقت غريباً لـ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إحساناً جعله موضع ثقة المساجين، متوسمين فيه من طيبة، وصلاحاً وإصلاحاً.

ولماذا ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ هنا دون «رأيت» كما في رؤيا يوسف؟ كأن فاعله المنام، فهو الذي أراني دون اليقظة، أراني ما كنت فاعله للملك وشاغله وأنا الآن في سجنه ﴿أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ إراءة لهذه الحالة.

و﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ والخمر لا تُعصر وإنما يعصر لها العنب، هذا تعبير رائج هائج عن عصر عصير كثير وكما: خبزت خبزاً وطبخت آجراً، اعتباراً بالمآل، عطفاً له على الحال، وكأن المآل حال قضية تأكد الاشتغال.

الفتيان يذكران رؤياهما، راغبين تأويلهما حقاً ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمحسن يرى بشفافية روحه ما لا يراه المسيء، ويحسن إلى سجين مثله ما لا يرجى من المسيئين.

وهل يبتدر يوسف بالتأويل، عجالة في إحسانه دنيوياً قبل إحسانه إليهما روحياً وأخروياً؟ كلّا، فعلى رجالات الحق انتهاز الفُرص للدعوة إلى الحق، وكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة، وإصلاح الأوضاع الكاسدة، التي تقوم على حق الربوبية لآلهة الأرض، وإبطالها لإله السماوات والأرض! فهل يبدأ يوسف بدعوته تعامياً عما يتطلبان؟ وفيه إبعاد

عن الحق لأنه خلاف غايتهما القصوى! والسياسة الصالحة هنا في الدعوة تتطلب تقديم رجاءٍ واطمئنان لهما أنه سوف يقضي طلبتهما، وهنا جوٌّ صالح بين الأمرين لكي يبين سبب كونه من المحسنين ليجذبهم إحسانه كما هو.

ولكي يُطَمئنهما أكثر مما يريان، يبين موقفه من تأويل، أنه ليس فقط للرؤيا، بل وله علم تأويل الطعام:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

وهكذا يدخل يوسف في نفوس صاحبي السجن بكل سياسة وكياسة في تنقّل الحديث، حيث يؤكد لنفسه عليهما من العلم اللدني أكثر مما يريان حيث ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ أياً كان وأيان ومن أيٍّ كان، من السجن أو خارجه ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ وذلك من إنباءات النبوات كما في المسيح عليه السلام ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فحتى لا يظننا أنه خبير بتأويل الرؤيا - فقط - في ظنون كسواه من المعبرين، أم أنه - فقط - معبر الرؤيا كذي فنٍّ مثل سائر الفنون مهما كان بعيداً عن الظنون، ولأنه يزعج المصاحب الثاني تأويلاً لرؤياه بصلبه، لهذه كلها وحكم أمثالها أخذ يبين موقفه من العلم الرسالي، ومن هوامشه تأويل الرؤيا، لكي يقع تأويله موقعه من القبول، وعلّ الذي يصلب يؤمن بذلك قبل صلبه فلا يموت مشركاً، وحين يؤمن فلا يهمه الصلب أم يبقى حياً، وكذا الذي ينجو يحظو بالإيمان فلا يعد ساقي ربه، ويذكره عنده علّه ينجو من تهمته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

وعلى الجملة فداعية الحق عليه في كل مجال أن يتذرع لدعوته ذريعة، وهي الآن تأويل رؤيا صاحبي السجن، فلما يؤولها لهما وهما فيه بحاجة إليه مدقعة، ولتكن الفترة بين قالتهم وتأويله مجالة مناسبة لدعوته بأدائه ببيان كيانه في العلم، ومن هوامشه تأويل الطعام فضلاً عن الرؤيا، هنا يأخذ كلامه مجامع الأسماع والقلوب، وهنا يفعل ما يشاء من الهدى مقلب القلوب.

فليس السجن لأصحاب الدعوات الرسالية ومن يحملونها من سواهم، إنه ليس سجناً لدعواتهم، بل تعلو فيه نبراتها، وتشعُّ أكثر وأكثر من خارج السجن أثراتها، حيث السجن للأبرياء، وحتى سواهم، هو جو الانقطاع إلى الله عن كل ما سوى الله.

فعبثاً يفكر الطغاة ويحاولون أن سجن الأبدان للدعاة هو سجن للدعوات! وهنالك ليوسف مربع من الإنباءات الغيبية، ١ - تأويل كل طعام قبل أن يأتيهما في مثلث الزمان، ٢ - أين مصدره وأنى؟، ٣ - وكيف هو لمّا يأتي وماذا أثره؟، ٤ - وما يؤول إليه بالمآل، حيث التأويل هو المرجع بداية أو نهاية أم في الحال، فأنا أنبئكم ما سيأتيكم من طعام قبل إتيانه، وماذا أثره، هل يضر أو ينفع، هل هو سم[1] قاتل يقطع أم غذاء ينفع، فأنا - إذاً - بتأويل الرؤيا أقدر، وقد تعني ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ - ضمن ما تعني - تأويل رؤياهما، وإنما أفرد الضمير في تذكير اعتباراً بمرجعه الأصيل ﴿طَعَامٌ﴾ وأما أن تعني الرؤيا فقط فخلاف أدب اللفظ والمعنى[2].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٩ - أخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ . . .﴾ [يُوسُف: ٣٧] قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أن عنده علماً وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به اليه . . .

(٢) أما أدب اللفظ فلأن الرؤيا مؤنث والضمير مذكر، وهي هنا اثنتان والضمير مفرد، وأما المعنى فلأن تأويل الرؤيا لا صلة له بإتيان طعام يرزقانه.

وذلكما العلم الواسع ليس يحصل - بطبيعة الحال - من دراسات رسمية، بل «ذلكما» البعيد المدى، الشاسع المحتد ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ بجنب علوم أخرى تتبناها الرسالة الإلهية، فهذه كآيات تدل على اختصاص صاحبها بالله، وتلك الرسالية الأخرى هي مادة الرسالة ومبناها ومدعاها وحجرها الأساس، نبراساً ينير الدرب على السالكين.

ولماذا هكذا علمني ربي دونكم وسائر الناس لـ ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ نفياً يمثل «لا إله» ومن ثم إثبات يمثل «إلا الله» واتبعت ملة آبائي...».

فرغم أنني ربّيت منذ الطفولة حتى بلوغ أشدّي في جو الشرك والإلحاد، ونوازع الشهوات والحيونات، ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ...﴾ وبكل إصرار وإجهار، وكفاني موقفي من امرأة العزيز ونسوة في المدينة.

﴿... تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وبطبيعة الحال ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لا سواهم، حيث الإيمان بالله يدفع للإيمان بالآخرة، ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ...﴾: فلا إله: ثم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾:

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٨﴾:

فتلكما ملة التوحيد، وهؤلاء من دعاته الأصول، فأنا اتبعت ملة هؤلاء الآباء الأكارم نسخة طبق الأصل و﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ...﴾ فـ ﴿مَا كَانَ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي، تثبيتاً لكيان التوحيد العريق العميق في ذواتنا، دون ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ غير الله، لا إشراكاً في الربوبية ولا في العبودية أمّا هيه من مختلف دركات الإشراك، من رياء وسمعة إلى عبادة الأوثان وبينهما عوان.

و«ذلك» العظيم العظيم ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ أن جعلنا من دعاة التوحيد

ونفاة الشرك ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أرسل إليهم أمثالنا من المخلصين الصامدين في التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة العالية الغالية فـ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[١]! ملة إبراهيم وهي سنة التوحيد الخاص، بعيدة عن إفراط أو تفريط، نائية عن تسرب الشرك بدركاته، هذه الملة هي المتّبعة للأنبياء الإبراهيميين ولكافة المسلمين على طول الخط الرسالي، وحتى خاتم النبيين، وهو في أعلى قمم التوحيد: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢] ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٣] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٤]! وهنا يوسف في السجن بين السجناء المشركين يقرر خطه المستقيم وصراطه القويم: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٥]. ثم بعد التعريف بملته يأخذ في دعوة التوحيد، حيث الداعي إلى الحق عليه أولاً أن يحققه في نفسه ويبينه:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾:

أيا صاحبي سجن البدن، لماذا أنتم في سجن الروح وهو أسجن وألعن، ألا فتحرروا من ذلك السجن اللعين، ﴿. . . ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ سؤال يهجم على أعماق الفِطَر والفِكَر والعقول، فيهزّها هزة موقظة، فالفطرة لا تعرف إلّا إلهاً واحداً هو ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٨.

والعقل الناضج الذي يتبنى الفطرة وسائر الآيات آفاقية وأنفسية، كذلك لا تعرف إلّا ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ والكون بوحدة تدبيره ونظامه دون تفاوت يشهد أنه ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

ثم وفي مواصفة ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ بـ ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ ومواصفة «الله» وجاهها بـ ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دليل إجمالي فيه تفاصيل الأدلة على بطلان الشرك وضرورة التوحيد.

فالأرباب المتفرقون الذين لا يملك كلٌّ نفسه فضلاً عن عُبّاده، ولا يقهر شركاءه فيتوحد، وهي متقسمة الأقدار، مختلفة المقادير، متشاكسة فيها، هذه المتفرقة المفرقة لا تجدي نفعاً إلّا تبعثراً في الحياة، وتعثراً في متطلبات الحياة، فلا خير فيها - إذاً - إلّا شرٌّ.

وترى كيف تتأتى هنا صيغة الخير وهي أفعل تفضيل يقابلها ما فيه قليل الخير، والأرباب المتفرقون لا خير فيهم لا كثيراً ولا قليلاً؟

الخير فيما لا يعدّى بمن لا يعني الأفعل، بل مقابل الشر، فإما الأرباب المتفرقون خير والله الواحد القهار شرٌّ! أم الله خير وهم أشرار وقد يؤتى بالخير الأفعل مقابل الشر مسايرة في الحجاج، دفعاً عن اللجاج، وأخذاً بأقل تقدير بين الأمرين أنّ أحدهما المدّعى أفضل فليترك أمامه المفضول مهما كان فيه فضل.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ في ربوبياتهم، كرب العلم ورب القدرة ورب الحياة، ورب السماء ورب الأرض، ورب الشمس والقمر، ورب البحار، ورب الحسن ورب الحب ورب الأمن والخصب، وهم - على زعمهم - ملائكة الله حيث هم حملة تعيّنات ذات الله وصفاته - ثم الأرباب الجن وهم - على زعمهم - مبادئ الشر، ومن ثم أولياء الله، وهذه الثلاث كأصول الأرباب، وكل متفرقون في عديدهم وربوبياتهم ومربوبيهم، تفرقات

فوق تفرقات، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور؟.

أهؤلاء خير ﴿أَمِ ٱللَّهُ - ٱلْوَٰحِدُ - ٱلْقَهَّارُ﴾ فـ «الله» واحد في ألوهيته الأصيلة لدى الكل وفي خالقيته ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

فمن ثم هو واحد في ربوبيته ومعبوديته، كوحدته الحقيقية في سائر الجهات والحيثيات الذاتية والصفاتية والأفعالية.

واحدٌ في مثلث الزمان وقبله وبعده، لم يكن عديداً ثم توحد، كما ليس هو الآن في عدد، وليس يتعدد، وواحد في ذاته حيث البساطة المطلقة، دون بعد ولا أبعاد، ولا حد ولا حدود، وواحد في صفات ذاته أنها عين بعض، وكلها عين الذات دون تعدد إلّا في تحبير اللغات.

وعلى الجملة هو واحد في عمق الأزل والأبد والسرمد، واحدٌ لا يعدد ولا عن عدد ولا بتأويل عدد، ويستحيل عليه العدد ذاتاً وصفاتاً وكياناً فلن يتعدد، وذلك قضية كونه ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

«قهار» يقهر التعدد أياً كان وأيان، ويقهر شركاءه المخلوقون، ويقهر كل نقص وركس، قهاراً في كافة الحقول دون أن يقهر بإشراك أو تنقيص أو أفول، فهو واحد في قهاريته، قهار في واحديته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا يقهرون شركاءهم ولا عبّادهم ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2]! ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[3].

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

وليسوا ليخلقوا شيئاً حتى يقهروه ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[(١)]! ثم يوم القيامة قهار كما هو اليوم قهار ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[(٢)] ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[(٣)].

فسبحانه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[(٤)] ليس في سائر الآلهة الأرباب إلّا دمار وبوار ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾[(٥)]!

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

الأرباب المتفرقون التي تعبدون، ما يملكون من الربوبية أمراً ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ ليست لها مسميات، تسميات جوفاء خواء ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ ما لم يأذن به الله، ولم يسمها الله إذ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ لا سلطان الدليل والبرهان، فلا برهان من الله على ربوبيتها، ولا سلطان العلم والقدرة، فكيف تشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً، ثم عساكر البراهين آفاقية وأنفسية هي كلها سلطانه على أنه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

فـ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ لربوبية سواه لو أمكنت، وسائر الحكم ﴿إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ ومن حكمه المستمر طول الرسالات خلاف ما تزعمون وتشركون ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ أمر الحكم إمرة دون ما يقابل النهي، فقد حكم ذلك الحاكم الوحيد في الكون ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ في كلمة مطردة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٤.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر الحكم هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] ودين ناموس الكون بوحدة النظام والتنسيق الدالة على وحدة المنظم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلاً في تقصير طال أم قصر حيث الإشراك بالله لا يقبل القصور، إلَّا تقصيراً في تجاهل أو جهالة بمختلف الدركات! فدين التوحيد هو الدين القيم، القوي القائم لإدارة شؤون الأفراد والمجتمعات، دون تزعزع ولا فشل ولا عوج.

فإذ ليس وراء الأسماء التي سميتوها أنتم وآباؤكم المشركون، إلَّا ادعاء هباء وخواء، فما تعبدون من دونه إلَّا أسماء وعبادة الاسم خواء وهباء، وحتى إذا كان اسم الله فضلاً عن الشركاء، فهي إذاً عبادة خاوية في بعدين هباءً على هباء.

وعبادة المعبود إن كانت لألوهيته في ذاته؟ فإنه هو الله لا سواه! وإن كانت لربوبية معطاة من قبل الله؟ فما أنزل الله بها من سلطان، وحتى لو كان فكيف يُسوى في العبادة بينها وبين الله، بل تترك - بالمرة - عبادة الله، ويوحّد الأرباب المتفرقون في عبادتهم، دون الله!: توحيد الشرك! أن يعبد الشركاء دون الله.

ثم العبادة إن كانت طاعة في مصلحيات الحياة، فالأصلح فيها عبادة الله الذي خلق الشركاء! بل هي الصالحة دون سواها، فإنهم أرباب متفرقون، قاصرون في توجيهاتهم - لو كانت - وقاصرون في ربوبياتهم المتخيلة، إذ تفرقت، والحياة الوحيدة المطمئنة ليست إلَّا على ضوء عبادة ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وبيده ملكوت كل شيء وناصيته! ف ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ في الحياة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ويمختلف الحقول، ولدي كل الفطر والعقول ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1].

فـ ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ هو الدينونة الحقيقية لله وحده، الخضوع له وحده، واتباع أمره وحده، سواء في شعيرة تعبدية أو سياسية، أخلاقية أو ثقافية أو اقتصادية أمّا هيه من قضايا الدينونة المطلقة، التي تحلّق على كافة الحقول الحيوية منذ الولادة حتى الممات.

ولقد رسم يوسف الصديق في هذه المجالة القليلة، بهذه الكلمات القلة الناصحة الناصعة الجميلة، رسم بها فيها كل معالم الدين القيم، وكل مقوماته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فقد نرى يوسف السجين بأيدي المشركين يخطط في السجن ويرسم هندسة القضاء على حكم الفراعنة والطواغيت، متذرعاً إليه بتعبير الرويا، وإلى استلام عرش الحكم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

فأخيراً يجهّل الطغمة الحاكمة والمحكوم عليهم، تجهيلاً للمرسوم الملكي الجبار الفرعوني، إنه اغتصاب لحكم ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي هو المدار وعليه الطمأنينة والقرار.

وهنا بعدما تتم الدعوة في كل إجمال وجمال يبدأ الصديق بتأويل رؤيا صاحبي السجن بكل رياحة حال واطمئنان بال حيث قال:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾:

التأويلان ظاهران في تناسبهما مع رؤياهما، ولكن ترى ما هو موقف ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؟

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

هل إنه يلمح بتكذيب منهما لرؤياهما؟ فكيف أصغيا لدعوته الرسالية قبل تأويلهما! وما هو الدافع لاختلاق رؤيا عند من يريانه من المحسنين! ولم يكن يدعي من ذي قبل أنني عالم بتأويل الرؤيا حتى يجرباه امتحاناً أو امتهاناً! وقوله للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك، ثم سكوته عما يكذبه في تأويله لكذبه في رؤياه، دليل لا مرد له على صدقه في رؤياه! وكيف يلهم نبي الله تأويل الرؤيا ولا يلهم كذبها وفيه فضح الرسول ونقض الرسالة! أو أنه - لأقل تقدير - لمحة بتكذيب الآخر رؤياه إذ هوّله ما أوّله من صلبه؟ فكذلك الأمر! ثم ولم يكن التهويل إلّا للآخر فلماذا يجمع معه الأوّل في ﴿تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾؟! ومن ثم كيف يتحقق تأويل رؤيا كاذبة، فما رواية كذبه أو كذبهما إلّا كاذبة، لا تلائم الآية وساحة النبوة ولا عدل الربوبية، أن الكذب في رؤيا جزاؤه الصلب! قد يعني ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ...﴾ القضاء على الحيرة الحاصلة للأوّل بتبشيره وللآخر بإنذاره، وعلّ الآخر أخذته الريبة في تأويله تخوفاً، والآخر أخذته تبجحاً وتنشفاً، لذلك يؤكد صدق فتواه في تأويله بقضاء الأمر ومضيّه، والأمر المستفتى فيه هو الرؤيا، وقضاؤه تحقق تأويله، وهذا أولى بأدب اللفظ وحق المعنى، دون تحميل على الآية ولا تأويل دون دليل!

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَقَالَ﴾ يوسف بعد قضائه أمر صاحبي السجن وإفتائه ما أفتى ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ أتراه هو الذي ظن فيما أفتاه وقضاه؟ والقضاء علمٌ! ولا سيما أنه من تعليم الله: «ولنعلمنه من تأويل الأحاديث»! فهل إن الله يظن كما الخلق؟ أم إن النبي يظن فيما يقضي به بالوحي؟.

أم الذي أفتى بنجاته هو الذي ظن؟ وقد يؤيده ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ

تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ حيث يلمح أنهما لم يصدقاه تماماً، وهو طبيعة الحال فيمن لم يؤمن بالوحي والرسالة، فإنما آمن بما قضي له ظناً إذ كان لصالحه، وهو قضاء رجل محسن صالح ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد يعني فيما عناه ظن يوسف أيضاً، حيث العلم الظاهر هو في الحق ظن، إذ ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1] اللّهم إلّا في أحكام الشرعة فلا محو فيها إلّا نسخاً، فرغم أن يوسف كان يعلم بما علمه الله أنه ناج، ولكنه مما يتحمل المحو والإثبات فعلّه يُمحى أو علّه يثبت، فلذلك يصح التعبير أنه ظن، ولكن أين ظن من ظن؟ ظن الناجي قصوراً لعدم الإيمان، وظن يوسف عالماً لقمّة الإيمان، أن لله أن يمحو ما علّمه وقضاه.

﴿قَالَ... ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لما نجوت، أذكر أنني في سجنه حيث أنسوني بتهمة المراودة ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ واذكر حالي ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وعلمي بتأويل الرؤيا، علّه يحتاجني فلا يجتاحني ويبقيني على تهمتي في السجن ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ وحين يعلم ربك أنني من المحسنين والعالمين بتأويل الرويا، وأنني كما بينت من النبيين، علّه يغير رأيه: أنني من الخائنين والجاهلين ومن الناس العادين.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ...﴾ وترى من هذا الذي أنساه الشيطان ذكر ربه؟ هل هو يوسف الصديق؟ وهنا شهادات سبع - كما هناك - في «هم بها» على براءته، وأن الشيطان إنما أنسى الناجي منهما أن يذكره عند الملك.

١ - ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ...﴾ شاهد أوّل على براءته حيث الإنساء هنا مفرّع على ﴿وَقَالَ لِلَّذِي...﴾ ولو كان الإنساء ليوسف لكان

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ مفرعاً عليه، وقلبت العبارة لتدل واضحة عليه: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ...﴾ فقال حتى يكون قوله نتيجة إنساء الشيطان، وهو الآن يعاكسه، فإنما الشيطان أنسى الناجي ذكر ربه، وبالنتيجة ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ما لو ذكره لم يلبث بضعها.

٢ - وشاهد ثان ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ...﴾[1] بعد آيتين هنا، وبعد مضي بضع سنين، والمدَّكِر هو الناجي، وليس الادكار إلّا بعد النسيان، فليكن إنساء الشيطان له حتى ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ دون يوسف المظلوم الصدّيق الذي ظلمه العدو والصّديق.

٣ - وشاهد ثالث ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾[2] فلو كان ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ توسلاً منه إلى غير الله، ونسياناً لذكر الله، لكان يستجيب الملك فور وصول الرسول، وهذا مما يدل أن ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ كان منه ذريعة إلى براءته عن سجن التهمة، وذلك قضية الإيمان وذكر الرب، دون نسيان لذكر الرب.

٤ - وشاهد رابع ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[3] فما قولي للناجي ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ إلّا لهذه الغاية، ليعلم العزيز أني لم أخنه، وهم زجوني في السجن بتهمة الخيانة، وهذا من خلفيات ذكر الرب دون نسيانه، حيث المحاولة في البراءة عن الخيانة ولا سيما عن ساحة النبوة، هذه قضية قوة الإيمان دون ضعفه أو نسيان لذكر الله.

٥ - وشاهد خامس أن إنساء الشيطان لذكر الرحمن من أنحس السلطان على قلوب العباد، وليس للشيطان أي سلطان على عباد الله المخلصين كما

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

في آيات، وفي يوسف ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[1] وإنساء الشيطان من أسوأ السوء وأفحش الفحشاء، لأنه مفتاح كل سوء وفحشاء، أفيزعم مختلقو التهم على يوسف أن ربه كذب فما صرف عنه إنساء الشيطان، أو نسي أنه من عباده المخلَصِين؟!

٦ - وشاهد سادس أنه لم يهم بها إذ ﴿رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ولا صبا إليهن إذ ﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾[2] وهذان الموقفان من أخطر مواقف الامتحان وأزلِّها للأقدام، ويوسف الصديق لا ينسى فيهما ربه، فبأحرى ألّا ينساه في السجن، وهو أحب إليه مما يدعونه إليه! فكيف يتوسل في الخروج عنه دخولاً في سجن النسيان.

٧ - وشاهد سابع أن التوسل إلى غير الله فيما لا يجوز، كخلفية لإنساء الشيطان هو من الشرك، وهو القائل لصاحبي السجن ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ وهذا هو ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ ومن أشنع شيءٍ! وهو القائل ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ. . .﴾ وإبراهيم لم يبرز حاجته لجبريل وهو على المنجنيق إلى النار حيث يقول له: أما إليك فلا، فكيف يتوسل متّبعه في ملته بفرعون لخلاصه بوسيط فرعوني مشرك؟! ثم إن ذكر الله والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب للتوصل إلى ما يرضاه الله، يوسف يدخل إلى سجنه حيث أحبه فراراً عما يدعونه إليه، ولكنه سجن بتهمة المراودة، وهي أقل المحظورين بالنسبة له، فهلّا تجب عليه محاولات متعددة مشروعة لإبعاد التهمة الملصقة به، فلو كان سجناً بلا تهمة لم يكن ليتوسل بمن توسل، اللهم إلّا لراجحة أو واجبة أخرى.

ففي الحق ليست قالة الصديق للذي ظن أنه ناج: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٤.

رَبِّكَ﴾ إلّا تحقيقاً لأمر الحق بحقه حفاظاً على ساحة الرسالة القدسية من تهمة الخيانة وخيانة التهمة، وكما أمر الله ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[1] وإذا كان خروجه من السجن بهذه الذكرى الصالحة فهي وسيلة إلى الله خلاصاً له من السجن وكما قال الله ﴿...وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ...﴾[2].

أفيحق بعد ذلك كله أن يتهم بإنساء الشيطان له ذكر ربه! أم يندّد به لماذا توسل بما توسل لبراءته؟ إن هذا إلّا إفك قديم وشيطنة مدروسة وهرطقة مدسوسة ضد ساحة الرسالة القدسية وإن تظافرت به الروايات[3] فإنها مضروبة عرض الحائط لمخالفتها كتاب الله!

﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لا يعني إلّا مجرد ذكره عند الملك ليخرج عن التناسي المعمَّد بحقه على ذكر تهمة الخيانة المتداولة على الألسن، دون أية

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٣) الدر المنثور ٤: ٣٠ أخرج بعدة طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن طول ما لبث أو: لولا أن يوسف استشفع على ربه ما لبث في السجن طول ما لبث ولكن إنما عوقب باستشفاعه على ربه، أو لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى.

وفي نور الثقلين ٢: ٤٢٧ عن المجمع وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: عجبت من أخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق، وعن تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله ليوسف: ألست حببتك إلى أبيك وفضلتك على الناس بالحسن، أولست بعثت إليك السيارة وأنقذتك وأخرجتك من الجب؟ أولست الذي صرفت عنك كيد النسوة؟ فما حملك على أن ترفع رغبتك أو تدعو مخلوقاً دوني فالبث لما قلت في السجن بضع سنين.

أقول: ليس في شيء من هذه وتلك أن الشيطان أنساه ذكر ربه، وإنما نكاية عليه لما توسل إلى مخلوق مّا، وهذا تهديم لكافة الأسباب التي يجوز التمسك بها أو يجب لأمر جائز أو واجب، إذاً فهي كلها من الموضوعات وضعتها الأيدي الأثيمة الإسرائيلية، فتسربت إلى أحاديثنا وأخذت موضعها من القبول لدى من لا يؤصّلون القرآن في حجته، وهذا غريب من الأكثرية الساحقة في كافة الحقول العلمية الإسلامية كيف يعتمدون على روايات مخالفة لكتاب الله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؟!

وساطة بينه وبين الملك، أو التماس عفو أمّا ذا مما لا تناسب ساحة العبودية فضلاً عن سماحة الرسالة، فإنما ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ والذكر فقط، ولو كان أمراً وراءَه قال: عند الملك، أم: عند الرب أم: عند ربنا، ليستجيش رحمته عليه، ولكنه ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ إعلاناً بأن ربوبيته وسلطته ليست على ذلك السجين، وإنما على ربعه والذين استخفهم فأطاعوه.

وحتى إذا أرسل إليه الملك ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ يقول لرسوله ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دون استجابة لدعوة الخروج، ولا امتنان منه، فإنما ﴿ٱرۡجِعۡ... فَسۡـَٔلۡهُ﴾.

ليأخذ البراءَة وهو في السجن، فيكون خروجه عن سجن التهمة قبل هذا السجن الذي قال عنه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ انشغالاً بما كان من سقاية الخمر للملك، وتناسياً تلك الفترة الرحيمة في سجنه مع يوسف الصديق، حيث الشيطان يحاول دوماً في إبقاء الصدّيقين في السجن بتهمة الخيانة أمّا هيه من تهمة، ومن مخلفات ذلك النسيان:

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة، ثم لا نرى يوسف أن يعود في التوسل، حيث طبّق واجبه الإيماني والرسالي وعلّ في تكراره مع السجناء الآخرين مزرءَة بساحة الرسالة، فيصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، ولم يكن طائل السجن له في باطن أمره إلّا لصالحه، فعلّه لو خرج قبل بضعه لكان فيه تهدد لبضعه من كيد امرأة العزيز ونسوة في المدينة!

أو علّه تنبيهة له أن ربه هو الذي يذكِّر ناجي السجن لوقته الصالح، دون أن يَذكُر هو بما ذكّر، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد خارج عن ربقة عبوديته، ولا سبب يرتبط بعبد، وذلك من اصطفائه وإكرامه!

فهرس الجزء الرابع عشر

الموضوع الصفحة

تتمة سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف